جون ملْتُن

(القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال...)

محمود الخفيف

اســـــم الكتـــــاب: جون ملْتُن

اســـم المـــؤلـــــف: محمود الخفيف

التـرقيم الـــــدولي:**978-977-6666-40-5**

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشـر والتوزيع المشـهرة برقم ٢٤٨٢١ بتاريخ ٢٠١٥/١٠/١. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشــر أو تخزينه في نطاق اســتعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صـــاحبه للمســـاءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

في اليوم التاسع من شهر ديسمبر سنة ١٦٠٨، فتح الوليد جون ملتن عينيه على نور الوجود؛ وبمولده رزقت إنجلترة أعظم شـــعرائها قاطبة حتى يومنا هذا، إذا اسـتثنينا (شـكسـبير) وحده، واسـتقبلت الدنيا قرين الثلاثة الأفذاذ من شعراء الغرب الخالدين: وهم (هوميروس) و(دانتي) و(شكسبير).

وكانت إنجلترة حين مضـى الطفل يسـتقبل حياته، تسـتدبر في حياتها الأدبية عهداً وتستقبل عهداً. كانت إذا شبهنا ذينك العهدين بفصلين من فصول السنة، بين أعقاب الربيع وطلائع الصـــيف؛ فأما الربيع المدبر، فكان العصـــر الأليزابيثي، وأما الصـيف المقبل، فكان العصـر البيوريتاني. ولقد ألف مؤرخو الأدب الإنجليزي أن يسموا العصر الأول عصر (شكسبير)، والعصر الثاني عصر (ملتن).

وكان العصـر الذي تسـتدبره إنجلترة ويسـتدبره ذلك الوليد، عصـراً فذاً في العصـــور الأدبية جميعاً، إذا اســـتعرضـــنا التاريخ الأدبي لهذه الدنيا قديمها وحديثها...

كان حافلاً كما يحفل الربيع بالضـوء والنماء والزينة، وكانت ألحانه كألحان الربيع أنماطاً تملأ الأســماع من كل ركن وفي كل ســهل، وكانت نفوس أهله تسـتشـعر روح العصـر كأقوى ما تسـتشـعر الأنفس روح الربيع، ففي كل قلب تســري الفرحة، وفي كل جســم تدب القوة، وفي كل ذهن يقوم إحســاس قوي غـامر بجمـال الحيـاة، والأمـل في الحيـاة، والرغبـة في الاســتزادة من لـذائـذ الحياة...

وإنك لتجد لهذا العصر روحاً مميزة شاعت في حياة الناس، وسيطرت على تلك الحياة، وتتلخص هذه الروح فيما يفهم من كلمتين هما النهضـــة والحرية : فأما الأولى، فقوامها إحياء علوم الأقدمين من اليونان والرومان، وإحياء فنونهم وآدابهم؛ وأما الثانية، وهي ثمرة للأولى، فقوامها الانطلاق من ليل العصـــور

الوســـطى، والانعتاق من قيودها إلى حيث يفيض النور، ويتســـع مجال التفنن والابتداع.

أقبل الناس على دراســة مخلفات اليونان والرومان في حماســة ولذة، وآمن الناس إيماناً قوياً بأن لهم أن يستمتعوا بالحياة أعظم استمتاع وأوسعه، فيغنموا ما في الدنيا من مسـرات وزينة؛ فما منحوا الحياة لكي يقضــوها متزمتين منها برمين بها؛ وأيقن الناي أن من أهم ما يجب أن تتصـــف به حياتهم الجديدة هو بث روح الجمال في النفوس والعمل على الســمو بها حتى تســتشــعر الجمال وتبحث عن الجمال وتأنس به لا كمتعة من متع الدنيا فحسب بل كنشوة روحية لا غنى للروح عنها إن هي أرادت التحليق والســمو. وتمســك الناس بفكرة لن يحيدوا عنها، وذلك أن الله وهبهم العقل لينظروا ويتدبروا غير مقيدين بما سلف من آراء مهما بلغ من قيمتها، ولذلك كرهوا القيود كرهاً شــديداً وأحبوا الحرية حباً شـديداً، وظهر أثر هذا الحب فيما ابتدعوا من شـعر ونثر، لا في مادة ذلك الشـــعر وذلك النثر فحســـب، ولكن في الطريقة والصـــورة بل وفي الألفاظ المستعملة كذلك.

وملأ قلوب الناس التطلع إلى توســـيع أفق الحياة العقلية في كل ناحية من نواحيها، وقد جاءهم ذلك مما تم لهم فعلاً من توســـيع أفق الحياة المادية بعد كشـــف الدنيا الجديدة، نتيجة لمغامرة المغامرين منهم وراء البحار في الغرب وفي أسواق آسيا في الشرق؛ وأقبل الناس على كل طريف يتقصونه من الأنباء عن العالم الجديد وعن الشـــرق، فأثر ذلك في اتجاه عقولهم وفيما أنتجته تلك العقول، تلمس ذلك في الكثير من قصصهم ومسرحياتهم وما تعج به من مواقف مثيرة وحوادث تســـتهوي الألباب وأفانين من مبتدعات الخيال تبث الروح في النفوس وتحملها على الإعجاب والاستزادة وتيسر لها سبل الابتكار والخلق.

وطاف بالناس شــعور بمجد وطنهم وعظمته وتفوقه على غيره، وبخاصــة بعد أن حطم أسطولهم الأرمادا أسطول أسبانيا الهائل؛ كما ملأت أفئدتهم وطنية

صـــــادقـة يلتقي عنـدهـا ويتفق عليهـا المتنـازعون في الـدين من الكـاثوليـك والبيوريتانز؛ وإلى جانب ذلك كله أنجب العصر من أفذاذ الرجال في كل ميدان من ميادين الحياة ما يصـــعب الوقوع على أمثالهم مجتمعين على هذا النحو في غيره من العصـــور، فلم تخل ناحية من النواحي من أماثل نابهين، ففي الأدب والفن والفلسفة وفي الجندية والبحرية والسياسية والحاشية عظماء يزدان بهم العصر وتعظم بهم الحياة.

هذا هو العصـــر الذي كانت تســتدبره إنجلترة ويســتدبره ملتن، أو هذا هو الربيع الراحل؛ ولن تعدم المعين في أخريات الربيع أن تقع على زهرات شتيتة هنا أو هناك في جنته التي تنذرها أنفاس الصـــيف بالفناء القريب؛ ولن تعدم الأذن كذلك أن تســـمع في ذلك الفردوس الذاهب نغمات حائرة بين الحياة والموت. وكذلك كان الحال في أخريات عهد إليزابث، فكانت بعض ثمرات العقول مثل كتابات بيكون لا تزال تقدم إلى المجتمع، كما كانت بعض ألحان العصر كأصداء الربيع الذاهب لا تزال توقع على أوتار شكسبير إذ لم تسكت تلك الأوتار إلا بموت صاحبها عام ١٦١٦ أي بعد ثمانية أعوام من مولد ملتن.

وأقبل الصيف في إثر الربيع فجاء منذراً بالقيظ تلفح أنفاسه لفحاً يبدو قاسياً وتشعر النفوس في مقدمه بالصرامة والقسوة والعبوس حتى كان ينسيها ذلك طلاقة الربيع ومفاتن الربيع.

تمكنت البيوريتانية من المجتمع وتسلطت على الناس؛ وكان ملتن يستقبل شبابه بينما كان ذلك المذهب يستقبل فتوته وسلطانه. واعتنق ملتن ذلك المذهب وتحمس له، ولكن كانت قد اســـتقرت في حســـه وخياله تلك المواكب التي انطوت، وتلك النغمات التي احتبست، فراح كالطائر المنفرد المتخلف يغني في هجير الصيف ألحان الربيع!

وما هذه البيوريتانية التي سوف يعتنقها الشاعر في شبابه والتي سوف تؤثر تأثيراً قوياً في مزاجه وفنه وسلوكه وموقفه من حياة عصره؟ أجل، ما هذا الصيف الصارم العابس الذي أعقب ذلك الربيع الرضى الطلق؟

جدير بنا أن نعرف أولاً من هم البيرويتانز ولماذا أطلق عليهم هذا الاسم قبل أن نتعرض لمذهبهم ونظرتهم إلى مسائل الحياة وأثر تلك النظرة في العصر الذي تم لهم فيه السيطرة والجاه.

أطلقت هذه الكلمة أول ما أطلقت على فريق من رجال الكنيسة في إنجلترة في عهد الملكة اليزابث، فقد أرادت هذه الملكة أن توحد طقوس العبادة في كنائس مملكتها جميعاً، وكان أبوها الملك هنري الثامن قد فصل الكنيسة في إنجلترة عن كنيسة روما عام ١٥٢٩ بسبب ما شجر بينه وبين البابا من خلاف يتصل بقضية زواجه، وجعل الملك نفسه الرئيس الأعلى للكنيسة بدلاً من البابا؛ فأصدرت الملكة عام ١٥٥٩ المرسوم الذي يوحد العبادات ويحرم من صورها ما لم يرد ذكره فيه؛ فكان رجال الدين حيال هذا المرسوم فريقين، فريقاً رضى عنه، وفريقاً ودّ لو أنه كان أكثر تطرفاً في الابتعاد عن روما فأبطل ما لا يزال من صور العبادات يأتي على شاكلة ما يتبع في الكنيسة البابوية وما يعد في نظرهم من البدع والخرافات. وهذا الفريق الثاني هم الذين أطلق عليهم أسم البيرويتانز أو المطهرون، وذلك لأنهم كانوا يريدون تطهير العبادات من آثار كنيسة روما. ولم يمض على صدور ذلك المرسوم إلا نحو خمسة أعوام حتى كان هذا الاسم شائعاً على الألسن يطلقه الناس على هذه الفئة المغالية في القضاء على كل ما له صلة بروما.

ولكن ما هي إلا أعوام ثمانية أخرى حتى خرج بعض الناس ممن كرهوا هؤلاء المغالين بهذا اللفظ عن مدلوله البسيط فصاروا يطلقونه على كل من يرمونهم بالمروق من الدين ليلحقوا وصمة الفسوق بالبيوريتانز إذ يسلكونهم والفاسقين والمنافقين في سلك واحد، حتى لقد أوشك أن ينسى مدلول الكلمة كما

نشأت في وضعها الأول وأصبح البيوريتانز في نظر خصومهم ومن يجهلون أغراضهم هم الضالين الملحدين.

وتزايد استعمال الكلمة في مدلولها الجديد الظالم حتى أصبحت البيوريتانية في أذهان بعض الناس مرادفة للألحاد والنفاق والضلال وما كانت حين نشأت إلا الرغبة في الإصـــلاح والتطهر من البدع والتملص من كل ما لا يعد من جوهر الدين.

وزاد بعض خصوم المذهب بعداً بالكلمة عن معناها الأول فنسوا ما في ذلك المعنى من عنصر ديني طيباً كان ذلك العنصر أو خبيثاً، وصارت عندهم كلمة ســباب عامة يعبرون بها عن كل معيب ويطلقونها على كل من يريدون الطعن فيهم من الناس كما يطلق لفظ الشيطان مثلاً على كل شرير أو معتد أو عابث.

ولما شاعت البيوريتانية في المجتمع ونمت كمذهب لا يقتصر على النظرة الدينية بل يتناول كذلك السياسة والخلق والفكر والفن دأب خصوم هذا المذهب في محاربته بالطعن في أشـــياعه، وحســـبهم أن يطلقوا على الرجل منهم ذلك اللفظ الذي بعد عن مدلوله كل البعد والذي أصــبح مســبة عامة ليشــفوا ما في صــدورهم من غل. تجد مثلاً واضــحاً لذلك في العبارة الآتية التي وصــفت بها كاتبة في أوائل القرن الثامن عشر ما كان يلاقي البيوريتانز من خصومهم في عهد الملك جيمس الأول الذي خلف إليزابث على العرش عام ١٦٠٣ أي بعد نحو أربعين عاماً من مبدأ ظهور البيوريتانية قال: (إذا أظهر الرجل حزنه على ما ينال شـــرف المملكة وما يصـــب من العذاب على رؤوس الرعية فهو بيوريتان؛ وإذا تمســـك أحد أفاضـــل الريف بقوانين الأرض وحرص على المطالبة بحسن الإدارة وانتظام الحكم فهو بيوريتان؛ وإذا تمسك أحد أفاضل الريف بقوانين الأرض وحرص على المطالبة بحســـن الإدارة وانتظام الحكم فهو بيوريتان؛ وجميع من لا يأبهون بمطالب رجال الحاشـــية الممتدة أيديهم والقســـاوســـة المعتدين على الحقوق وذوي الرذيلة من النبلاء فهم كذلك

بيوريتانز! ومن لا يطيقون سماع الأيمان الحانثة والحوار الذي يكنفه الأسفاف، والتعريض الماجن والاستهزاء بكلام الله فهم جميعاً في عداد البيرويتانز؛ ومتى كانوا بيوريتانز فهم أعداء الملك وحكومته وهم متمردون متبجحون منافقون وهم الطاعون في هيكل المملكة)

على أن هؤلاء البيرويتانز على الرغم من مطاعن خصومهم يتكاثر عددهم ويتغلغل في النفوس مذهبهم منذ أواخر القرن السادس عشر، ولن يزالوا في تكاثرهم وتحمسهم حتى تم لهم السيطرة السياسية على البلاد عقب الحرب الأهلية التي انتهت بأعدام الملك شارل الأول، وكان مرد الانتصار على الملك وحزبه إلى عبقرية حربية ظهرت في شخص أليفر كرمويل أحد أشياع ذلك المذهب.

بين عهدين: منشأ البيوريتانية

وما ذلك المذهب الذي جر على اتباعه كراهة مخالفيهم زمنا، والذي قدر له أتخر الأمر أن يظفر بخصومه جميعا ويسيطر على البلاد حقبة من الزمن؟

إذا أردنا أن نعرف كيف نشأت البيوريتانية في إنجلترة، وجب ان نرجع إلى تلك الحركة التي انبعثت في أوربا في أوائل القرن السادس عشر، والتي اصطلح المؤرخون على تسميتها الإصلاح الديني ففي هذه الحركة الإصلاحية أرومة البيوريتانية، على أن نراعي في نظرنا إلى حركة الإصلاح الديني مشاعر الإنجليز التي هي نتيجة ما أحدثته بيئتهم من اثر في ميولهم ومزاجهم وفلسفة حياتهم؟ لتبين كيف استجاب فريق منهم لدعوة الاصلاح، نرى من ذلك أن استجابة هذا الفريق على نحو اختصوا به هو روح البيوريتانية؛ فما كانت البيوريتانية في إنجلترة إلا صورة معينه من صور الإصلاح الديني العام الذي شملت دعوته أوروبا في النصف الأول من القرن السادس عشر.

كانت هذه الحركة الإصلاحية ثمرة من ثمار النهضة الأوربية العامة ومظهرا من مظاهرها فقد نفذ نور النهضة إلى كل ركن من أركان الحياة ومنها الدين؛ وما كان لوثر بطل الدعوة الإصلاحية في ألمانيا وأول رجل تحدى البابوية إلا معبرا في الواقع عن معان وآمال كانت تهجس في نفوس كثيرة من المفكرين غيره، وإنما كان له فضل البدء والسبق في مضمار الجهاد، وكان بدء دعوته سنة ١٥١٧.

وكانت دعوة لوثر في جوهرها ثورة على دعوى البابوية أنها تحكم مفوضة من الله في أمور الدين والدنيا، وعلى امتيازات القساوسة واطماعهم، وعلى ما ورثته المسيحية من مظاهر الوثنية القديمة؛ فهي من ناحية وثبة على سلطان

الكنيســـة ومن ناحية أخرى رغبة في العودة بالدين إلى جوهره الخالص من شوائب البدع والضلالات...

رأى لوثر أن في وســع كل مؤمن أن يتصــل بربه مباشــرة لا عن طريق قسيس كما تزعم الكنسية، بل إن في وسع كل امرئ أن يكون قسيسا إذا اخلص قلبه لله. وأنكر لوثر عقيدة الكنيســة في العشــاء الرباني إنكارا شــديدا، فما يقبل عقله أن صلاة القسيس لدى قربان من الخبز والنبيذ على المذبح تحيله فعلا إلى مادة المسيح نفسه لحما ودما. وطعن لوثر اشد الطعن على زعم البابا انه يملك الغفران والحرمان، وســخر اعظم الســخرية من بيع الكنيســة صــكوكا تمحو الذنوب والآثام. وخطا لوثر خطوة إيجابية فترجم الإنجيل إلى الألمانية، وطلب إلى الناس أن يكون مصــدرهم الإنجيل وحده لا تعاليم الكنيســة. وتداول الناس قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم ولم يأخذوه عن القساوسة وشاع فيهم هذا الكتاب عامتهم وخاصــتهم بفضــل ما اســتحدث من وســائل الطباعة فرأوا مبلغ ما دخل على الدين من زيف، وعجي الناس إذ وجدوا في الإنجيل أن القديس بطرس نفســه لم يعصــم من الخطأ وأنه أنب على أخطائه. وإذا كان هذا شــان بطرس القديس فما بال رجال الدين، وقد بعدوا عن المســيح وعهده هذا البعد الزمني، يزعمون العصمة لأنفسهم من الأخطاء؟

وأمعن لوثر في إظهار مبلغ ما صــار إليه رجال الدين من إقبال على الدنيا وبعد عن الزهد، فما يهم الرجل منهم إلا جمع الهبات والصــدقات، وانهم ليديرون الأراضي الموقوفة على الكنيسة منذ الاقطاع، ويشغلون أنفسهم بأمور دنيوية بحتة، ويتدخلون في الشؤون السياسية يطمعون أن تكون له سلطة كما للأمراء سلطة، حتى قلد نسوا رسالتهم الروحية ولم يبق لهم إلا مظهر يتجلى في ملابسهم وفيما يشخصون فيه من طقوس الأدعية والصلوات وما إليها مما لا يعد من جوهر الدين ولا من رسالته العليا. وألقى لوثر تبعة هذا الفساد على عاتق البابوات الذين ادعوا لأنفسهم السلطة الدنيوية في العالم المسيحي أثناء

العصـور الوسـطى مخالفين بذلك آباء المسـيحية ولأولين الذين كانوا يدعون ما لقيصر وما لله لله...

ولم يكن مرد مـا أحدثـه من عظيم الأثر في ألمـانيـا ثم في أوروبـا كلهـا إلى آرائه وحدها، ولكنه اثر في الأذهان اعمق الأثر بمســـلكه كذلك؛ بهذه الجرأة البالغة التي خيل إلى الناس أنها اعظم من أن تكون صـــيحة بشـــر؛ فهذا أحد رجال الدين يتحدى البابا ويسـخر من الكنيسـة، وكان من يفكر بينه وبين نفسـه آن أحد القساوسة يخطئ بله البابا نفسه يأثم بهذا إثما لا يمحوه إلا التوبة والندم!

وكثيرا مـا يؤثر العظمـاء في النـاس بـأعمـالهم ولو لم يقولوا شـــيئـا فتكون أعمالهم ابلغ من كل مقال، هذا لوثر بقولـه وعملـه، فهو لا يتردد أن يحرق رد البـابـا على آرائـه وفعل ذلك على أعين النـاس، ثم يقـابـل قرارا البـابـا بكفرانـه وطرده من رحمة الكنيسـة، بكل ما في وسـعه من عدم مبالاة وسـخرية... ويعد عمل لوثر هذا في الحق فصـــلا رائعا في تاريخ حرية الفكر منذ أن بدا الناس يعشقون حرية الفكر وينادون بحرية الفكر، وستظل وثبته وقوته وجرأته حديثا عذبا تجري به الألســـن وتبتهج له النفوس كلما اتجه الناس بأذهانهم إلى ذلك الأمل الحلو اعني به انطلاق الفكر من قيوده...

عصفت دعوة لوثر بسلطة الكنيسة وزلزلت القساوسة ومكنت لحرية الفرد أكبر تمكين، فلكل امرئ الحق أن يفكر في أمر دينـه تفكيرا حرا لا يتقيد فيـه بقيد؛ وكـانـت ترجمـة للإنجيل إلى الألمـانيـة فتحـا ونورا، بهر العقول، وحرك النفوس الجامدة، وكشف للناس العقيدة الأولى نقية من شوائب الوثنية سليمة من ضلالات الكنيسة.

ومـا لبثت دعوة الإصـــلاح أن نهض بهـا زعمـاء غير لوثر، نخص منهم بالذكر كلفن الفرنســـي الأصـــل الذي أحدثت آراؤه من عميق الأثر في أوروبا كلها ما لم تبلغ إلى مثله أراء لوثر نفسه.

وقد بدأ هذا الداعي دعوته سنة ١٥٣، وكانت أول خطوة خطاها هي توجيه الطعن إلى كنيسة روما وإظهار معايبها على نحو ما فعل لوثر.

ولئن اثر لوثر بإقدامه وحميته وتحديه وفصاحته، فلقد اثر كلفن بفلسفته القوية، ومنطقه الصارم الواضح الذي لا عوج فيه، ثم بمبادئه الخلقية التي استمسك بها ولم يسمح في تنفيذها بأية هوادة.

آمن كلفن بعقيدة القدر المحتوم؛ فكل إنسان مقدر عليه أمره من قبل أن يبرأ؛ والناس من اجل ذلك فريقان: فريق هدى وفريق حقت عليه الضلالة، وليس يتسنى في هذا العالم أن يعرف من هم أهل النعيم ومن هم أهل الشقاء، اعني لا نستطيع أن نحكم على امرئ أمن الذين شقوا هو أم من الذين سعدوا.

وإذا كان لوثر قد مكن لحرية الفرد وشعوره بذاتيته وكيانه، فإنه في الوقت نفسه مكن لسلطة الأمراء، وذلك لأنه استعان بهم واعتمد عليهم واستغل رغبتهم في التخلص من سلطان الكنيسة ومطالب الكنيسة. أما كلفن فقد كانت فلسفته ترمى إلى التحرر من كل سلطة استبدادية، سواء أتمثلت في الكنيسة أم في الأباطرة والملوك والأمراء؛ وكانت نزعته ديمقراطية ترمي إلى الاعتماد على جمهور الناس، وكان يرى أن القوى هو الله وحده وان الذي يخشى هو الله وليس غير الله؛ فالناس جميعا ملوكهم وسوقتهم أمام قوة الله سواء، وليس على الأرض من يتمتع بما يسمى حقا إلهيا وإنما الحاكمون هم ممثلو إرادة المجموع، وكان يرمي بآرائه هذه إلى تدعيم نظامه الكنسي الذي كان قوامه قوما يختارون من عدد من القساوسة وعدد من غير رجال الدين لإدارة الكنائس الكلفية، فلا سلطة على كنائسه لبابا ولا لأمير.

وثبتت عقيدة الخوف من الله وحده في نفوس اتباعه عدم الخوف من غيره بل والتمرد على كل مستبد من ذوي الطغيان؛ ولكن إذا كانت هذه الحرية حقا للفرد، فعليه فيما يقابلها واجب يتلخص في اتباع المبادئ الخلقية التي رسمها

كلفن، وكان صارما كل الصرامة في تنفيذها. وعنده أن الفضائل تطلب لذاتها أولا قبل أن تطلب طمعا في ثواب أو خوفا من عقاب.

حرم كلفن الخمر والميسر والرقص والخلاعة وأعمال السحر والشعوذة والربا الفاحش وفرض لكل منها عقوبة صارمة وجعل عقوبة الزنا الموت، وكانت وظيفة كنائسه إرشاد الناس ومراقبتهم وأخذهم بالشدة إذا فرطوا في جنب الفضيلة.

شاعت اللوثرية والكلفنية في أوروبا، ثم انتقلت آراؤهما إلى إنجلترة؛ فكان أثرها هناك على صورة خاصة توضحها مشاعر الإنجليز واثر البيئة في تلك المشاعر.

ونقصد اثر البيئة الطبيعية وما يتصل بها من مؤثرات مناخية، فما لا شك فيه أن لهذه البيئة فعلها في تكوين مزاج أهلها على نحو معين، ثم فعل الوراثة متمما لفعل البيئة فتتكون مشاعر الأمة بمرور الزمن وهذه المشاعر هي مزاجها العام.

وكان لبيئة الضباب والسحاب والبرد الشديد ولأعاصير الهوج والغالات الموحشة والبحر المخوف أثرها في بث نوع من الظلمة العابسة والجد الصارم يشبه أن يكون كآبة في مشاعر الإنجليز والأمم التيوتونية على العموم؛ وقر في مشاعرهم أن صعوبة الحياة وقسوتها ضرب من القدر يقاوم في شجاعة وتحد، ويذعن له في رضى واستسلام؛ وذلك على خلاف ما كان في الطرف الجنوبي الشرقي لأوروبا مثلا حيث الشمس والدفء والنور كانت تبث المرح والحيوية في مشاعر الإغريق، وتميل بهم إلى متع الحياة ومسراتها.

فلما تحررت العقول نتيجة للنهضة الأوربية العامة، لم يكن عجبا أن يتجه الإنجليز بعقولهم المحررة إلى أمور الدين أكثر مما اتجهوا إلى مسائل العلم والفلسفة والفن، وأحدثت آراء كلفن أثرها العميق في نفوسهم وعلى الأخص رأيه في القدر المحتوم الذي لا سبيل قط إلى تغيير حكمه.

وعم تيار النهضــة فغمر الحياة العامة وأشــاع فيها البهجة والمرح والجمال والزينة، والرغبة في الاســـتمتاع بجمال الحياة ولذاذاتها، فكان منه ربيع حافل يتمثل في العصر الأليزابيثي أو عصر شكسبير

ولكن الربيع لم يطل؛ وما ذلك إلا لأنه كان أمرا طارئا على مشـــاعر الأمة غريبا على مزاجها العام. وما أسرع ما استيقظت تلك المشاعر من حلم العصر الأليزابيثي فكانت يقظتها هي البيوريتانية وفلســفتها التي أخذت تســيطر على المجتمع الإنجليزي. والفرق بين ما أنتجته العقول في الأدب والفن في العصــر الأليزابيثي أو عصر شكسبير وبين ما أنتجته في العصر البيوريتاني أو عصر ملتن، يرينا مدى التغير الذي اخذ يطرأ على الحياة بعد حلم النهضـــة. ولقد لوحظت شواهد ذلك التغير في فن شكسبير نفسه في أخريات ايامه، وتجد أمثلة لذلك في روايتيه (العاصفة) و(قصة الشتاء).

هذه اليقظة من الحلم البهيج الفاتن، أو هذه الفلسفة التي عادت بمشاعر الأمة إلى طبيعتها هي روح البيوريتانية، ولكن رد الفعل كان شـــديدا؛ فداخل الحياة الإنجليزية نوع من التزمت الشـــديد كان أكثر مما تطيق النفوس في مواطن كثيرة، والبرهان على ذلك ما شـاع في الأمة من سـرور مع الملكية العائدة بعد زوال عهد كرمويل.

وقد رأينا كيف ظهر البيوريتانز كجماعة أول الأمر حين أصـــدرت الملكة اليزابيث مرسـوم توحيد العبادات عام ١٥٥٩، ورأى فريق من رجال الدين انه كان ينبغي أن يكون المرسوم أكثر تخلصـا من مظاهر روما والكنيسة البابوية، فهؤلاء هم البيوريتانز. ونســتطيع أن نلمح اثر اللوثرية والكلفنية في رغبة هذا الفريق في التخلص من مظاهر الكنيسة البابوية. ولقد كان لغضبة هنري الثامن على البابا وفصــله كنيســة إنجلترة عن كنيســة روما أثره كذلك في نفوس هذا الفريق، فلئن كان ذلك الفصـــل من حيث الرياســـة فحســـب، مع بقاء العقيدة الكاثوليكية وطقوســـها على ما هي عليه، إلا انه زعزع هيبة البابا في نفوس

الإنجليز إلى مدى واسع، وجعل نزعة الإصلاح تستند إلى دعوى مشايعة السلطة الحاكمة ضد البابوية.

واخذ يزداد عدد هؤلاء الذين رغبوا في التخلص من مظاهر البابوية، وأخذت تشيع فيهم مبادئ الإصلاح الديني العام وعلى الأخص آراء كلفن وتعاليمه الخلقية، فلم ينته القرن السادس عشر حتى كان منهم فئة دينية رأينا كيف سميت باسم البيوريتانز؛ وأصبح لهذه الفئة نظرة إلى الحياة خاصة بها، لا في العقيدة الدينية وحدها، ولكن في السياسة كذلك وآداب المجتمع والأدب والفن؛ ولما تم لهم السيطرة السياسية استطاعوا أن يأخذوا المجتمع بمبادئهم أخذا قويا لا هوادة فيه، ولكنهم غلوا في تلك المبادئ غلوا كبيرا حتى تجاوزوا ما تطيقه مشاعر الأمة.

البيوريتانية كمذهب

يتلخص مذهب البيوريتانز في العقيدة الدينية، في الأيمان بالقدر المحتوم، ويرون وجوب خشية الله أشد خشية في عمق وإخلاص، فالله وحده هو الحاكم، وهو وحده القادر ذو الجبروت والجلال؛ ويعتقدون أن معينهم الذي يجب أن يستقوا منه دينهم هو كلام الله كما ورد في الإنجيل، فلا وساطة للكنيسة البابوية بشـــرح أو تأويل؛ وهم ينفرون أشـــد النفور من الكنيســـة البابوية لتحكمها في العقول وانغماسـها في السياسـة والحكم وأخذها بالبدع والضـلالات، واعتمادها على الزخرف والبهرج الزائف من النقوش والصور والغناء والتماثيل وما إليها من مظاهر الوثنية؛ وبعد رجالها عن روح الدين ورسـالته، وإقبالهم على الحياة الدنيا وزينتها، وانخداعهم بغرورها ومادتها، وجرى الأشـراف على كنائســهم وفق نظام (كلفن)، فلا تكون الرياسة للقساوسة، وإنما تكون لفريق منهم يختار، ويشاركهم فريق من غير رجال الدين على نحو قريب من الديمقراطية بعيد كل البعد عن الاستبداد؛ ويتمسك البيوريتاني بأهداب الدين، ويحرص على العبادة، ويغلو في ذلك كل الغلو، فكل رب أسرة هو في الواقع قسيسها ومرشدها ومنفذ ما توجبه روح الدين فيها، وقاري الإنجيل ومفسره لأبنائها وبناتها...

أما في السياسة، فإن شعورهم القوي بان الله هو الحاكم الأعلى، وأنه القاهر فوق عباده، الملوك منهم وغير الملوك، جعلهم يسـتصـغرون كل سـلطة غير سلطته، ويرون الناس جميعاً بالقياس إلى الله سواء،؛ وينفرون من كل استبداد أو إرهاب في أية صـورة من صـورهما؛ وقوى هذه الروح عندهم شـعور آخر هو تمسكهم بحرية الضـمير في الفكر الديني بتخلصـه من آراء الكنيسـة، وعلى هذا فحرية الرأي في السـياســة جزء من هذه الحرية الفكرية التي بثها مذهبهم في نفوسهم واستمدها من التحرر العقلي العام الذي هو وليد النهضة والإصلاح

الديني، والذي هو مظهر من مظاهر شعور الفرد بشخصه وذاتيته بالنسبة للمجتمع كله...

وفي آداب المجتمع نرى لهؤلاء البيوريتانز مبادئ خلقية يتمسكون بها تمسكهم بدينهم ويغلون فيها غلوهم فيه، وعندهم إن الروح فوق الجسد، فتطهير الروح من مفاسد الحياة لا يكون إلا بقهر الجسد وفطامه عن الشهوات ومحاربة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولقد أسرفوا حتى كرهوا كل زينة وخافوا من كل متعة، وعدوا طيبات الحياة مبعث النزوات ووسائل الشيطان وحبائله. والبيوريتان صريح شجاع حر الرأي، إذ هو يميل إلى الطهر في كل شيء، ويميل إلى النزاهة في جميع صورها، ولذلك يطلب العدالة والحق قولا وعملا. وكما ان الأسرة البيوريتانية تأثرت بالدين نراها تأثرت كذلك بهذه المبادئ الخلقية، فرأس الأسرة حريص على أن يغرس هذه الصفات في أفرادها في صرامة وحزم، ولقد صبغ ذلك الأسرة البيوريتانية بصبغة خاصة في المجتمع الإنجليزي....

وأثرت نزعتهم الدينية ومبادئهم الخلقية في نظرتهم إلى الفن والأدب، فمن حيث نزعتهم الدينية نجد انشغالهم بالدين وما يتصل به وتأثرهم بمذهبهم وتحمسهم له، يصرفانهم عن التفكير فيما سواه من معرفة أو أدب أو فن، مما يتصل بالحياة الدنيا ومسائلها؛ بل لقد كرهوا هذه الأشياء وخافوا مغبتها على عقيدتهم ومذهبهم ومالوا إلى حصر الأدب في أضيق نطاق له. وعندهم أن في الإنجيل غناء عن كل كتاب غيره، وحاربوا في شدة وعنف دراسة آداب الإغريق لما فيها من وثنية ومادية ورجس من عمل الشيطان... ومن حيث مبادئهم الخلقية نجدهم يحاربون الفنون في ضروب تعبيرها، لأنهم يعدونا لهواً ولعباً من غرور الحياة وفتنتها، فلا يقرون التمثيل، بل يرون فيه أنواعاً من الإغراء والفتنة تسوق إلى الفجور والضلال؛ وهم بالضرورة يمقتون الرقص ويعدونه فسوقاً وضلالاً بعيداً وحيوانية جامحة؛ وينظرون إلى الموسيقى نظرة

أخف حدة من نظرتهم إلى المسرح والرقص، فإذا كانت للعبث واللهو والفتنة، فهي باطل وإثم، وإذا ذهب الناس إلى الكنيسة ليستمعوا إلى الموسيقى فحسب، وهم منصرفون عن العبادة بعيدون عن الخشوع، فوجب إبطالها من الكنيسة. وكره البيوريتانز إلى جانب ذلك التصوير والنقش والحلي والزينة وما يتصل بالجمال، لأنهم يرون في ذلك مدعاة للترف وصلة قوية بالدنيا توبق الروح وتميت في القلب الورع والخشوع.

هذا هو الجانب السيئ من البيوريتانية، وأي شيء أسوأ من أن تكون حرباً على الأدب والفن والمعرفة إلا ما كان معرفة دينية تستمد من الإنجيل؟

ولم يقتصر الأمر على هذه العيوب الأساسية في البيوريتانية، بل إن المذهب نفسه قد تطرق إليه الفساد، شأن كل مذهب ينشأ قوياً صالحاً، ثم يجر إليه الغلو والجهل وسوء الغرض ما يبعد به كل البعد عن حقيقته حتى ليقلب كل حسنة من حسناته إلى سيئة وبيلة.

فأول ما دخل عليه من فساد هو التعصب، فقد انقلب التحمس للمذهب والغلو في الدفاع عنه تعصباً فيه الزراية بغيره، وإنكار كل حق إلا ما يراه أصحابه أنه الحق؛ وتبع ذلك التمسك بالشكل دون الجوهر في كثير من المواقف.

وتطرق إلى بعض النفوس النفاق، فأصحابها يظهرون في العلن التمسك بالمذهب، ويأتون في سر ما ينكره ذلك المذهب أشد الإنكار، وشاع الحمق والغضب وحدة الجدل وسرعة التخاصم والتنابذ بين فريق من البيوريتانز الغالين في مذهبهم وبين الناس، وأساء هؤلاء بلا ريب إلى أصحاب المذهب جميعاً، إذ يحسبهم الناس كلهم من هذا الطراز...

وظهر بعض البيوريتانز بمظهر الضعف العقلي لمجافاتهم المعرفة كما ظهرت في بعضهم الجلافة والغلظة لإنكارهم الفنون ونفورهم من الجمال.

إلا أنه لا يجوز أن نحكم على هذا المذهب بما تطرق إليه من فســـاد؛ ولئن كان فيه ذوو العقول الضــيقة والمتعصــبون والمنافقون، فلقد جاء إلى المجتمع بمبادئ سامية وبث في النفوس الحمية والأقدام وحبب إليها الحرية.

هذه هي البيوريتانية أو هذا هو الصـيف الصـارم العابس الذي يمثل عصـر ملتن والذي أعقب ذلك الربيع الطلق الرخي الذي يمثل عصـر شـكسـبير؛ وبين الربيع الراحل والصـــيف القـادم ولـد ملتن كمـا أســـلفنـا عـام ١٦٠٨، ولـد والبيوريتانية تستقبل فتوتها، وسيستقبل كذلك فتوته ويبلغها إذ تبلغ البيوريتانية اشدها، فيكون شاعرها الفذ الذي تتمثل فيه روحها في أسمى أوضاعها وأجمل صورها، والذي يجتمع في فنه جمال الربيع الراحل وجد الصيف القادم.

طفولة ملتن ونشأته

أنتصـف الليل أو تجاوز المنتصـف ولا يزال صـبي جميل في الثانية عشـرة من عمره جالســـاً إلى مكتبه في حجرته الخاصـــة به في بيت أبيه بلندن يفرك عينيه الواســعتين الجميلتين بيديه الصــغيرتين، وقد أخذ النعاس يداعب جفنيه، وأخذ الكلال يغمض مقلتيه، والمصــباح يكاد زيته ينفد، بعد ســاعات طويلة لم يكد يحول فيها الصـبي عن الكتب بصـره، وذلك دأبه في أكثر لياليه. وجلسـت على مقربه من الصـــبي إحدى الخادمات وقد أمرها أبوه أن تظل بقربه حتى يأوي إلى مضــجعه؛ وقد أوى أبوه إلى مضــجعه منذ وقت غير قصــير بعد أن عزف بعض ألحانه الجديدة والقديمة كما يفعل كل ليلة ما عدا ليلة الأحد؛ وإنها لتعجب من إقبال الصـبي على كتبه واستغراقه في قراءته على صـورة لم تشـهد مثلها قبل في صبي مثله لم يتجاوز الثانية عشرة.

وماذا يقرأ الصــبي في تلك الســن؟ أيقرأ القصــص الخرافية وحكايات الجن وأشـــباهها مما يقرأ أنداده في مثل ســـنه؟ لا فهو لا يحب هذا النوع من الكتب

كثيراً كما يحبها الصبية من أقرانه؛ ومثل هذه الكتب لا تكون إلا للتسلية، ولن يكون من أجل التسلية هذا السهر الذي تكاد تعشى منه العينان.

كان الصبي يقرأ كتب الأدب وعلى الأخص الشعر، وكان يقرأ التاريخ على قدر ما تسمح سنه، ويدرس اللغات اللاتينية والعبرية واليونانية والطليانية. وفي ليالي الآحاد حين كانت تجتمع الأسرة حول الموقد، كان يستمع الصبي إلى ما يذكر أبوه عن آخر لحن له من ألحان الموسيقى، إذ كان يشغل الأب نفسه بالموسيقى كما كان يشغل الابن نفسه بالقراءة، وكان لأبيه في صوغ الألحان حس مرهف وذوق مهذب وإن لم يكن طويل الباع؛ كما كان له إلى قرض الشعر ميل، ولكنه سرعان ما انصرف عن الشعر إلى الموسيقى إذ أعيته معاناة قرضه من أول الأمر...

وانه ليعجب إذ يستعصي عليه الشعر، وهو يجده سهل الانقياد إلى ابنه منذ سن العاشرة! وها هو ذا ابنه الآن في الثانية عشرة يسمع أباه وأصحابه من نظمه ما يطربون له جميعاً وعلى الأخص أبوه؛ وكان ينظر إليه أبوه في تلك الليالي التي يخلوان فيها من الجد، ويجلسان قرب الموقد نظرات ملؤها الإعجاب والمحبة؛ ويقول لمن حوله: لقد كنت أريد أن أجعل منه كلفن ثانياً بتوجيهه الوجهة الدينية وإلحاقه بالكنيسة، فإذا به ينفر من هذا ويأبى إلا أن يجعل من نفسه هوميروس آخر، ولست أحب أن أميل به إلى غير ما يريد ويهوى، ولئن فعلت ذلك فما آتي غير العبث، فليمض فيما هو فيه من شعر وأدب.

ويرهف الرجل أذنيه إلى ابنه إذ يتكلم أو يقرأ الشعر فتملأ نفسه الغبطة، فلهذا الغلام الجميل المحيا، فضلاً عن ذكائه ورشاقته، صوت حلو النبرات، موسيقى الجرس، وكأن مقاطع كلامه أسجاع مفصلة؛ وإن أذني أبيه لتحسان ذلك إحساساً صادقاً، فليس يلقى ذلك في روعه فرط محبته إياه، ولا هي أمنية

يخالها حقيقة كما عسى أن يتوهم الآباء من صفات ينسبونها لأبنائهم وان لم يكن لهم منها شيء.

ولطالما ارهف الصبي أذنيه إلى الحان أبيه فطرب لها قلبه واستقرت نغماتها في أعماق نفسه؛ وإن أثر هذه الألحان ليبدو جلياً في أشعاره الأولى وهو بعد غلام، فأخص ما يميزها موسيقى حلوة تختلط بالنفس، حتى ألفاظه فإنك تحس في كل لفظ منها سحر الموسيقى، وتجده منذ أول شوط له قادراً على أن يختار اللفظ الذي يؤدي المعنى إلى الذهن ويطرب بوقعه وجرسه النفس.

كان أبوه مُوَثِّقاً وتلك هي حرفته التي اكتسب منها ماله، أما الموسيقى فكانت هوايته؛ وكان يكتب للناس الوثائق والعقود والظلامات وغيرها من ضروب الكتابة، وكان الموثق في تلك الأيام رجلاً عند الناس عالي المكانة ينظر إليه عامة الناس إلى عالم خبير، إذ لم يكن الأمر مجرد الكتابة، وإنما كان نوعاً من الكتابة يقتضي معرفة الصيغة الخاصة والعبارات التي جرى بها العرف، وذلك كله يطلب عند الموثق وله أجره على ما يكتب؛ وبقدر ما يتفق له من طالبي خبرته يكون كسبه؛ ولقد مهر الرجال في عمله وبات بحرفته ينعم برغد العيش.

واحترف الموثق حرفته في لندن؛ وقد جاءها منذ أن طرده أبوه من بيته؛ وكان أبوه يعيش على مقربة من أكسفورد، وكان مزارعاً من ملاك الأرض يتعصب للكاثوليكية تعصباً شديداً، فلم يعجبه من ابنه ميله إلى البروتستنتية وإقباله على البيوريتانية وعد ذلك منه مروقاً من دينه وعصياناً لأمره، ولما لم تجد معه حيلة طرده ساخطاً عليه. فلما جاء لندن اشتغل بالتوثيق فنبه فيه شأنه، وبنى له بيتاً تمتع فيه بهدوء الحياة ونعم بالطيبات من الرزق.

وكانت لندن غداة شخص إليها في ربيع العصر الاليزابيثي؛ فلم تشغل الموثق جون ملتن حرفته عن الأدب والفن والعلم فأخذ من كل بطرف.

وأحدثت الوراثة والبيئة أثرهما في جون ملتن، فأحب الأدب وأحب الموسيقى كما أحبهما أبوه، وظهرت فيه منذ صغره تلك النزعة الاستقلالية التي طرد بسببها الأب من كنف أبيه.

ولا ريب أن جون ملتن قد حرص على أن تنمو هذه النزعة الموروثة في نفس ابنه، وآية ذلك أنه لم ينشأ أن يحمله على ما لا يحب فتركه وشأنه حين أعرض عن الالتحاق بالكنيسة. والحق أن نزوع ملتن إلى الاستقلال سينمو مع الزمن حتى يصبح من أبرز صفاته.

وكان إعجاب جون ملتن بابنه عظيماً، وكذلك كان إعجاب أصحاب أبيه به، فما سمعوا أشعاره التي ينظمها وهو في الثانية عشرة من عمره إلا أفاضوا من ثنائهم عليه، وما رأوا إقباله على الدرس إلا تحدثوا بنباهة مستقبله؛ وأنهم ليرون سمات العبقرية تختلج على محياه الأبلج الجميل وهو بعد في سن اللعب واللهو...

وأحدثت كثرة الثناء عليه أثراً قوياً في نفسه سوف ينمو على مر الأيام؛ فقد داخله شعور منذ طفولته أنه فوق مستوى غيره من الأطفال، وأنه سوف يغدو رجلاً عظيماً، وكان يقوي شعوره بنفسه وإحساسه بمقدرته كلما ازداد اطلاعه وأتسع مجال ثقافته.

وكان أبوه عظيم الثقة في كفاية ابنه ومقدرته، فعول ألا يدخر وسعاً في تنشئته ليكون رجلاً عظيماً، فأختار له مربياً يعلمه في المنزل هو توماس ينج، وأرسله إلى مدرسة قريبة هي مدرسة سنت بول؛ وكان للمربي الذي يتعهده في البيت شهرة في فنه فائقة كما كان (لاسكندر جل) رئيس المدرسة التي ألحق بها صيت عظيم، يمتدح الناس أسلوبه وفنه في التربية والتعليم.

وكان أبوه إذا فرغ من توثيقه ومن ألحانه يعينه بنفسه على فهم ما يقرأ ويرشده إلى الكتب التي تلائم مزاجه وطبعه، وكذلك كان يعلمه الموسيقى إذا أنس منه إقبالاً شديداً على سماع الألحان وتذوقها وتفهم تأليفها.

وشهد مربيه في المنزل ومعلموه في المدرسة أن عقل الصبي أكبر من سنه، وأن له إلى الأدب ميلاً قوياً، وأن ذوقه الأدبي مولود فيه، فهو جزء من نفسه، وهو قوام إدراكه وحسه، وما وقعت عينا امرئ عليه إلا تبينتا فيه شاعر الغد؛ فالشواهد فيه على ذلك بينة متعددة، تطالع المرء في تأمله وتفكيره وفي عذوبة حديثه وسعة ثقافته وجمال عبارته وإشراقها، وقدرته منذ حداثته على اختيار اللفظ الجميل وقعه في النفس والذهن، وانفعال نفسه للموسيقى وللبليغ من القول منثوره ومنظومه، هذا إلى ما تنم عنه ملامح وجهه الوسيم وما تنطق به عيناه الحالمتان الواسعتان من رقة وظرف وصفاء نفسي، وما يتسم به مظهره من رشاقة وأناقة وسلامة ذوق.

وكان محيط قراءته واسعاً في اللغة الإنكليزية وآدابها. وكان للشاعر العظيم سبنسر المتوفى سنة ١٥٩٩ مكانة عظيمة في نفسه، تعمق دراسته وتأثر به تثراً شديداً، واستوعب قصيدته العظيمة أو على الأصح كتابه الشهير (الملكة الجنية) وأحاط بما فيها من خيال وجمال، وفطن إلى ما أراده سبنسر فيها من آراء دينية وخلقية، فقد كان كل فارس من فرسانها الأثنى عشر يمثل فصيلة من الفصائل، وكان كل من هؤلاء الفرسان بطل فصل من فصول القصة يدور حول معنى مقصود اتخذت الحكاية وسيلة لإبرازه وألبسه الشعر القوي الجميل لباساً ساحراً حبيباً إلى القلوب، وكانت شخصية الفارس الأمير أرثر هي الرابطة التي تربط بين فصول القصيدة كلها؛ ولهذا كانت أهم شخصيات الكتاب وأحبها إلى القراء. ولقد كان سبنسر أعظم شعراء عصر شكسبير غير المسرحيين، ومن أشدهم تأثيراً في جيله، ويعد قمة من القمم الشوامخ في تاريخ الشعر الإنكليزي كله.

وثمة شاعر آخر أقبل على قراءته الصبي المجد، هو سلفستر المتوفى سنة ١٦١٨ أي بعد عامين من وفاة شكسبير والذي نقل إلى الإنكليزية القصة الشعرية الشهيرة التي نظمها الشاعر الفرنسي دي بارتس سنة ١٥٧٨ وموضوعها يدور حول خلق الدنيا، والتي طبعت ثلاثين مرة في ست سنوات وترجمت إلى ست لغات. ولقد أعجب سبنسر نفسه إعجاباً شديداً بهذه القصيدة وبموضوعها. ولكم وجد فيها الصبي ملتن لنفسه وبخاصة موضوعها الذي ظل خياله في خاطره حتى ظهر بعض أثره فيما بعد في قصيدته الخالدة الكبرى، الفردوس المفقود. ولقد أعجب الصبي في تلك السن بمقدرة دي بارتس الفرنسي على اشتقاق ألفاظ جديدة لمعانيه، كما أعجب بمحاكاة سلفستر إياه في الإنكليزية، فكان لهذه الترجمة أثرها في ذوقه وفنه إلى جانب أثرها في خياله وحسه.

وتطاول الصبي إلى قراءة شكسبير فقرأه على قدر ما يتسع له إدراكه، كما قرأ بعض المسرحيات الشهيرة لشعراء المسرح النابهين غيره في العصر الاليزابيثي.

وكان كثير المطالعة للإنجيل حتى وعت ذاكرته أكثر أجزائه، وألف لغته وتذوقها وتأثر بها قلبه ولسانه.

ونهل مع هذا كله من مناهل الإغريق والرومان، في التاريخ والأدب والشعر والميثولوجيا، وأحب المنهل الأخير حباً شديداً فكان لا يمله مهما استزاد منه، وصارت له خبرة بهذه الناحية من خيال الإغريق والرومان قل أن يتوافى مثلها لمن كان في مثل سنه، ولسوف يمتلئ شعره منذ حداثته بالإشارات البارعة إلى آلهة الإغريق وإلاهاتهم فيما يعرض له من وصف فيلبسه الجمال والسحر...

هكذا نرى الصبي في أولى مراحل ثقافته ينتقل كالفراشة الطليقة بين أفواف الربيع الاليزابيثي فيبهج نفسه جمال الربيع، ويملأ حسه اقتتان الربيع، وترن

في جوانب سمعه ألحان الربيع، وتستقر في خاطره تلك الأصداء الساحرة الجميلة التي تجاوبت بها قيثارات سبنسر وسلفستر وشكسبير...

فتطير روحه الوثابة فتطوى العصور إلى ربيع قديم أشبه بهذا الربيع الذي انطوى مهرجانه من قريب، وذلك هو الربيع الإغريقي فتنعم روحه بزينته وقوته وسحر أساطيره وأنغام مزاميره وتختزن ذلك نفسه كما تختزن الزهرة العطر، وتحلم تلك النفس الشاعرة أحلام الخيال والجمال حتى تصرفها عن حلمها البهيج الرؤى فترة فيها كثير من الجد ولا يكاد يوجد فيها شيء من الزينة.

ملتن في الجامعة :

وفي السادسة عشرة من عمره تأهب ملتن ليدخل الجامعة، فقد اجتاز الامتحان الذي يؤهله لها في يسر، وتفوق في نجاحه تفوقاً ملحوظاً وأقدم مزهواً ليلتحق بكمبردج، وكانت الكلية التي انتظم في سلك طلابها، والتي لبث فيها من عمره سبع سنين هي كريست، ولسوف تفتخر تلك الكلية فيما بعد بأن كان ملتن أحد أبنائها، ولكنها اليوم تتلقاه كما تتلقى غيره من الفتيان، لا تدري ماذا يكون غداً من أمره.

وأقبل الفتى على كليته فرحاً يداخله من الزهو ما يداخل كل يافع في مثل موقفه؛ يحدث نفسه في حماس عما هو عسى أن ينهل فيها من المعرفة ويصاحب من الأقران؛ وما هو عسىٌ أن يأخذ منه بقسط من المناظرة والحوار وتبادل الرأي بينه وبين أقرانه، وكل أولئك حبيب إلى نفسه التواقة إلى الدرس الطلابة للعلم.

وتلفت الذين سبقوه إلى الكلية يتطلعون على عادة الطلاب إلى أقرانهم الجدد في أول الموسم، فوقعت أعينهم من بينهم على فتى أنيق الملبس، جميل الطلعة، حلو السِمت، في قسماته وسامة رائعة، وفي ملامحه أمارات الذكاء، وفي

نظرته جد يشــبه الكبرياء، وفي عينيه تأمل وحلم، وفي مشــيته والتفاتته هدوء ودعة، وفي تحيته رقة ودماثة.

وســرعان ما تعرف إليه فريق منهم، فما لبثوا أن أعجبهم اتســاع أفقه وحدة ذكائه؛ وإن كانوا يرون فيه كثيراً من الاعتداد بنفســه ورأيه، ويرون فيه كذلك حرصــاً شــديداً ما رأوا قبل مثله على قواعد الســلوك واحترام النفس، يكادون يحسونه تزمتاً وانقباضــاً لا يرتاحون إليه؛ وإن فيه لميلاً قوياً إلى الشعر، يحفظ منه قدراً عظيماً ويشير إلى مواضــع الجمال ويستمع في شغف وطرب إلى ما ينشــــد أقرانه مما غاب عنه ويعجب كيف غاب عنه؛ ولما توثقت بينهم وبينه المعرفة رأوا فيه شــاباً يأخذ نفســه بقواعد الطهر والعفة وهو في ذلك صــلب الإرادة لا يلين ولا يحيد.

وما لبث ملتن أن أحس أنه علق من الآمال على الكلية أكثر مما يريه الواقع، فأين منه أيام قراءاته في بيته، وأين منه حريته في هاتيك الأيام الحلوة؛ إنه كلما ازداد صــلة بالكلية أحس في نفســه النفور شــيئاً فشــيئاً من جوها، والضــيق من كثيرين من القائمين بأمرها؛ ولكن ما من البقاء زمناً بها بد، وما على المرء إلا أن يحمل نفســه على الصــبر حتى ينقضــي أمر بقائه... بهذا كان يتحدث الفتى إلى نفسه، كلما ساوره من حاله ضيق أو كدر خاطره أمر.

وكانت الكلية غداة التحق بها ملتن لا تزال فيها على الرغم من النهضــة بقية من العصــور الوسطى، وذلك في روحها وفي مواد دراستها، وكانت أهم مواد الدراسة بها المنطق والبلاغة والفلسفة المدرسية، واللغتين اللاتينية والإغريقية، وشــيء من علوم الرياضــة، وقليل من الفلك، وقدر يسير من التاريخ الروماني ومن عجــب ألا يكون التــاريخ الإنجليزي ولا الأدب الإنجليزي من مواد الدراســـة، على أنه كان لمن يشـــاء أن يدرس هاتين المادتين أن يفعل ذلك إذا أبدى للكلية رغبته.

ولكن على الرغم من طابع العصـــور الوســطى، دبت في الكلية النهضـــة، فشـــاعت فيها رغبة الإصـــلاح والنهوض، وملأ جوانحها كفاح من أجل هذا الغرض؛ وكان دعاة الإصلاح يبتغون أن يصلحوا نواحي الحياة كلها، والتعليم والسياسة والدين والاجتماع؛ ففي التعليم رغب فريق أن تتخلص الكلية من بقية العصـــور الوســـطى، وتعني في مناهجها ودراســـتها بما هو أقرب إلى روح العصـــر، وما هو أدنى إلى الإنســـانية والحرية الفكرية؛ وفي الســـياســـة تطلع المصـلحون إلى إبراز حق الفرد والاعتراف بكيانه واحترام إرادته؛ وفي الدين قوي الميل إلى البيوريتانية والبروتســـتنتية؛ وإن كان ثمة خلاف قد دب بين الكلفنية والأرمينية، أعني بين عقيدة القدر المحتوم التي آمن بها كلفن، وبين عقيدة قبول التوبة وغفران الذنب التي نادى بها ألرمينيوس الهولندي ســـنة ١٦٠٣؛ وفي الاجتماع دعا المصـــلحون إلى الفضـــيلة وإلى محاربة الرذيلة، وظهر أثر ذلك في تشـــدد القائمين على أمر الطلبة ألا يســـمحوا للفتيات اللائي يتعهدن حجرات نوم الطلاب بدخول تلك الحجرات إلا إذا غادرها أصحابها.

واستجاب ملتن لهذه النزعة الإصلاحية، فقد صادفت هوى في نفسه التي تعشق الحرية وتنزع إلى الاستغلال، وتعلقت بها روحه الوثابة الفتية؛ وبدأ بها أول شوط له في الدفاع عن حرية الفكر؛ ولكن ذلك أخذ يغضب عليه القائمين بالأمر إذ اتهموه بالتمرد والثورة إلا قليلاً منهم، وسبب له كراهة بعض أقرانه ممن لم يعجبه اعوجاجهم وإسفافهم وشراسة طباعهم.

لم يدع ملتن فرصـــة اجتماع إلا وقف يندد بالفلســفة المدرســية معلناً إنه لا يرى فيها أية فائدة، ولئن اقتصـرت الكلية على هذا المنهج فلن يكون من ورائه جدوى. وراح ملتن يسخر من تلك الكتب التي تدرس في الكلية، والتي هي آثار أشياخ ضيقي الصدر من القساوسة تشتم فيها رائحة الحجرات الضيقة المظلمة التي كتبت فيها؛ ويتســـاءل: أليس أجدر بنا وأجدى علينا أن ندرس بدلاً منها طبائع الكائنات الحية وأخلاق الناس وأحوال دول العالم؟ ويوجه ملتن ســـهاماً

لاذعة إلى مدرســـي المنطق والبلاغة، فهم يتكلمون كما يتكلم المتوحشـــون والأطفال، وإنه يراهم أقرب إلى العصافير منهم إلى الرجال...

ويعجب الطلاب من حمية هذا الفتى الذي عهدوه في مجالســـهم وديعاً رقيق الحاشية، وتعجبهم حماسته وجرأته وصراحته وتمرده على القيود التي طال بها العهد؛ ولكن المدرســين ســاخطون عليه ناقمون على ثورته، يرمونه بالغرور ويتهمونه بالشغب والعناد والعصيان، وقد شاع أمره فيهم حتى ضاقوا به ذرعاً من يعلمه منهم ومن لا يعلمه.

وأدى بالضــرورة مسـلكه هذا إلى الشــحناء بينه وبين القائم على أمره من رجال الكلية وهو (شـــابل) فكان يحس أن الطالب جون ملتن يحتقره بنظراته، ولعله يراه متوحشـــاً أو طفلاً أو نوعاً من العصـــافير؛ ويرى أنه يخالف عن أمره، فلا يؤدي ما يطلب إليه أداؤه كتابة من دروســه، ولا يتقيد بما يرســم له من نظام في حياته اليومية؛ يريد أن ينصـــرف إلى ما يحب من قراءة، ويعلن إلى معلمه أنه لا يقتنع بجدوى تلك العلوم التي هي تراث العصـــر المدرســـي، وأنه يأســف على فقدانه حريته التي نعم بها قبل التحاقه بالكلية؛ ويرى أنه كان يد في مدرسـه سـنت بول من العلم المجدي ما لم يجد مثله هنا، ومن الحرية ما لا يجد بعضـه في الكلية، ومن عطف معلميه ومسـايرتهم إياه إلى ما يحب ما لا يتمتع هنا بشيء منه.

وكان تشـابل عنيداً ضـيق الصـدر، وكانت وظيفته تقتضـيه ألا يتسـاهل فيما كلفته به إدارة الكلية، ولم يكن في وسعه أن يتغاضـى عن مرد ذلك الطالب وإلا تتعرض لمؤاخذة القائمين بالأمر، فما يحب هؤلاء أن تشـــيع العدوى في بقية الطلاب؛ لهذا لم يكن بد من معاقبة جون ملتن عل في ذلك رادعاً لـه وعبرة لغيره.

وعوقب الفتى بإبعاده من الكلية إلى حين؛ وقيل إنه عوقب بالضـــرب إلى جانب ذلك، كان أكثر المترجمين لـه ينكرون ذلك أو يســـتبعدونـه؛ على أن

الضـــرب في ذاتـه يومئذ كـان أمراً يقع في الكليـة، فلم تكن العقوبـة البـدنيـة محرومة حتى في الكلية.

وقضـى ملتن فترة النفي في لندن غير آبه بما حدث؛ يظهر في كل حين عدم مبالاته، فلن تنال منهَ قسوة مدرس يتجنى عليه، كما ذكر في بعض رسائله إلى (ديوداتي) أحد خلانه في مدرسـة سـنت بول؛ وإنه ليفضـي إلى ديوداتي أنه جد ســـعيد بأبعاده عن كمبردج فما يطيب بها المقام لرهط أبولو؛ وأنه يســـتمتع بفراغه فيغشـــى المســـارح كثيراً، ويقرأ من الكتب ما يحب غير مقيد بقيود تشـابل؛ وأنه يسـرح الطرف في شـوارع المدينة إذ يذرعها جيئة وذهابا، ويمد عينيه إلى حســـان لندن وقد لُحن له بعد أيامه الجافة في كمبردج أروع مما كن حسـناً وأرشـد فتنة، حتى إنه ليرى من الحكمة أن يبادر بالرحيل قبل أن تمسـه جراح كيوبيد.

وتكشف لنا رسائله المنظومة والمنثورة إلى صاحبه عن بعض نوازع نفسه، فهو يحب المســـرح ويكثر غشـــيانـه؛ ولن يفعل ذلك متزمت يرى من أدلـة الاسـتقامة أن يحرم على نفســه زينة الله التي أخرج لعباده؛ وهو يمد عينيه إلى الغيد ولكنه هنا يخشـــى الغواية فيطلب النجاة؛ وكان حريا أن يقع في حبالهن وأن يقمن في حباله بما توفر له من الجمال والوجاهة وأناقة الملبس ورشـــاقة الجســم، ولكنه حريص على عفته متمســك بطهره، تهفو إلى الجمال روحه إلا أنه يحلق ويأبى أن يرد...

وعاد ملتن إلى الكلية، وقد انقضـــى أمر النفي؛ ولكنه لم يعد إلى تشـــابل فقد نقل إلى غيره، وهو إجراء لـه مغزاه، إذ لم يكن مثل هذا النقل بـالعمل المعتـاد في تلك الأيام، ومنه يفهم أن القائمين على أمر الكلية يحملون تشـــابل شـيئاً من اللوم.

ولم يفل النفي حدته ولا أوهن نشاطه ولا أذل كبرياءه؛ وعادت نفسه الحرة تنشد الإصلاح، وانطلق لسانه الفصيح يندد بما يرى من عيوب أيا كان أصحابها؛ فلا تنقطع له شكوى، ولا يفتر له نقد.

ونال أقرانه شيء غير قليل من نقده؛ وكانوا أحرياء إلا قليلا منهم، ألا يرتاحوا إليه، وأن أعجبهم كثير من خصاله وراقهم شخصه، فأن تمسكه بالفضيلة وتشدده في الطهر والعفة هو في ذاته تأنيب صامت أما يظهرون من نقائص، ناهيك بما يقول في كل فرصة، وبما يرسله كل آونة من عبارات التهكم أو نظرات الازدراء. وقف يخطب ذات مرة فقال (كيف آمل أن أجر فيكم الرغبة إلى الخير وأنا أرى في حفل عظيم كهذا الحفل وجوهاً تنطق بالعداوة يكاد يبلغ عددها عدد ما هنا من رؤوس).

وكان جزاؤه على ذلك العنت من الكثير من طلاب الكلية، فأخذوا على طريقة الطلاب يعابثونه ويهوشون عليه ويلاقونه أينما تكلم بشغبهم وزياطهم، ويسخرون منه كما سخر منهم، وجعلوا عفته موضعا لاستهزائهم به، وكانوا قد أطلقوا عليه من قبل اسم (السيدة) لما رأوا من رقته وظرفه ودماثته، فأخذوا الآن يعيدون هذه التسمية في موضع الإعنات والاستهزاء، فإذا سأل أحدهم صاحبه عنه قال هل رأيت سيدة الكلية، أو هل رأيت سيدة كريست، ويقصدون أن يسمعوه هذا وهو على مقربة منهم ليغيظوه، فيكظم غيظه ويحاول أن يغيظهم بترفعه عنهم وازدرائه إياهم.

ولم يأبه ملتن بما يقولون؛ ففيه على رقة حاشيته صبر على النضال، يلذ له الأذى في سبيل إعلان رأيه والدفاع عن مبدئه، ولذلك تراه ينهض ذات مرة خطيباً، فيشير في خطابه إلى هذه التسمية، فيقول متهكما إنه يعتقد أن ليس مردها إلا حسن وجهه وقصر قامته وجمال هيكله فحسب، ولكن إلى طهره كذلك ورقة حاشيته ودماثته وحسن سلوكه؛ ثم يتساءل في ازدراء عما إذ اكان يقصر اسم الرجولة على من كانت لهم القدرة أن يعبوا أقداحاً كبيرة من الخمر،

أو الفلاحين الـذين غلظـت أيـديهم وجمـدت من أثر المحراث، أو على من يبرهنون على رجولتهم بالعربدة والفجور والفسـوق؟... ويسـتخذى الجميع أمام حماسته وشجاعته ورباطة جأشه.

ولا يفوته أن يقارن بين نفســه بين من اتهموا قبله من النابهين الأعلام بمثل ما اتهم به، قائلا إن ديموســتين نفســه لم ينج من اتهام أعدائه إياه بالنقص في رجولته!

والحق أن مرد هذه التسـمية لم يكن إلى ضـعف فيه ولا إلى خور، فقد كان منذ يفاعته شـجاع القلب والرأي، ولسـوف يقيم الدليل في المسـتقبل أيامه على أنه ما حمل القلم يوما أشجع منه؛ وكان في الكلية لا يهمل المران على استعمال سيفه يوماً؛ وكان لا يرهب التحدي، ولا يحب أن يصـانع ذا غلظة أو يتواضـع لذي كبرة، وإن كان في غير ذلك من المواقف جم الأدب مرموق الوداعة...

وما سـماه أقرانه هذا الاسـم أول الأمر إلا لأنهم أسـاءوا فهم وداعته ورقة حاشـيته، ثم عادوا يرددونه رغبة منهم في إغاظته وإمعانا في إعناته، ولا يجد الشـباب عادة في الزراية على من لا يتابعهم إلى ما يحبون من العبث واللهو الخشن أنكى من نعته بالأنوثة.

وكان مرد عفته واعتصـامه بالفضـيلة إلى معنى طريف يضـاف إلى وازع الدين وداعي الخلق؛ وذلك أنه كان يرى أن الشـاعر الذي يعد نفسـه لرسـالة سـامية، ينبغي قبل كل شـيء أن يكون أهلا لما يسـتشـرف له، ولن يكون لذلك أهلا إلا إذا سـمت نفسـه وخلت من الأوضـار، واتصـلت في كل متجه بالمثل الأعلى لا تتخلف قط عنـه، أو على حد تعبيره ينبغي أن يكون هو قصـيدة سامية.

ولقد نجح ملتن نجاحاً عظيماً في توقد عاطفته وشـاعرية روحه، وتفهمه أسرار الجمال، وتفطنه إلى موطن الفتنة في دنيا الطبيعة وفي دنيا الناس، وهذا

إلى ما اتصف به من فراهة الجمال وروعة الشباب؛ ولذلك فأن سيطرته على نفسه مع هذا أعظم من أن تكون نجاحاً، فأنها تشبه أن تكون معجزة.

وحق لهذا الشاب أن يفخر بقهر نفسه، أو على الأصح بقهر شهوات نفسه، فقد أطلق نفسه على سجيتها بعد إذ جنبها مزال الضلال ومهاوي الفتنة لتنطلق حرة في مسارح الجمال ومواطن. الرأي...

وكان ملتن يؤمن بأن من يسمو بنفسه لا بد أن تواتيه قوة خارقة على التعبير عما يريد من معاني السمو، وبقدر ما يكون من طهر نفسه يكون ما يتوافى له من البيان فيما ينهض لبلوغه من معارج القول

وإلى جانب ذلك كان ملتن كثير الذهاب بنفســـه، يعتقد أنه فوق غيره في الذكاء والعلم، يتداخله منذ صغره شعور قوي بتفوقه وامتيازه، وهو نوع من الاعتداد بالنفس حري أن يسمى الكبرياء العقلية، جعل ملتن الشاعر يؤمن بفكرة هي تغلب العقل على العاطفة، وهذه هي الحكمة، ثم يأخذ نفسه من غير هوادة بما تقتضيه منه الفكرة، فلا ينقاد لعواطفه يعيش حكيماً معتصماً بالزهد والعفة.

وإنه ليعتقد أنه خلق لعظيمة من العظائم في دنيا الشعر، وأن الزمن يهيئه فيعزله عن الناس ويرفعه فوقهم درجات ليتسنى له أن يأتي بما لا يستطيعون أن يأتوا به، وكان ولوعه بالأدب وشغفه بالبيان واستمساكه بالفضيلة، كل ذلك إرهاص يكون بعده الإعجاز!

ولم تصرف ملتن عنايته بالأدب والشعر عما فرضت عليه الكلية من دروس. كذلك لم تصرفه عنها كراهيته إياها ودعوته القائمين بالأمر إلى إصلاحها، وتوجيه المطاعن إليها، فهي أمر لابد منه إذا شاء أن يظفر بالإجازة الجامعية؛ وهو منذ صغره دؤوب على العمل صبور جليد، فما ينوء اليوم بأن يجمع بين دروسه الرسمية ومتعة نفسه من الأدب والشعر وغيرهما مما لا يدخل في محيط الدروس المقررة.

ويشـــهد أكثر القائمين على أمر الكلية أنه طالب مجد في عمله، نشـــط في طلـب المزيـد من العلم، يحـب أن يحيط بمـا يـدرس إحـاطـة، ولولا نزعتـه الاســـتقلالية ونفوره من القيود ورغبته أن يختار الوقت الذي يحب لينجز ما كلف من عمل، ما شكا منه أحد، ولا كان بينه وبين تشابل عريفه الأول ما كان من شحناء وتنابذ.

ولم يتخلف ملتن عن أقرانه على الرغم من فترة إبعاده عن الكلية، فحصـــل عند نهاية الأجل المقرر للدراســـة الأولى على درجته العلمية الأولى، وكان اللاهوت هو العلم الأساسي الذي اختار من أول الأمر أن يمتحن فيه، ويحصل على درجته، فدرسه ودرس ما يتصل به أو يتفرع منه من معرفة.

ولئن درس اللاهوت على عسـره دراسـة جد، واسـتوعب ما يحيط به، فإن قلبه كان يجد العزاء في مجال آخر محبب إليه، وأي مجال أحب إليه من الشعر وأنغامه وأحلامه؟ وهل يشغله عنه شاغل مهما جل، وهو من افتتن به وظن أنه خلق له منذ من العاشـرة؟ لذلك كان يعمد إلى قيثارته يغني عليها أناشـيده كلما نفض من اللاهوت يده!

ففي أول ســنة له في الكلية، وقد دخل في ســنته الثامنة عشــرة، نظم الفتى باللاتينية - أول ما نظم - قصـائد ست، ثم نظم واحدة بالإنجليزية، ولعله اختار اللاتينية لأنها لغة أوفيد، وهو به متعلق مشـــغوف منذ صـــغره؛ وكانت معظم أشعاره اللاتينية مراثي في مناسبات على نحو ما يفعل عادة من يستطيع النظم من الطلاب؛ ولكن طموح ملتن وثيقته في نفسـه ألقيا في روعه أنه شـاعر حقاً، وأنه لا يتكلف النظم كما يتكلفه غيره، وأنه ما يســطر على القرطاس شــيئاً إلا اســـتحق أن يشـــيع في الأدباء! ولكن الذين كتبوا تاريخ حياته، ممن لهم علم باللاتينية، يرون التقليد في هذه الباكورة يغلب على الأصالة. وكان ملتن يقلد أو قيد، وقد اتجه بقلبه وخياله إليه، كما يصـنع الأفراخ النواهض من الشـعراء أن يتأثر كل منهم في صدر شبابه بواحد ممن حلقوا قبلهم في سماء الشعر!

وكانت القصـيدة الإنجليزية كذلك مرثية بكى بها الشـاعر الشـاب طفلة من ذوي قرباء، وعنوانها (في موت طفلة جميلة أودت بها سـعلة). ونلمس في هذه المرثية خصـائص ملتن الأولى في الشعر: فموسيقاه حلوة، وألفاظه تنساب في يسر وإشـراق، وإن لها في السمع لجرساً ساحراً جميلاً... وهو كثير الإشـارة إلى الميثولوجيا الإغريقية والمسيحية، يكثر من ذكر الآلهة؛ وهو يأتي بالصـفة تتداعى بها إلى الذهن المعاني المتصـلة بما يصـف في قوة ومهارة، فتوحي بذلك الأبيات القليلة معاني كثيرة، بل لقد يجعل للكلمة الواحدة معنى واسـعاً بما يسـبقها أو يلحقها به من الكلام، فيرمز للموت هنا مثلا بالشـتاء، وقد ناجى الطفلة في مبتهل القصيدة باسم زهرة من أشهر زهرات الربيع يكفي النطق بها لتذكر الأنفس الربيع وموسـمه الحفل؛ ثم يعود فيتحدث عن الطفلة كأنها ملاك عاد إلى أفقه، وقد اتخذ صورة الإنسان لحظة، لُيري الناس كيف يحتقرون هذه الأرض، وكيف تهفو إلى السماوات أرواحهم، ويسأل أمها تبعاً لذلك ألا تحزن، فما فقدت شيئاً...!

وبعد ذلك بسنتين ينظم باللاتينية أولى غرامياته، وفيها يذكر أن عينيه وقعتا في سـرب من حسـان لندن على فتاة اسـتأثرت بلبه ونفذت نظرتها إلى أعماق قلبه... فتاة هي فينوس حسناً وشكلاً... وسرعان ما جرحه كيوبيد بها في ألف موضع من جسمه... ثم غابت عن بصره وتولت وقد شغفته حباً... فأحس كأنه يحترق وكأن اللهب يحتويه... ولم يرها بعد ذلك أبداً، وأصبح بعدها كغيره من العشاق ينعم بشقاء حلو!

وأردف هذه القصـيدة بأخرى لاتينية غرامية كذلك يصـف فيها الحب، ولا يشير فيها إلى موقف بعينه كما فعل في سـالفتها، ولكن... إلى الهوى وأسـقامه وأحلامه...

ويحرص ملتن دائماً أن يسمو بحبه، فما تم كلماته ولا إشارته عما يستهجن من قول أو فعل، وما يصـدر عن مثله إلا كل سـام نبيل، وقد جعل سـمو النفس

وطهرها كما رأينا وسيلة إلى سمو التعبير؛ على أنه يفصح أحياناً عما يظهره أنه يحس شيئاً من المرح إذ يصف هيام الحب وأحلامه ومتعه؛ ولعله أراد بذلك أن يوحي إلى لذاته أنه يتخفف من تزمته، أو مما يأخذونه على أنه تزمت منه، وما هو فيما يرى إلا التوقر والاحتشام والجد؛ ولقد أشار في بعض خطبه إلى شيء من هذا المرح الذي يصف والذي يحبذ، وفي هذا الحب الذي يصوغ ألحانه، ما يرد به على من أطلقوا عليه ذلك الاسم السخيف الذي ضايقه بعض الثقلاء به!

وبينما كان يتكلف ملتن المرح، ويستجيب لدواعي الشباب فيغني أنغام الحب، كانت نفسه تنطوي على معاني غير هذه هي في الواقع أرب مشاعره ومنتجع خواطره ومتجه خياله، فتراه ينظم قصيدة استهلها بقوله (إيه يا لغة قومي) أشار فيها إلى رغبته في التخلص من العب واللهو وعبر عن عظيم طموحه فقال إنه يفضل أن يتخذ لغة قومه سبيلا إلى موضوع اخطر شأناً فيستخدمها إذ يسمو عقله حتى يبلغ أسباب السماوات فيطلع إلى الآلهة وهم منصتون إلى ما يترنم به أبولو؛ ثم يغني هو بدوره فينبئ عن الأشياء الخفية التي وقعت ولم تزل الطبيعة في مهدها.

وهكذا يصور له كبرياء عقله موضوعا عظيما لشعره فيتخيل وهو دون العشرين ملحمة كونية تدور على خلق الدنيا وتكشف عن أغراض الدين وعن وضيفته فيها؛ وما يرضي طموحه موضوعا أقل من هذا، ولا تقنع فطرته الشاعرة ولا عبقريته الباكرة بما يقنع به غيره من الشعراء فيتعلق خياله بأعظم ما يتعلق به خيال وأعمقه، وماذا وراء الخليقة والآلهة في مسارح الذهن ومطارح الخيال؟ وإنا لنلمح في ما يطمح إليه صورة مبهمة غامضة للفردوس المفقود، ونراها هنا إغريقية الأشباح أولمبية الآلهة، فهل كان يفكر الشاعر الناشئ منذ ذلك العهد في آيته الكبرى ويريد أن يتخذ من مثيولوجيا الإغريق مادتها ولباسها؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به؛ على أننا نجزم في هذا الصدد بأن الشاعر كان يومئذ يشغل باله ويهجس في نفسه موضوع عريض فخم، ولسوف نرى أن هذا الموضوع لن يبرح يطرق خياله ويهز نفسه حتى يتغنى بالفردوس المفقود...

وإنه ليرتفع بشعره إذا تناول أمراً يتصل بالدين، فيمد جناحي عبقريته ويرتفع ويحلق في أفق لم يكن ليبلغ في العلو مثله في غير ما يتصل بالدين؛ تجد مثلاً رائعاً في أنشودته الجميلة النبيلة التي نظمها سنة ١٦٢٩ وهو في

الحادية والعشرين من عمره في عيد ميلاد المسيح وسماها (أنشودة في صباح الميلاد) وهي إذا نظرنا إلى سنة وقتئذ جديرة بالإعجاب حقاً، تستحق ما نالت يومئذ من عظيم الثناء ويستحق صاحبها ما اكتسب من ذيوع الصيت ونباهة الاسم. ولقد أحس كل من قرأها أنه تلقاء روح عبقرية وثابة غلابة تملأ النفس شعوراً بتكامل القوة وإعجابا بروعة الفن وافتننا بسحر الخيال. هذا إلى براعة الموسيقى وسمو اللحن وجلال الفكرة، ولعلها في زعم بعض مؤرخي الأدب أجمل أنشودة في بابها في اللغة الإنجليزية كلها.

تخلص ملتن في هذه الأنشودة من تأثير أوفيد، وما عسى أن توحيه أوصافه وصور جماله من فتنة وإغراء، وأراد أن يلبس معانيه لباساً روحانياً طهوراً وذلك بأن يطلق روحه من عقال الجمال اللغوي فيختار موضوعاً يواتي ما يطلب. ولقد جمع في أنشودته هذه بين جلال الدين وجمال الطبيعة، وكأنما أراد بذلك أن يشير إلى وضيفة الشاعر الملهم إلهاما قدسياً وإلى صفات فنه، فجاءت هذه الأنشودة مثلاً يضربه لمقدرته على التوفيق بين الجمال الذي يطرب له والسمو الروحي الذي يتعلق به.

تتألف هذه الأنشودة من سبع وعشرين فقرة بكل فقرة ثمانية اسطر؛ ومهد لها بمقدمة من أربع فقرات، فهي كما ترى ليست بالقصيرة وبخاصة إذا ذكرنا بعض ما يختص به شعر ملتن وهو الإيجاز البليغ الرائع في التعبير عن المعنى المراد، والإيحاء القوي الواسع في استعمال الكلمة المختارة.

يصف ملتن الطبيعة قبيل مولد الطفل وبعد مولده فيبدع ويعجب؛ ويصور فرحة الكون المتطلع إلى المولود تنبعث من سمائه وأرضه لحناً جديداً تغنى به الكواكب وتجاوبها الأرض ويمتزج به غناء الملائكة، فتنتشي انفس الرعاة والناس، ويحسون تآلفاً واتساقا بين موسيقى الكون وموسيقى نفوسهم؛ وما هذا اللحن الجديد الذي تتجاوب به أرجاء الطبيعة وتستجيب له الأنفس إلا رمز لما يبشر به المسيح وما يدعوا إليه من سلام وصفاء ومحبة. ويملأ الشاعر نشيده

بما أبدع من صـــور، فهناك رهط الرعاة فوق المروج الخضـــر في هيئتهم القروية الســـاذجة. وهناك الصـــفان الأول والثاني من قبيلٍ أولي أجنحة من الملائكة بين لابس خوذة وحامل سيف، ومدرع بدرع براق. ثم هناك رهط من الآلهة بين إغريقية وفرعونية، وأنماط من الأرواح الطيبة والخبيثة، وعدد من عذارى الميثولوجيا ومخلوقاتها من طير ووحش وجن. هذا إلى ما سـوَّى خياله من مباهج الطبيعة ومفاتنها، وما ابتدع بيانه من ضـــروب التعبير وصـــور التشـبيه، وأشـكال المجاز، وألوان الاسـتعارة، تنظمها جميعاً موسـيقى تكافئ موضـوع الأنشـودة وتواتي غرض الشـاعر، وينهض كل أولئك على أدلة قوية على ذوق مطبوع وفن موهوب وذهن متمكن.

وكأنما أغراه نجاحه بأنشـــودته هذه بهذه الناحية الدينية فأراد أن يعكف عليها. فها هو ذا ينظم قصيدة جعل موضوعها صلب المسيح، وأخذ يمهد إلى ما لاقاه من ألم هائل وعذاب مخيف؛ غير أنها لم تصـادف ما صـادفته أنشـودة الميلاد من هوى في نفوس سـامعيها من أقرانه فكرهها وشـهد على نفسـه أنه أخفق فيها، وأمسـك عن إتمامها لأنها (مطلب فوق ما يصـح أن تتطاول إليها سـنة يومئذ)؛ وكان ملتن على شـدة اعتداده بنفسـه يرى مواطن الضـعف فيما يأتي من عمل فينتقد نفسـه ويتخلص من ضـعفه وتلك إحدى محامده ومن أجلها خليق بأوفر الثناء.

وفترت بعد تلك القصيدة حماسته لما هو موصول بالدين، وتطامن طموحه إلى حين؛ فأنصـــرف إلى مجال آخر لم يتناوله من قبل وهو مجال الطبيعة ومشـاهدها وما أنبث فيها من جمال. ولعل إغلاق الكلية بضـعة أشـهر لتوقي الطاعون وزيارة ملتن أثناء ذلك للريف مما ســـاعد كذلك على إقباله على هذه الناحية الجديدة في شعره.

نظم ملتن في العام التالي قصـــيدة في عيد الربيع عنوانها: (أغنية في أحد أصباح مايو) فوصف شهر الورد وبهجته وما يبثه في النفوس من مرح وشباب

وســـحر، وكيف ترتدي الغابات والخمائل بردائها، وتزهى الربى والخمائل بنعمائه؛ ونظم قصـيدة أخرى هي (نجوى البلبل) تفيض كسـابقتها بإحسـاسـه بالجمال والمرح وتعبر عن حيوية الشـباب ولهوه؛ وتنبئ بأنه لا يزال يهفو إلى الحب قلبه وتتعطش إلى لذاذاته نفسه.

وبرهن ملتن بقصـيدتيه هاتين على استعداد عظيم لوصـف مشـاهد الطبيعة، وتجلت في هذه الناحية مقدرته على الإيحاء والتصـــوير بالكلمة المختارة تجر وراءها مختلف الصـور حتى ليرى المرء بعين خياله ما يرى مثله ببصـره من صـور الكون ومشـاهده، وتلك موهبة تجعله يصـنع بألفاظه ما يصـنع الرسـام بريشته؛ وسيغدو ملتن من شعراء الطبيعة الأفذاذ في أدب العالم كله، وسيظل في الأدب الإنجليزي بعد شكسبير في وصف الطبيعة الشاعر الذي لا يتطاول إلى أفقه أحد...

وظهرت دلائل ما يعتلج في أطواء نفسـه من حب في سـلسـلة من الأغنيات نظمها بالطليانية، بعد قصيدتيه الأخيرتين، وقد كتب إلى صديقه ديوداتي يقول: (أكتب إليك ما اكتب وأنا مندهش منه! أعلم أنني أنا الذي طالما تهزأ بالحب واحتقرته وضـــحكت من شـــركه وقد وقعت بغتة في هذا الشـــرك). والحق أن ملتن كان يومئذ يضـــطرب بين الاســـتجابة القوية لداعي الحب والخوف من ضـــلالاته حتى غلبه الحب على أمره، فأخذ يغني ألحاناً يشـــهد من قراءها أنها من أجمل ألحانه وأعذبها ارتفع فيها بالحب إلى جوه المثالي وأفقه العذري وخياله الشاعر.

وكانت الفتاة التي يشير إليها في أغنياته الجديدة طليانية الأصل يزينها نمط من الجمال الأجنبي يعد جديداً على نفســه جديداً في ناظريه، وقد أفتتن بمحياها الأســـمر وعينيها الدعجاوين، وأخذ حبها بمجامع حبه، وأحســـت بموقعها في نفســـه فلم تلبث أن بادلته الحب، وطارحته أحاديث الهوى، فقد نظم أغنياته بالطليانية استجابة لطلبها إذ قالت له (أن الطليانية لغة الحب).

ونظم ملتن في نفس السنة أبياتاً عن شكسبير لطبع في صدر مجموعة من آثاره، وتبين للناس مبلغ ما أوتي من قوة البلاغة ومهارة التعبير فضلاً عن أصالة الخيال الشعري وجماله. وحسبك منه قوله (ما حاجة شكسبير إلى صرح من الأحجار يعمل جيل في إقامته فوق عظامه المجيدة؛ ما حاجة رفاقه إلى هرم يومئ إلى النجم؟ يا ابن الذكر الحي يا أيها العزيز، ويا وارث الصيت المجيد، يا أيها العظيم ما حاجة أسمك إلى تزكية ضعيفة كهذه، وقد بنيت لك من إعجابنا ودهشتنا تمثالاً لا يبلى؟ إنك قد أفضت علينا من شعرك الدفاق ما يخجل حياله كل فن متعثر بطئ، وأستمد كل قلب من أوراق كتابك الذي يجل عن كل قدر، تلك الأسطر التي تنتمي إلى (دلفي)، تلك الأسطر الخوالد التي تركت فيه أعمق الأثر، ولقد سحرتنا عن أنفسنا حتى أحالتنا إلى مرمر من فرط ما تخيلنا وعجبنا! وكان لك وأنت هكذا دفين، من عظمتك ومن أبهى ذكرك وفخامة قبر من أجل الظفر بمثله يتمنى الملوك الموت).

وبعد نشر هذه الأبيات القوية في صدر تلك المجموعة من آثار شكسبير دليلاً على أن ناشريها كانوا ينظرون إليه يومئذ وهو لا يزال طالباً في الكلية نظرتهم إلى شاعر بدأت تتحقق له نباهة الاسم.

ونظم ملتن في سنتيه الأخيرتين بالكلية بضع قصائد في مناسبات، أهمها ثلاث مرثيات وقصيدة كتبها عن نفسه هي أقرب إلى شعر التأملات. أما المرثيات فاثنتان منهما كانتا عن هوبسون الشيخ أحد الموظفين في الكلية وقد قضى فيها من عمره سنين طويلة، وفيها يمزج ملتن العطف بروح الدعابة. وكانت الثالثة عن سيدة في مقتبل العمر تدعى ليدي ونشستر أحدث موتها حزنا عميقا في أواسط المجتمع العليا. ولقد ذاعت مرثية الشاعر الشاب ذيوعا عظيماً في تلك المناسبة، أحبها كل من قرأها أثنى عليها ثناءً كبيراً.

أما القصيدة التي كتبها عن نفسه فكانت في عيد ميلاده الثالث والعشرين، وفيها يعجب الشاعر من سرعة انقضاء الزمن، ويأسف أن يخلوا ربيع حياته

الأخير من البراعم والأكمام؛ وهو بهذه الإشارة يضطغن على نفسه، فربيعه زاهر بالحياة والنماء، ولعله يقصد أن أكثر ما جادت به براعته لم ينشر ليدل على وفرة ثماره، أو لعله ضرب من الطموح، فهو إذ يستقل ما عمل حتى يومه هذا إنما يشير إلى ما هو جامع له عزمه في غده.

والشواهد على عزمه المصمم قائمة في موضوع ألقاه في سنته الرابعة والعشرين وهي السنة التي غادر فيها الكلية، وكان الطلاب يتناظرون في العلم والجهل وأن العلم يجلب للمرء من السعادة أكثر مما يجلب الجهل؛ وتحدث ملتن فأفاض وأجاد في بيان فضل العلم وقارن بين أوربا في عصر الظلمات وبينها في عصر النهضة، وأشار إلى الإنسان في بداوته إذ كان يهيم على وجهه ويتخذ من الجبال بيوتاً ويعيش بلا دين وبلا قانون ولا ثقافة كما يعيش ضواري الوحش، وإلى الإنسان في حضارته وما ينعم به من المعرفة ويهتدي به من الدين ويتمتع به من روابط الثقافة. وأختم كلامه فأهاب بالمستمعين أن يكتسبوا كل يوم معرفة جديدة حتى يكون شأنهم شأن الاسكندر حين بكى لأنه لا يجد أمامه عوالم أخرى تطويها انتصاراته...

وفي سنة ١٦٣٢ غادر ملتن الكلية بعد أن حصل على درجاته العلمية الثانية وبعد أن قضى فيها سبع سنين؛ رحل عنها وإنه ليأسف على رحيله كثيرون والكل به معجبون. ولا غرو أن تتغير نظرة الأساتذة والطلاب إليه عما كانت قبل ممن كانت له مثل متانة خلقه ورجاحة عقله وفصاحة لسانه وقوة جنانه وشاعرية روحه وطموح نفسه، خليق بمن عرفوه أن يأسفوا على فرقته وأن يعجبوا بشخصيته. ولقد طلب إليه أكثر من مرة القائمون على أمر الكلية أن يبقى بينهم زميلاً بعد أن تخرج فيها ولكنه لم يجد في نفسه الميل إلى ذلك؛ ونجد مصداقاً في تغير نظرتهم إليه فيما كتبه بعد ذلك بعشرة أعوام إذ أشار إلى ما لقي من احترام على أيدي أساتذة الكلية يفوق ما لقي أنداده منه وإلى رغبة هؤلاء الأساتذة في أن يبقى معهم إلى أن قال (وقد وثقت فوق ذلك من

اختصـــاصـــهم إياي بالمودة والعطف وذلك من كتبهم التي تلقيتها قبل رحيلي وبعد ذلك بزمن طويل وكلها تفيض بعطفهم علي ومودتهم إلي ومحبتهم إياي).

أما هو فكان يذكر أيامه في كمبردج بخير، بل ما برح يشــكوا ن تخلفها في المعرفة وتمسكها بالماضي وتعودها عما كان يرجوا من النهوض.

في هورتون

على مسافة سبعة عشر ميلا من لندن كانت تقع قرية هورتون الصغيرة الجميلة، حيث اشترى الموثق جون ملتن بعض الأرض وأقام بيتاً ليأوي إليه إذا اعتزل العمل وجنح للراحة.

وكانت هورتون قرية هادئة تحيط بها المروج والمراعي، والحقول بين ضيقة محصورة وواسعة منبسطة، والغابات والخمائل عن يمين وشمال، تتراءى بينها عن بعد أبراج وندسور، تلك القلعة العالية القديمة فيتألف من مجموعها مجتلى ساحر جميل تستريح النفس لمرآه، ويسعه البصر من أوله إلى منتهاه.

وأتخذ ملتن طريقه إلى هورتون، تاركا وراء ظهره الكلية ومن فيها من ثقلاء وظرفاء، ومن أولى الغلظة والعنت من العرفاء، ومن المتبجحين بالعلم من الأغبياء، مبتعداً عن دروسها ومناظراتها، وقد نفض قدميه من ثراها ويديه من كتبها.

وأوى الفتى إلى هورتون لا ليقضي بين ربوعها أياماً معدودات ثم يعود إلى لندن، ولكن ليقيم فيها سنين تطول أو تقصر حسبما يشاء، فهو لا يتقيد في مقامه بشيء!

وماذا عسى أن يصنع ملتن في تلك القرية؟ وهل درس ما درس في الجامعة وحصل على درجتين من درجاتها ليركن إلى البطالة والدعة في ظلال الريف؟ ليس هذا مما ألفه الناس، ولا هو مما يجري على سنن العقل، وليس يقره عليه أحد؛ بذلك كان يحدث الموثق نفسه ويحدث أصحابه، ويتناقله بينهم من يعرفونه من الناس!

ولكن الشاعر لا يأبه لما يقولون، فقد عقد العزم بادئ الرأي على رفض أية وظيفة في الحكومة، كما رفض الالتحاق بالكنيسة، وإن كان قد درس اللاهوت؛ وليس يعنيه أن يبين لهم وجهة نظره، فأكبر الظن أنهم لن يقروه عليها؛ وهل فيهم من يقره على إقامته في الريف، حيث تكون له عزلة يستريح فيها من ضجيج المدينة ولهوها وزحمتها ليتفرغ للقراءة والدرس، فيستدرك ما فوتت عليه قراءته الكلية من كتب، ويستكمل ثقافته في الإغريقية واللاتينية، فهما عدته لما يتهيأ له من رسالة؟ وهو إنما يزداد شعورا بأنه يتهيأ لرسالة، وأن عليه أن يستزيد من المعرفة والحكمة ليكون أهلا لها لما يستشرف له.

ذلك كان مأربه من إقامته في الريف، فهمه في الحياة أبعد من كسب القوت وأجل من ذلك شأناً، وما يرى العلم والحكمة بل والفضيلة نفسها إلا وسائل يتوسل بها إلى ما يبتغي من غاية؛ وإنه لواثق إن الناس ينكرون عليه ذلك، وأنهم يعدونه حلماً من الحلم يوسوس به الشباب في صدر شاعر سحره عن نفسه، وأذهله عن الصواب حب الشعر... وماذا عسى أن يقولوا غير ذلك وليس فيهم من يصدق أن الشعر مطلب ترصد له الحياة، وغاية يحتقر في سبيلها المال والجاه!

وكان أبوه يطمع أن يلتحق الفتى بالكنيسة، ولكنه منذ صغره لا يحب أن يحمله على ما لا يريد، فحسبه أن يمني بذلك نفسه، على أنه كان خليقاً أن يدرك بعد أمنيته عن التحقيق، فهو أعم الناس بابنه، وأخبرهم بنوازعه وآراءه.

كانت صفات ملتن تحول بينه وبين الكنيسة، فإباءه ونزوعه إلى الحرية لا يسمحان أن يتقيد بقيد، ورغبته للتفرغ لقراءته والتهيؤ لرسالته يبتعدان به على أن يشغل نفسه بغيرهما، وإنه فضلًا عن ذلك ليحس في نفسه الكراهة لرجال الدين، ويشمئز قلبه إذا ذكرت عقيدة روما الكاثوليكية، فهي عنده علة التعصب وأصل تحكم القساوسة واستبدادهم وجمودهم؛ وهو فتى يعشق الحرية الفكرية وحرية العمل، ولا يستطيع أن يتصور كيف تخلو الحياة منهما وتسمى مع ذلك

(حياة)! ولا نجد ما يوضح رأيه في رفض الالتحاق بالكنيسة خيراً مما كتبه بعد ذلك ببضع سنين عن الكنيسة وأشار فيه إلى ما نحن بصدده قال: (أما عن الكنيسة التي أزمع إعدادي لخدمتها منذ طفولتي حتى بلغت مرحلة من مراحل نضجي فإني مذ رأيت مبلغ ما دخل فيها من طغيان، وأن من يلتحق بها يجب أن يكون عبداً، وأن يقسم على ذلك قسماً، وجدت خيراً لي أن أفضل الصمت الذي ليس فيه ما يعاب على الوظيفة الكلامية المقدسة التي تشترى بالقسم سلفاً، وبالعبودية وتبدأ بهما!)

ولم يكن ملتن حتى ذلك اليوم بيوريتاني المذهب، وإن كانت عفته وطهره وترفعه عن الدنايا تمثل خلق البيوريتانية، وإن لم يقصد؛ أما عن مذهبه الديني، فكان حتى ذلك الوقت يتبع الكنيسة الإنجليزية الحرة، دون أن يعني بتحديد ما فيما يتعلق بقواعد مذهبها؛ ولقد كان يكره من هذه الكنيسة ما كان يكرهه من كنيسة روما من التعصب لرأيها والرقابة على المذاهب الأخرى وعلى المطبوعات؛ وأبغضت نفسه طريقة كبير أساقفتها (لود) في تعقبه مخالفيه والتجسس عليهم ورفع أسمائهم إلى الملك؛ ويعد ملتن في هذا الاتجاه كذلك أقرب إلى البيوريتانية في ناحية من نواحيها وإن لم يرمي إلى ذلك.

وأن شخصاً هذه نظريته إلى الكنيسة ورجالها لخليق ألا يقبل مركزاً دينياً مهماً منى أبوه نفسه أن يقبل، ومهما ألح عليه أصحابه أن يفعل!

أما القانون وقد كانت لحرفة أبيه صلة به، فقد فكر فيه عقب تركه الكلية، ولكنه ما لبث أن انصرف عنه؛ وأما الوظيفة الحكومية، فلم تكن احب إلى نفسه من وظيفة الكنيسة، وما ترتاح نفسه في الواقع، ولا يتجه قلبه وعقله إلا إلى الشعر، فلتكن له من عزلته في هورتون فرصة أجمل بها وأعظم من فرصة يتهيأ فيها لما يريد!

وعكف الفتى على محرابه في هورتون، فما يبرحها إلى لندن إلا لماماً ليشتري بعض الكتب أو ليستمع إلى الموسيقى أو يستعين بمن يفهمه بعض

مسائل الرياضة، وألف حياة الريف وأستروح نسيمه، واستغرقت في هدوءه نفسه واستمتع بصفائه حسه، وتقلب في مشاهده بصره في بكره وآصاله وفي متوع نهاره، وإذا كان غيره من الشعراء قد تغنى بحياة الريف ولم يره، فلسوف يحيا ابن المدينة حياة الريف حقبة من عمره، ثم يمسها مسة العبقرية فيغنيها ويصور مشاهدها ويضيف بذلك إلى أدب لغته وفنها ما تباهي به وتعتز!

كان يقضي كثيراً من ساعات نهاره بين كتبه، وكان يقوم الليل كدأبه منذ سن العاشرة، وقد قوي جلده على القراءة واشتد صبره، ويعجب المقيمون في القرية من ذوي الثقافة من هذا الشاب الذي تخرج من الجامعة، ولا يزال يكب على الكتب ليله ونهاره كأنما هو مقبل على امتحان!

أما أهل القرية فانهم لم يألفوا أن يقيم بينهم إقامة متصلة شاب من هذا الطراز؛ وقد ظنوا أول الأمر انه لاعب يستجم، أو زائر لن يلبث حتى يبرح القرية إلى حيث يكون مقام أمثاله في المدينة؛ وكانت ترمقه عيون فتيان القرية وصباياها في إعجاب ومحبة، فهم حيال شاب عليه فوق رونق الشباب وغضارته روعة الجمال وسيماء الوقار والاحتشام، وإنهم ليحسون في صوته عذوبة الموسيقى، ويرون في محياه إمارات النبل والأريحية والكرم؛ وما يطمع القرويات منه أكثر من أن يرينه ويراهن، وإن كان له في كل قلب محبة، وما عسى أن تنتظر صبايا القرية فوق ذلك من هذا الشاب الذي يتهامسن بأنه تخرج من الجامعة وأنه من ذوي المحتد؟ على أنه فضلا عن ذلك كان في شغل عنهن بعرائس شعره!

وإنه لأشد بالطبيعة ولوعا يقلب في مشاهدها بصره، ولكم يرى في مجالي القرية مما يشرح صدره ويهز قلبه؛ وكانت تعجبه الوجوه القرويات الوضاء لما توحيه سذاجتها من طهر، كما كان يطرب لأغاني الرعاة ويحس ما فيها من المعاني والأخيلة والصور القروية، التي يراها الآن تتصل بنفسه صلة قوية

بتأثير بيئته الجديدة؛ وتبعث تلك الأغاني ما كمن في ذاكرته من أشـــعار أوفيد والحان ســبنســر مما يتصــل بالحياة القروية فيرجع إليها ويعيد في هذا الجو قراءتها فيسـتشـعر من جمالها ويسـتبين من معانيها أكثر مما أتفق له من قبل؛ وهكذا يعيش عيشـــة الريف ويقرأ أدب الريف، فيكون لذلك أثره العميق في خياله وحسه، ولا يلبث أن تتضح صبغته في فنه!

ولكن الموثوق الشـــيخ وقد ركن إلى الراحـة في القريـة لا يزال يـأمل أن يراجع ابنه نفســه فيرضـــى بوظيفة من الوظائف، فأنه ما يرى حياته هذه إلا ضربا من البطالة لا يسيغها عقله ولا يحبها لابنه، ويدأب الرجل على الشكوى إلى جيرانه ويصل نبأ شكواه إلى ابنه فتكدر خاطره حينا، لأنه يكره أن يغضب أباه ويكره في الوقت نفســه أن ينصــرف عما يتهيأ له من رســالة تهجس بها نفسه.

ويرد الفتى على أبيه بقصــيدة لاتينية جميلة فيتوســل إليه أن يدعه فيما هو فيه، ويرجو منه ألا يحتقر الشــعر ويتســاءل كيف يدهش أبوه وهو الموســيقي النابه من أن يكون ابنه شاعراً؟ لقد قسم أبولو إله الموسيقى والشعر موهبته بين الأب وابنه؛ والموسيقى والشعر صنوان، والشعر أقوى مواهب الإنسان دلالة على قداســة عنصــره؛ وإنما يتظاهر الأب فحســب بأنه يكره الشــعر، ويحتقر الشاعر في قصيدته الثراء والمادة مما يدل على إن أباه قد أشار إلى رغبته في أن يعمل على كســبهما ويســتطرد موجها الخطاب إلى أبيه فيقول: (يا أبت لقد عودتني منذ الصـــغر أن أطلب المعرفة من أجل المعرفة فكيف تطلب إلي أن أحفل بالمال، وأنت دون الناس جميعاً من لا يخلق ذلك به. يا أبت إن الوالد الذي لا يقتصـــر على أن يعلم ابنه اللاتينية فيعلمه معها الإغريقية والعبرية والفرنســية والطليانية والفلك وعلوم الطبيعة، لا يســأله أن يجعل كســب المال غرضـــه من الحياة، يا أبت إني اخترت ما هو خير بذلك وكأن بوحيك ما اخترت. وإني أعلم انك تقر ذلك بقلبك وتشـــاطرني الرأي فيه. وعلى هذا فما

دمت أيها الوالد العزيز لا أستطيع أن أقابل جميلك بمثله، فإني أرجو أن تكتفي مني بالاعتراف به وببقائه أبدا في ذاكرتي؛ وإذا كان لأشعاري الفنية أن تتطاول إلى الأمل في الخلود، فسوف يكون لي من اسمك موضع لشعري).

وأكبر الظن أنه قد أصلح بهذه القصيدة ما بينه وبين أبيه، فلم يعد أبوه يشكو من إقامته في هورتون، ولعل الرجل إنما صالح نفسه على هذا الوضع إذ لم يجد لشكاياته من جدوى ولم يهتد في إقناع ابنه إلى وسيلة.

وظفر ملتن بالهدوء في عزلته الريفية الجميلة، واتفق له جو شعري ساحر، ندر أن اتفق مثله لغيره من الشعراء في مستهل عهدهم بالشعر، فما نعلم منهم إلا من لقي أول أمره عنتا وضيقا كثيرين، وانهم ليبتلون بالعذاب من الحياة ومن أنفسهم، وما كان لينعم ملتن بما نعم به لولا زكانة أبيه وسماحة طبعه وإدراكه قيمة الفن وإيمانه به.

ولكن عبئا آخر يهبط على الشاعر في عزلته من صاحب لم يعرف اسمه، فقد عثر فيما بعد في أوراق ملتن في تلك الحقبة على ورقتين بهما سطور من رسالة كان يرد بها على كاتب صاحبه، وقد جاء فيه أنه لا يرضى لملتن أن يقضي سني عمره حالما في عزلته شأن أنديميون مع القمر بينما يمضي الزمن مسرعا. ورد ملتن بأنه يقضي أرب نفسه من الثقافة والمعرفة ليكون أرفع مما هو قدرا، ولولا أنه يؤمن بهذا الذي يأخذ نفسه به في غير رفق لما وقف مصمما في وجهه كثير من غرور الحياة كالطموح إلى المناصب والرغبة في جمع المال، والميل إلى البناء بزوجة وتكوين أسرة، والإقامة في مسكن خاص. ويرسل ملتن إلى صاحبه تلك القصيدة التي نظمها وهو في الجامعة واستغل فيها ثمار جهوده ليدرأ بها عن نفسه تهمة التبطل والخمول.

وأقبل ملتن على القراءة إقبالا عظيما؛ وكان أكثر همه منصرفا إلى الشعر في أشهر آداب الأمم، وخاصة الإغريق والرومان، واطلع إلى جانب ذلك على الأدب الفرنسي والأدب الإيطالي، وقرأ الفلسفة القديمة وخاصة أفلاطون،

وفلسفة العصور الوسطى كما قرأ التاريخ يستخرج منه الحكمة والعبرة؛ وعنى بعصر شكسبير عنايته بعصر بركليس، فكان أكثر وقته مخصصا لهما وأحب هوميروس وفرجيل وأوفيد ودانتي حبا لا يضارعه إلا حبه لشكسبير وسبنسر، وكان ولعه عظيما بما استحدث في العصر الأليزابيثي من صور البيان، وما تولد فيه من مشرق اللفظ وبديعه، وما أفتنه المفتون من أساليب الوصف والغناء؛ وأعانه على استيعاب ذلك سليقة فنية خالصة، وروح إلى الفن وجماله متعطشة، وعبقرية طامحة توحي إليه أن يجري في مضمار هؤلاء العباقرة والأفذاذ وألا يتخلف عنهم في شيء.

إما عن أدب عصره فالأرجح أنه قليلا ما كان يتناول بعض آثار ذلك العصر، لأنه قليل الإشارة إليها فيما كتب قليل التأثر بها، ولعل مرد ذلك إلى انه حصر ثقته في الروائع السالفة من أدب العالم، ولم يجد ما يكافئها إلا آثار شكسبير وأفذاذ عصره.

ولم يك يقرأ ملتن قراءة عجلان لا يقع على مطلب حتى يطير عنه إلى غيره، وإنما كان يقرأ قراءة المتثبت المتقصي، الذي يعمل فكره ويقدح ذهنه في غير ملل أو نصب؛ يتكئ على نفسه حتى ينفذ إلى أعماق ما يقرأ، ولن يبرح ينشره ويطويه ويقلبه على أوجه الرأي جميعا حتى يطمئن إليه، ويقضي في أمره بالقبول أو بالرفض. ولقد عثر سنة ١٨٧٤ على كراسة من مخلفات ملتن بها ملاحظات واقتباسات من نحو ثمانين مؤلفا دونها أثناء قراءته ومنها يقف المرء على مثال لكدحه وصبره على عناء الدرس.

على هذا النحو قضى ملتن ست سنوات في هورتون؛ وما تظن إن شاعرا قبله أو بعده اتسع أفق ثقافته أكثر مما اتسع أفقه، وما نظن إن أحدا من الناس شاعرا كان أو غير شاعر قد أعد نفسه لما يريد من أمر بما هو أقوى مما أعد به هذا الفتى للشعر نفسه

وكان يزور المدينة أحيانا فلا تغريه حياتها عما وطن عليه النفس من الجد، وأقصى ما كان يقضيه فيها إذا حل بها بضعة أسابيع، ولكن ذلك كان نادرا فإن معظم إقامته فيها كانت لا تعدو بضعة أيام؛ وكان في المدينة يسعى إلى حيث يستمع الموسيقى، كما كان يغشى المسارح ويزور علية القوم، ويمتع ناظريه بما يرى من جمال الحياة، ولكنه يملك زمام نفسه، ويسيطر عليها سيطرة قوية تامة قل ما توافي مثلها لغيره في سن كسنه، فإذا قضى أرب مشاعره من الجمال، وأرب جسده من الراحة، واشترى ما تتطلب دراسته من كتب عاد إلى هورتون فأقبل على أوراقه وكتبه.

إشارة في هورتون

كان كل هذا العناء وكل هذا الكدح من اجل الشعر، فالشعر كان في قرارة نفسه لو حاول بكل ما في وسعه ألا يكون شاعرا ما استطاع. وهو يعتقد أن الله سواه ليكون شاعرا، ولذلك فهو يعلى قدر رسالته ويجعل لها شبه ما للرسالات الإلهية من سمو وخطر؛ فلا يقتصر على طلب الحكمة والوقوف على ما هو بسبب من تلك الرسالة والإفادة منه، بل يتطهر إلى جانب ذلك فينقى نفسه من كل شائبة ليكون لرسالته أهلا وليتنزل عليه نورها. ثم إنه يستغرق في حال صوفية يعدها كذلك من مكونات الشاعرية فيتقرب إلى الله ويبتهل إليه، لأنه يؤمن أن وحي الشعر يهبط من الله، يوضح ذلك قوله: (إن مثل هذا لن يصل إليه المرء إلا بالصلاة والقنوت لتلك الروح السرمدية، لله الذي يؤتي الحكمة ويهب البلاغة فيغني بهما الأنفس، ويرسل رسله بالنار المقدسة من لدن عرشه فيظهر بها روح من يشاء من عباده. ويجب أن يكون مع الصلاة قراءة مختارة في جد متصل، يصحبها تدبر يقظ، وتعمق للأعمال والمسائل ما هو خير منها وما يبدو كأنه خير. ولقد وصف ملتن مدة إقامته هذه في هورتون بقوله: (إنها سنوات كثيرة مليئة بالدراسة والتفكير، قضيت كلها في البحث عن المعرفة الدينية والمدنية).

وحق لأصحابه أن يعجبوا من صبره على المقام في الريف، وزهده في مباهج المدينة. وعجب حتى (ديوداني) من ذلك فكتب إليه يسأله عما هو فيه، فرد عليه ملتن قائلا: (لقد طالما تساءلت عما أنا في شغل به، وفيم أفكر، فاعلم أن ذلك بمعونة الله هو الخلود. وأرجو أن تغفر لي هذه الكلمة فإنما اهمس بها في أذنك. اجل، إني أريش جناحي استعدادا لأن أطير فاحلق تحليقه).

وكان كتاب صاحبه هذا إليه، ورده عليه في أخريات أيامه في هورتون.

وما كان يريش جناحيه إلا ليطير في سماء عالية، ويحلق في أفاق فسيحة، فإن موضـــوعاً عظيماً لن يبرح يهجس في خاطره، ولن يزال حديث نفس ومنتجع هواه؛ فأي موضـــوع هو ومتى ينهض له؟ ذلك ما لم يتبينه يومئذ على وجه التحديد؛ ولكن المرء يســتطيع أن يســتخلص من مادة دراســته من طول انكبابه عليها أنه يتأهب لرســـالة عليا يتحقق له بها الخلود. ويقول الدكتور جونســون في هذا الصـــدد: (من هذا الذي يعد به وقد جمع فيه بين الحماســة والتقوى والتعقل يمكن أن نتوقع الفردوس المفقود).

على أنه لا يزال بينه وبين الفردوس المفقود سنوات طويلة، فماذا جرت به أراعته في هورتون، أو على الأصح ماذا تغنت به قيثارته؟

نظم ملتن ثلاث قصـــائد، وغنائيتين مســرحيتين أحدهما قصــيرة تقرب من مائتي سطر، والأخرى طويلة نيفت على الآلف. ولئن عظمت شهرة قصيدته الكبرى (الفردوس المفقود) فيما بعد حتى بهر نورها القلوب والأبصار، وأنسى الناس هاتيك القصـــائد التي نظمها في هورتون، فإن جمهرة النقاد متفقون على أنه بلغ ذروة الفن في تلك القصائد الخمس، وعلى أنه لو لم ينظم غيرها، لكانت كفيلة أن تحله في الصــفوة المختارة من الشــعراء المغنيين في العالم كله قديمه وحديثه، إن لم تجعل له موضع الصدارة بينهم أجمعين.

وقد نشرت تلك القصائد سنة ١٦٤٥ بعد رحيله عن هورتون بست سنوات ومعها بعض أشـــعاره اللاتينية. وكان ما ذكره ملتن عنها أنها بمثابة امتحان لقدرته وأنها مقدمة بين يدي وعده فحســـب، ولم يفتأ بعدها يعد بعمل خالد في دنيا الشعر دون أن يشير إلى تلك القصائد كأنه نسيها أو كأنه لا يرى فيها شيئا يحقق جانبا مما يعد به، وتكشف تلك القصائد الجميلة الخمس، فضلا عما ترى الناس من مقدرته الفنية، عن كثير من خلجات نفســه واســتجابة حســه ونوازع قلبه، ومتجه فلسفته. لذلك كانت عظيمة الخطر كسجل لحقبة من حياته، أما تلك القصائد فهي (الليجرو) و(البنسروزو) و(اركاوس) و(كومس) و(ليساوس).

أما الأولى والثانية فكلتاهما تعيض الأخرى في موضـوعها؛ فمعنى الليجرو في الطليانية (الرجل الطروب) ومعنى البنسـروزو (الرجل المتفكر). وتصـف الأولى كيف يكون المرح واللهو في أحضـــان الطبيعة وفي زحمة المدنية، وتتصـف الثانية كيف يكون التفلسـف في الحياة والركون إلى العزلة، والتفكر بين الأوراق والكتب. وأما الثالثة فهي الغنائية القصـيرة. وأما الرابعة فهي الغنائية الطويلة. وأما الأخيرة فهي في رثاء صديق.

افتتح ملتن قصيدته الأولى (الليجرو) بقوله (إليك عني أيها الأسى المتلكئ) ثم راح يصف الأسى فصوره في صورة مخيفة سوداء. وحسبك أن ينعته أنه يولد من احلك ســواد في منتصــف الليل، ومن الكلب الخرافي ذي الرؤوس الثلاثة والذيل الثعباني، ذلك الوحش الذي يقوم على حراســة إغلاق العالم السفلي؛ ويولد الأسى من هذين مجتمعين فهو ابنهما... ويعود الشاعر فيقول: (اذهب أيها الأســى فابحث عن مأوى لك بين الأشــباح المرعبة والصــراخ والمناظر الخبيثة حيث يمد الليل الكئيب جناحيه الحريصــين على الظلام، وحيث تغني البومة طائر الليل هنالك تحت الظلالالســود وتحت الصــخور المكتئبة المتداعية كذوائبك المهوشــة. اذهب أيها الاســى، وابق أبداً في تلك الصــحراء الخرافية القصــية المظلمة التي ينتهي عندها العالم في الغرب على حافة المحيط).

وينتقل الشاعر بعد هذه الصورة الكريهة إلى مناجاة الفرح فيقول:

(اقبلي أيتها الآلهة الجميلة الطليقة التي ســميت في الســماء (أفروســين)، وسماك الناس السرور الذي يشرح الصدر؛ أنت يا من ولدتك فينوس وحملتك وأختين لك أخريين إلى با خوس؛ أنت يا من حملت بك أورورا، وهي تلاعب زفير حيث لقيها أول أيام مايو وهما يمرحان على ســرر من البنفســج الأزرق والورود الجنية تفتحت لساعتها وغسلها الندى، فجئت ابنة حسناء بضة مرحة. ثم يمضي الشاعر يعرض صور المرح الذي تجلبه معها عذراء الأساطير التي

يناديها، فهناك الشباب المتوثب الطروب، واللعب والبسمات العذاب، والضحك الذي يمسك جنبيه. ويعود فيهتف بتلك العذراء، ويسألها أن تسرع إليه تخطر على أطراف أصابعها مصطحبة معها عذراء الجبل، الحرية الحلوة ممسكة إياها بيمناها، ويشعر المرء بالبون العظيم بين ما سرده من صور الأسى وبين ما صوره من أشكال المرح وانماطه، ويقابل بين الناحيتين فتزداد كل منها انجلاء تلقاء الأخرى...)

ثم يعمد ملتن إلى فنه الذي امتاز به فيرمى في اسطر متتابعة إلى صور كثيرة متلاحقة يرسلها واحدة تلو الأخرى، يريد أن يقول: إنها أطياف الفرح يوحيا إلى النفوس إذا لاذت به. وكلها مما يملأ القلوب بهجة ونشوة، (فهناك ضوء القمر في الليل الساجي وغناء القبرة ينبعث من برجها العالي في السماء، ثم صياح الديك بعد ذلك يبدد الظلام، بينما يسوق أمامه في نشاط حسانه إلى باب الحظيرة، ثم كلاب الصيد ونفيره توقظ في مرح الصباح الناعس، والشمس تنحدر من الباب الشرقي متشحة بالشعل فتبدد السحب، والحرث يصفر لحناً على مقربة من الأرض التي خططها بالأمس، وحالبة اللبن تغني طرب، والرعاة يتلو كل منهم قصته إلى جانب ألا لفاف الخضراء، والقطعان والمراعي والمروج الخضر، والجبال والنهيرات والأنهار الواسعة تجتليها العين في نظرة، والأبراج الشاهقة بين الأشجار لا يبعد أن تكون مقراً لذات حسن، فهي لذلك مهوى البصر لكل عين قريبة؛ ويتراءى غير بعيد دخان ينبعث من كوخ قائم بين شجرتين عتيقتين باسقتين من أشجار البلوط، حيث يطعم الرعاة طعامهم الشهي الريفي قدمته إليهم الراعيات، ثم انطلق النساء منهن والصبايا إلى الحصاد يحصدن الزرع ويسوينه حزماً؛ وثمة فرحة أخرى طليقة يبتعها مرأى القرى القريبة يلحن للعين على مرتفع، هنالك حيث تصلصل الأجراس المرحة تباعاً، ويغني المزمار الطروب فيشجي الفتيان والصبايا، إذ يرقصون جماعات في الظلال الرقطاء، وقد خرج الكبار والصغار يرتعون ويلعبون في يوم بطالة ضاح، ولن يزالوا في مرحهم حتى

ينطوي ضـــوء النهار الطويل. ثم إن لهم بعده متعة في الصـــهباء تدار عليهم أكوابها إلى جانب الموقد، ومتعاً في حكاياتهم عن الحصـاد وموسـمه يقضـون فيها شطراً من الليل...)

ولن ينسـى الشـاعر أن يورد صـور المرح في المدينة، وقد وفاها حقها في القرية، فينتقل بخياله إلى المدن ذات الأبراج وما تزدحم به من أخلاط الناس وأنماطها، وفيهم زمر الفرسان وذوو البأس من البارونات، يتفق لهم في ملابس السلم نصـر عال على أسـراب الغواني، تمطر أعينهن البراقة السـحر على من يبتغون الوسـيلة إلى قلوبهن، ومن يرتقبون ما يجزين به اللباقة والفروسـية، إذ تسـعى كلتاهما جاهدة للظفر بعطف ملكة الجمال. ويسـتطرد ملتن في وصـف متع المدينة ومباهجها، فيسوق منها صـوراً متتالية كأنها صـور فلم بهيج: فثمة حفلات الأعراس وإليها يشير في مهارة بذكر (هيمن) إله الزواج في الأساطير الإغريق بملابسـه الصـفراء ومصـباحه الذي يلوح به، وثمة الولائم والسـوامر ومعالم الزينة تتخللها الغنائيات المســرحية بمشـــاهدها القديمة، كما يتخللها ما يحلم بمثله شعراء الشباب في أمسيات الصيف على ضفاف الغدران المنعزلة، يضـــاف إلى ذلك روعة التمثيل، فإما ملاهي بن جو نســـن وإما ملاهي أحلى الشعراء فناً ولحناً ابن الخيال الساحر شكسبير يتغنى فيها بألحانه البرية الحان غابات وطنه ومشاهدها.

ويعود الشـاعر في ختام قصـيدته الرائعة إلى مناجاة إلهة الفرح فيسـألها أن تحيطه بجو مليء بالأغاني الشـــعرية الجميلة التي تدرأ عن القلب الهم الذي يأكله، تلك الأغاني الرقيقة العذبة التي تتمثل في الشـعر القوى الرصـين يجمع بين جمال السـبك ومهارته، وروعة الفن وفتنته، فيبلغ من السـحر ما يحطم به ما يقيد النفس من قيود الحياة ومشاكلها فتحرمها من نشوة الموسيقى، ويبلغ من الجمال ما يوقظ به أرفيوس نفسـه، فيرفع نفسـه من غفوته الذهبية على سـريره

المتخذ من أزهار الجنة، ويســـتمع إلى تلك الألحان التي لو كان تغنى بمثلها لاستمال إليه أذن بلوتو...

تلك هي خلاصــة قصـيدته الأولى الليجرو، وشـتان بين هذه الخلاصــة في لباس النثر وفي لغة غير لغتها، وبين الأصـل في لباس الشـعر وفي بلاغة ملتن وبراعة فنه وروعة لحنه!

ويفتتح ملتن قصـــيدته (البنســـروزر) بنقيض ما افتتح به قصـــيدته الأولى فيقول: (إليك عني أيتها المسرات الخادعة، من الحماقة وحدها ولدت بغير أب. مـا اقل عودك على العقول الرزينـة، ومـا اقل مـا تبثينـه فيهـا من ألاعيبك... اسـتقرى في بعض الرؤوس الكليلة، وسـيطرى على تلك المخيلات المولعة بما لا يحصـــى عدده من الأباطيل والمظاهر البراقة، تبلغ في كثافتها وعددها ما يبلغ الهباء المعلق في أشعة الشمس)

ويناجي الشاعر الشجن ليأتي إليه، وينعته بالحكمة والقدسية، بل يغلو فيجعله أقدس ما يلحق به التقديس؛ ويصـف آلهة الشـجن بأنها أعظم سناً من أن تطيقها عيوننا، وعلى ذلك فأننا نراها مجللة بالسواد، ولكن هذا السواد لن يشينها، فما أشــبهها بمملكة أثيوبيا الجميلة التي غالبت في الأســاطير جنيات البحر فبدنهن ملاحه وأغضبهن بذلك وأساءت إليهن.

ولا يفتأ الشاعر يدعو هذه الآلهة إليه مصطحبة من يليق من رفقة، ويضفي عليها صــفات الحكمة والتؤدة والتعقل والوقار والدأب والجد، ويصــورها تنقل بصــرها من الســماء إلى الأرض متدبرة متفكرة، أما الرفقة التي تصــطحب فالسـلام والهدوء والصـوم والعزلة والتأمل والصـمت؛ ويجعل الشـاعر من هذه المعاني شخصيات فيتحدث عنها ويصفها كأنما يتحدث عن أشخاص.

ويعرض الشـاعر أنماطاً من الصـور تناسـب حالة التفكير التي يصـف أو ما سماه الشجن العاقل. وبقدر ما كان في قصيدته السالفة من مرح وجلبة وفتون، تنطوي قصـيدته الثانية على الوجوم والهدوء والسـكون. وأكثر صـوره هنا في

الليل، فهو يحب أن يمد سمعه إلى صوت الكروان، ويحب أن يمشي في سكون تحت القمر حتى يبلغ في السماء أقصى ارتفاعه؛ ويحب أن يجلس في ضوء مصباحه في هدأة الليل لا يسمع إلا صوت خفرائه، فيقرأ فلسفة أفلاطون، ويقرأ الشعر والمسرحيات والقصص الرفيع. والليل هو الوقت الذي يعشق فهو قائمه كله لا يبرح مكانه حتى الصباح كما لا يبرح الرب الأكبر من النجم أفقه، فإذا كان الصباح فليكن صباحا تكتنفه الغيوم وتتناوح فيه الرياح الهوج، ويتساقط المطر؛ وإذا ما قدر للشمس أن تبدد الغيوم بعد لأي فليتوار عن ضوئها في كوخ أو في عش منعزل بين الشجر لا تقع عليه عين، وهناك فلينم حتى ينهض وفي إذنيه موسيقى حلوة من الحان جنة الغابة. وهو يحب أحيانا أن ينقل الخطاء متأملا في فناء كاتدرائية قوطة عتيقة عالية الأقواس، توحي إلى النفس ذكرى الدين، ثم يستمع إلى الأرغن، يتصاعد في الجو لحنه فيذيبه اللحن من فرط انتشاء روحه ويستنزل كل ما في السماء حتى يراه ماثل أمام عينيه. وأخيراً فما أحب إلى نفسه أن يقضى عمره في صومعة منعزلة حيث لا يبرح يطلب الحكمة ويستزيد من المعرفة مما هو بسبب من كل ما في السماء وما في الأرض، حتى تهيئ له خبرته الطويلة حالة حالا أشبه بحالة النبوة.

وتلك هي خلاصة قصيدة الثانية، وهي من حيث الأسلوب والبيان والفن الشعري كسابقتها روعة بناء وبراعة تصوير وقوة أداء وسمو فن، كما أنها مليئة كأختها بالإشارات إلى أساطير الإغريق والرومان فلا تكاد تخلو فقرة منها من إله أو آلهة. ولا يكاد يفرغ المرء من قراءة القصيدتين حتى يتبين أنهما تصفان حياة الشاعر في عزلته بهورتون، فذلك ألاليتجرو أو الفتى الطروب هو ملتن في إحدى حالاته، وذلك البنسروزو أو الفتى المتفكر هو كذلك ملتن في حالته الأخرى، وما هاتيك الصور التي صورها في القصيدتين إلا ما كان يقع تحت بصره من حياة الريف ومباهجه وحياة المدينة ومساراتها، ثم ما كانت تحس نفسه من حب العزلة وطلب الحكمة والانكباب على الدرس، وما كان يهجس في خاطره من تطلع إلى الحالة كحالة النبوة.

أما من حيث الفن فقد بلغ ملتن في هاتين القصـيدتين ذروة الشـعر الغنائي، ولم يبلغ قبله ولا بعده من الشـعراء في لغة قومه مثل ما بلغه من السـمو فيهما. ولا تزال القصـيدتان حتى اليوم ينظر إليهما شـعراء الغناء نظرتهم إلى قمتين شـامختين تطاولان النجم، وينطق سـموها بالتحدي والأعجاز. ولا تجد في وصفهما أبدع مما ذكره ماكولي عنهما إذ يتعرض ليباين خصائص شعر ملتن، فعنده من أبرز خصـائص قدرته على أن يؤثر في نفس قارئه بما توحي ألفاظه من صـور وأخيلة وأفكار تتداعى من بعد، أكثر مما يؤثر فيها بالمعنى الذي يؤديه اللفظ، فكأنما ينتقل تأثيره إلى ذهن القارئ بهذه الصـور وبهاتك الأخلية والأفكار كما تنتقل الكهرباء إلى هدفها خلال موصـل. وكذلك من أشـهر خصائصه جزالة اللفظ وإشراقه وجمالة وعذوبة موسيقاه وهي جميعاً أظهرا ما تكون في قصيدته السالفتين. يقول ماكولي: (لن تجد هذه الخاصة أظهر فيشيء مما كتبه ملتن منها في الاليجرو والبنسروزو، ويستحيل على المرء أن يتصور أن تبلغ الصـيغة اللغوية درجة أرفع في الكمال مما بلغته فيهما. وتختلف هاتان القصـيدتان عن غيرهماكما تختلف خلاصـة العطر عن ماء الورد العادي، أو كما يختلف ذلك القدر الغالي من العطر الذي نعبه حريصـين عليه عن ذلك السائل المائع الرقيق.

وما هما في الحقيقة بقصيدتين أكثر مما هو طوائف من التلميحات، يستطيع كل امرئ أن يتخذ من كل واحدة منهما قصـيدة لنفسـه، فكل تلميح وصـف منها كافية لبناء مقطوعة)

ولم تخل القصـيدتان من هنأت يتمسك بها النقاد، ولكنها أقل من أن تسـبيهما أو تنزل بهما عن المسـتوى الفذ الذي بلغتاه وتحب أن نرجئ الكلام عن هذه الهنات حتى نفرغ عن شعره كله في بهورتون ثم ننظر فيما له وما عليه.

أشعاره في هورتون

وكانت قصـــيدة ملتن الثالثة في هورتون هي الغنائية المســـرحية أركادس، وهي في الواقع نبذة من غنائية مسـرحية فهي لا تعدو مائتي سـطر، ويمكن أن نعدها قصيدة مدح لولا هذه الصورة المسرحية التي وضعها فيها الشاعر.

نظم ملتن هذه الغنائية الصـغيرة سـنة ١٦٣٣ تكريما لسـيدة عظيمة علت بها الســـن هي كونتس ســـلســـبري؛ وقد مثلها بين يديها أحفادها وهم أبناء إيرل بردجووتر وابنته؛ ووضـع ألحانها رجل من أشـهر ملحني العصـر جميعا هو لو وكان صـديقا حميما لملتن، ما ذهب ملتن إلى لندن مرة إلا قضـى عنده سـاعات يستمتع بموسيقاه، وكان ملتن يقدره حق قدره ويعجب بألحانه إعجابه هو بشعر صـديقه الشاعر. وتبدأ المسرحية بأغنية صـغيرة مدح للكونتس يتقدم بها منشدين بين يديها أحفادها بين بنين وبنات في ملابس ريفية، ويبلغ ملتن في هذه الأغنية أعلى درجات الإجادة والإمتاع؛ فثمة ألفاظ حلوة ولحن بديع ومعان جليلة تكافئ مقام السـيدة التي يمتدحها. وبينما يتقدم المنشـدون والمنشـدات بين يدي السـيدة يظهر جني الغابة فيتجه نحوهم ويوجه إليهم الحديث ممتدحا السـيدة في شـعر من النسـق العالي بالغ الروعة والسـحر؛ ويختتم الجني حديثه بأغنيتين إحداهما موجهـة إليهم، والأخرى موجهـة للقرويين والرعـاة جميعـا، وفيهـا يثني الجني على السيدة ويتغنى بمجدها وأنعمها.

وفي سـنة ١٦٣٤ نظم ملتن قصـيدته الرابعة في هورتون فقد طلب لو إلى صـديقه الشـاعر نظم غنائية مسـرحية أخرى لتكريم إيرل بردجووتر بمناسـبة ولايته المنصـب الرفيع الذي كان قد رقي إليه منذ ثلاث سـنوات وهو منصـب الرئيس اللورد لمجلس مقاطعة ويلز وذهابه ليقيم في قلعة لادلو. ولقد أقيمت الحفلات للورد في جهات كثيرة وبالغ عشـيرته وأصـدقاؤه في تكريمه، ومن هؤلاء لو الملحن النابغة، وكان لو أسـتاذ الموسـيقى لابني اللورد وابنته، ولم

يقتصـر على تلحين الأغاني في هذه الغنائية المسـرحية، بل أشـترك كذلك في تمثيلها...

وكانت أليس ابنة اللورد وهي فتاة ناهد في نحو الخامسة عشرة من عمرها، وأخواها وهما دونها في العمر أهم الشخصيات في تمثيل هذه الغنائية.

تخيل الشـاعر سـيدة تاهت في مسـالك الغابة وأحراشـها وهي في طريقها وأخويها إلى قلعة أبيها، وظلت تبحث عبثا عن أخويها وظلا يبحثان عنها في غير جدوى، وتمثل لها كومسي الجني الشهواني الساحر في زي أحد القرويين، وتظاهر أنه يهديها السـبيل، ثم إذا هو غوى مبين أخذ يحتال عليها ويراودها عن نفسها فاستعصمت، ولكنه دأب في غوايته حتى حضر أخواها فتغلبا على كومسـي وقبيله إلا أنهما ألفيا أختهما لا تسـتطيع التحرك بما صـنع بها سـحر كومسي فأخذتهما الحيرة، ولم يخرجهما من ورطتها إلا سابرينا إحدى العذارى الخرافية التي أبطلت سحر كومسي وهي من خلق ملتن؛ وتنطلق الفتاة وأخواها بعد ذلك إلى القلعة، وكان يحمي الفتاة ويعصـمها من الزلل من البداية حتى النهاية من عالم الأرواح روح سـاهر عليها يتنكر في زي أحد الرعاة، وكان لهذا الروح فضـل عظيم في القضـاء على كومسـي، وبعد انتصـاره انطلق إلى عالمه الذي هبط منه.

هذا هو موضـوع الغنائية، ولقد تأثر ملتن في بناء هذا الموضـوع على هذه الصـورة بما قر في خاطره من قراءاته المتنوعة الواسـعة، فالشـبه عظيم بين غنائيته في بنائها وبين (قصة الزوجات العجائز) لبيل، وملخص هذه القصة أن سيدة حملت من تسالي إلى برتين بسحر ساحر لعين يسمى ساكربنت تعلم من أمه ميرو وهي ساحرة شهيرة كيف يغير صور الناس، وتبقى السيدة في برتين مسحورة عن نفسها تنسى ذاتها كما تنسى أصدقاؤها، ويبحث عنها اخوتها فيرد عليهم صدى يتبعونه حتى يقعوا في يد ساكر بنت فيسحرهم ويسخرهم في أداء أعمال حقيرة. وينجي السـيدة حبيبها بعد ذلك وقد اطلع على سـر سـاكر بنت

على يد عفريت رجل فقير كان قد صاحبه. ويموت الساحر ولكن تبقى السيدة مسحورة ولن يفك السحر عنها حتى يحطم وعاء زجاجي له بيد أنثى لا هي عذراء ولا زوجة ولا أرملة، وينطفئ بتحطيمه ضوء كان يلقيه، وبعد لأي توجد الأنثى المطلوبة فيحطم الوعاء وينطفئ الضوء، وتنطلق السيدة المسحورة وغيرها من فرائس الساحر...

وثمة شبه كذلك بين غنائية ملتن ومسرحية جون فلتشر (الراعية الوفية) وهي مسرحية ريفية كتبها صاحبها سنة ١٦١٠ وأعاد نشرها سنة ١٦٣٤ وهي السنة التي كتب فيها ملتن غنائيته. ومن هذه المسرحية أخذ ملتن فكرة انتصار العفة في النهاية كما أخذ فكرة الروح الحارس الذي يحمي العذراء. ففي المسرحية سيدة كانت عفتها في خطر لولا هذا الروح الحامي. وفي مسرحية فلتشر يبزر إله النهر فينجي العذراء كما تنجى سابرينا عذراء غنائية ملتن. ويستعمل في كومسي نبات لشفاء الجروح كما يستعمل نبات غيره في الراعية الوفية، وفوق ذلك تنطوي غنائية ملتن على فقرات لها أشباه في المعنى والفكرة في مسرحية فلتشر.

أما شخصية كومسي الذي سميت باسمه الغنائية، فهي من ابتكار ملتن فقد جعل لكومسي أبوين من المثولوجيا، فأما أبوه فهو باخوس إله الخمر، وأما أمه فهي سيرس الساحرة التي كانت تحيل من يشرب سائلا لها إلى حيوان، وعلى ذلك فقد جمع كومسي بين المرح والعربدة ورثهما عن أبيه، وبين السحر ورثه عن أمه، وامتاز كومسي عن أمه بأنه لا يحيل أشكال الناس إلى حيوانات فحسب، ولكنه يغير عقولهم حسبما يشاء فيوحي إليهم ما في نفسه من شهوة وفسوق.

وتعج غنائية ملتن بتلميحات مأخوذة كلها من ميثولوجيا الإغريق والرومان، كما أن فيها ألفاظا وعبارات وصفات تشبه نظائرها في شعر من سبقه من شعراء قومه، وعلى الأخص سبنسر وشكسبير.

أما فلسفة ملتن في الغنائية، فمشتقة من فلسفة أفلاطون وآرائه في الفضيلة. وقد تعمق ملتن دراسة هذه الفلسفة وأحبها حبا شديدا، إذ صادفت هوى في نفسه، وقد كانت نفسه حريصة على العفة كوسيلة إلى السمو الروحي والبياني.

ولكن على الرغم من هذا كله نجد الغنائية في جملتها وعليها طابع ملتن، فهي ملتنية الروح واللفظ والأسلوب والموسيقى والفلسفة، وفيها سمات عبقريته وشواهد قوته، بحيث لا يمكن ردها إلا إليه كما ترد آثار فحول الشعراء إليهم بمجرد سماعها، ولو لم يذكر أول الأمر أنها لهم، ففي إماراتها وخصائصها وروحها ما يشير إليهم إشارة تغني عن ذكر الاسم، وتلك ميزة هي مقياس فحولته، إذ لولاها لكان كغيره من سائر الناس، ومن هؤلاء الفحول الأفذاذ (ملتن) صاحب هذه الغنائية يومئذ وصاحب الآية الكبرى يوم يملي الفردوس المفقود...

مثلت أليس ابنة اللورد السيدة التي ضلت في الغابة، ومثل أخواها دور الأخوين، أما الملحن (لو) فقد أخذ دور الروح الحارس، ومثل أحد الشبان دور كومسي، كما مثلت إحدى الفتيات دور سابرينا، وهؤلاء هم أشخاص الغنائية جميعا، فهي كما ترى نوع من المسرحيات القليلة الحوادث والأشخاص تعني بالموسيقى والشعر وتقوم فيها الأرواح والأشباح إلى جانب الناس.

تبدأ الغنائية بمنظر يمثل غابة وحشية، ثم يظهر على المسرح أو يهبط عليه الروح الحارس، فيتكلم في شعر رقيق بليغ عن موطنه ورهطه في عالم السماوات، ويشير إلى دنيا الناس وما فيها من آثام بقوله: (هذه البقعة المظلمة التي يسميها الناس الأرض) وينعى على الناس حياتهم المضطربة وغفلتهم عما تهيئه لهم الفضيلة بعد ارتحالهم من عالم الفناء، ولكنه يغتبط بأن بين الناس قلة يطمحون إلى وضع أيديهم على ذلك المفتاح الذهبي الذي يفتح لهم قصر الخلود؛ ولهذه القلة مهبطه ومن أجلها رسالته، ثم يشير إلى اللورد بأنه من أنصاف الآلهة الذين يحكمون في الجزر مستمدين سلطانهم من نبتيون إله

الماء، ويمتدح خصـاله ويتحدث عن أبنيه وبنته وعن مسـيرهم في الغابة، وأنه أرسل من قبل جوف كبير الآلهة ليحميهم في ظلمات الغابة، ومم يحميهم؟ هكذا يتساءل ليسترعي الأسماع، ثم يقول: إنه سوف يقص ما لم يرد مثله في شعر ولا في قصص، في كوخ كان ذلك أو في قصر. ثم يذكر في إثر ذلك كومسي ومولده وما ورثه عن أبيه وعن أمه، وما هو في مقدوره من السحر، فيصور للأذهان صورة عجيبة حقا، ويشوقها إلى ما عسى أن يقع على يد كومسي، ولكن جوف يكف شره عمن يرعاهم من الناس، ولذلك أرسل هذا الروح في مثل لمحة النجم ليحمي هؤلاء المدلجين، فليتنكر في زي شخص يعرفونه، وليكن هذا الشخص هو أستاذ الموسيقى، وهنا يثني الروح أعظم الثناء على فنه ووفائه؛ ثم يرهف سمعه ويقول: إنه يسمع خطوات بغيضة تقترب، فعليه أن يختفي؛ وبهذه الوسيلة يعبر ملتن عما يريد أن يقول عن اللورد وعن صديقه الموسيقي على لسان ذلك الروح في فيض من الشعر المرسل الرصين الرائع الذي يملك الأنفس عذوبة جرس وحلاوة معنى، والخيال الساحر البارع الذي يذهل السامعين عن أنفسهم وعن عالمهم برهة.

ويظهر كومسي في المنظر الثاني وفي إحدى يديه عصاه السحرية وفي الأخرى زجاجته، وفي إثره يمشي قبيلة تمثل رؤوسهم أنماطا من الوحوش، ولكن أجسامهم آدمية، ومنهم الذكور ومنهم الإناث، ويلبسون جميعا ملابس براقة، ويقبلون في زياط وجلبة يتواثبون ويتراقصون وفي أيديهم المشاعل، وتسكن ضوضاؤهم بعد برهة، ويتكلم كومسي وقد سكتوا، فيصف مولد الليل، ويجري الشاعر على لسانه وصفا رائعا لمغرب الشمس في شعر مقفى جميل اللحن، فالنجم الذي يوحي إلى الرعاة موعد العودة بقطعانهم يتخذ سمته في السماء، ومحفة النهار الذهبية تبرد في ماء الأطلنطي، والشمس على الأفق الغربي تطلق آخر شعاع لها صوب القبة قد تغشاها الطفل، ثم تهبط متخذة طريقها إلى غرفتها الشرقية في الجهة الأخرى...

ويدعو كومسي قبيلة بعد هذا الوصف إلى اللعب واللهو تحت أستار الظلام، ويصف ما عسى أن يجري في الليل من صور المرح، ويشير إلى الناس وكيف يغطون في نومهم ومعهم مواعظهم ونظراتهم وحكمهم فهم من الطين؛ ولكن كومســـي وقبيلة من النار فهم لذلك أكثر خفة وانطلاقا، والليل كفيل أن يغطي لهوهم ولعبهم، وما دام الصـبح الذي يكشـف نوره العيوب لا يزال بعيدا، فهلم إلى اللهو والزياط والمجون؛ ويدعو كومســـي أتباعه أن يمســـك كل منهم بيد صـاحبه ثم ليضـربوا الأرض بأقدامهم راقصـين... ويأخذ هؤلاء في رقصـهم لاهين عابثين، ولكن كومسـي لا يلبث أن يدعوهم إلى السـكون ثم الاختفاء فانه يسمع أقداما قريبة وينبئه سحره أنها عذراء ضلت في متاهات الغابة، ويتحدث فرحا عما يعده لها من السـحر ويصـف كيف يحتال عليها وكيف يتنكر لها في زي فلاح تأخر به سعيه من أجل عيشـه عن العودة إلى كنه حتى هذه السـاعة، ثم يعلن إلى قبيلة أنه سوف يسمع ماذا تقول العذراء.

وتتقدم السـيدة فتظهر على المسـرح، وتحدث نفسـها قائلة إنها سـمعت لتوها جلبة وأصـــوات مرح وغناء ومزمارا كمزامير الرعاة والفلاحين، وتقول إنها توجس خيفة من عبث هؤلاء وتوقحهم، ولكن ماذا عســـاها تصـــنع، وإلى أي طريق في متاهات الغابة تلوي وجهها عما تحذر؛ وتذكر أخويها قائلة بأنهما تركاها لتستريح وقد بلغ بها الجهد وذهبا ليحضـرا لها شيئا يمسك صـلبها من ثمار الغابة وما تظن أنهما قد ضـلا، وقد سـرقهما الظلام منها. ثم تلتفت حولها وتقول إنها تظن أن هذا هو المكان الذي كان ينبعث منه الغناء والمرح، ولكنها لا تجد إلا الظلام وحده، وتهجس في نفســها المخاوف فكأنها تســمع أصــوات رجال ينادونها وترى أشــباحا تهتف بها وتتخيل ألســنة هوائية تنطلق بأســماء رجال، وهذه أشــياء كفيلة بأن تلقى الخوف في النفوس ولكنها لا تزعزع عقلا يستمسك بالفضيلة ويمشي أينما اتجه في حمى حارس قوي هو الضمير، وتلوذ السـيدة بالأيمان ذي العين البريئة وبالأمل ذي اليد البيضـاء، وبالعفة الملك ذي

الجناحين الذهبيين الذي لا يقهر، وتعوذ بهؤلاء أن يدرؤوا الأذى عن حياتها وعن شرفها.

ثم تغني العذراء أنشودة جميلة توجهها إلى اكو تسألها عن أخويها قائلة (إيه يا اكو الحلوة يا أجمل عذراء، أنت يا من تعيشين خافية في قوقعتك الهوائية. يا من يطيب لك أغنية البلبل الحزينة يرفعها إليك متواجدا في لياليه على ضـــفة ميندر الخضــراء وفي واديه الموشــي بالبنفســج؛ أيتها العذراء ألا تدليني على اثنين جميلين أشــبه ما يكونان بفتاك نرجس؟ أو إذا كنت أخفيتهما في كهف من كهوف الزهر فدليني عليهما يا ملكة الرجع ويا ابنة قبة الســماء، ولئن فعلت لأدعون لك أن تبلغي الســماوات فتكوني هناك الصــدى الجميل الرشــيق لكل ألحان الجنة).

وما إن تتم العذراء أغنيتها حتى يبدو كومس، وقد طرب لهذه الأغنية وعجب كيف ينبعث مثل هذا اللحن من صدر أحد بني الفناء، وما يذكر أنه سمع لحنا مثله حتى ولا ذلك الذي كانت تغنيه أمه مع عذارى البحر فتسحر الملاحين به عن أنفسهم، وتغرق سفنهم؛ ويتقدم الساحر من الفتاة فيسألها من تكون فما يمكن أن يكون مثلها ممن ينتمون إلى هذه الغابة إلا أن تكون هي إلهتها، فهي تقيم فيها مع بان إله الرعاة أو سلفان إله الغاب، وترد الفتاة عليه وقد تمثل لها راعياً عليه سيماء الورع والهدوء قائلة إنها ما غنت فخورة بلحنها، إنما تستميل (إكو) علها ترد عليها من مخبئها. ويسألها الراعي ماذا أضلها، فتجيب بأنه الظلام وهذه المتاهات الملتفة الأوراق؛ فيستنبئها أكان تركها بسبب عدم الوفاء أم بسبب الجفاء؟ فتقول إنما كان ذلك ليبحثا في الوادي عن نبع سائغ برود. ويعجب الراعي كيف يتركانها على ضعفها؛ وليس معها من يحميها، فتجيب أنهما أزمعا أن يعودا على عجل؛ ويقول ربما كان العائق الظلام، فتجيب بقولها ما أسهل الحدس عليها وهي فيما هي فيه من تعس؛ ويسألها الراعي أيكون فقدهما أهم عندها مما هي فيه من حاجة إلى معين، فتنبئه أنهما أخواها، ويستفهمها أوصافهما، فما تجيبه حتى يقول إنه رأى اثنين كما وصفت عند تل قريب، وأنه أكبرهما أن يكونا من بني الإنسان وحسبهما من تلك الخلائق السماوية التي تعيش في ألوان قوس الغمام وتلعب فوق السحب المشتبك بعضها ببعض، وقد أخذه خوف منهما فصلى إذ مر بهما، فأن كان هذان من تبحث عنهما فأن رحلة أشبه بالارتحال إلى السموات تصل بها إليهما.

وتسأله الفتاة عن أقرب السبل إلى ذلك فيقول إنه يقع صوب الغرب من أجمة أشار إليها؛ وتبدي الفتاة خوفها وقلة حيلتها، فأن التنقل في الغابة فيما يرسله النجم من ضوء قليل أمر يشق على أمهر هداة السبيل. ويعرض الراعي عليها أن يهديها أو أن يسير بها إلى كوخ متواضع ولكنه أمين؛ وتقبل الفتاة ما يعرض قائلة إن الرفق الذي يبديه إنما يوجد في الأكواخ المسقوفة بتلك الأخشاب المسودة بالدخان أكثر مما يوجد في الأبهاء المزدانة من قصور

الأمراء؛ ثم تتجه إلى السماء مستعيذة، وتسترد بصرها ملتفتة إلى الراعي قائلة : دونك أيها الراعي فاهدني السبيل...

ويظهر على المســـرح بعد ذلك الأخوان فيناجي أكبرهما القمر والنجوم مستعيذاً بنورها، أو متلهفاً إن لم تجبه الكواكب إلى بصيص من الضوء ينبعث من كوخ. ويقول الآخر إنه يرهف سمعه عله يصيب صوت قطيع ينبعث من حظيرة أو زمارة راع أو صياح ديك بعد ساعات الليل؛ ثم يعلن أسفه على أخته العذراء الضعيفة ويتساءل ترى أين أنت يا أختاه! ربما كنت مستلقية على ضفة باردة رطبة أو مسندة جسمك الواهن من الحزن والخوف إلى جذع خشن، وقد نال منك الجوع والحر. ويعود أكبر الأخوين فيدعو أخاه إلى الهدوء والصـــبر، ويقول له إنه لا يخلق بالمرء أن يقدر السوء وأن يستعجل بالشر، وأنه لا يظن أن الخطر أحدق بأخته فمثلها من لا يزلزل هدوءها الظلام والســـكون لأنها معتصـــمة بالفضـــيلة. ويســـترســـل الأخ الأكبر في امتداح العزلة، ويذكر كيف تريش الحكمة فيها جناحيها بالتأمل، ويقول إن من يحمل بين جنبيه نفساً مضيئة يســـتمتع بالنور وإن كان في قاع الظلمة، وإن من ينطوي على نفس مظلمة وأفكار سوء فإنه يكون في مثل حلكة الليل، وإن مشى في شمس الظهيرة فهو من نفسه في جب. ويلوح أن ملتن يشير هنا على لسان المتكلم إلى عزلته هو في هورتون وطلبه الحكمة والمعرفة لتستضيء بهما نفسه.

ويرد أصغر الأخوين بقوله إن الزاهد لا يمسه في عزلته أحد ولا يطمع في توافهه أحد، ولا يريد رأسه الأشيب أحد بسوء، ولكن أحرى بالجمال وهو أشبه بشـــجرة التفاح الذهبي أن يقوم على حراســـته تنين. وكيف يطمئن قلبك على عذراء لا حول لها تخبط في ظلام الغابة؟ إنك إذن كمن يلقي بكنز بخيل لدى باب أحد اللصوص ثم يطمئن على سلامته. وما أخشى على أختنا من الظلام والوحشة وإنما أخشى مما يجرانه عليها من اعتداء وقاح تطمعه وحدتها.

ويعود أكبرهما فيذكر لأخيه أنه لا يتكلم عن سلامة أختهما كلام الواثق، ولكنه إن وجد نفسه بين الخوف والأمل فإنه يفضل أن يميل إلى الأمل. ثم يقول أن أخته ليست كما يتصور أخوه لا حول لها قط، فإن لديها قوة خفية لا يتذكرها أخوه، ويسأله أخوه متعجباً ما تلك القوة إلا إذا كان يقصد قوة الله، فيجيب إنه يقصد قوة الله إلى جانب قوة أخرى وهبها الله إياها فصارت قوتها هي، ويعني بها العفة. ثم يستطرد قائلاً العفة يا أخي العفة، ويقرر أن من تتدرع بها لا تخاف شيئاً ولن يستطيع أن يلطخ طهرها أحد. ويسأل أخاه أيؤمن بهذا الذي يقول؟ فإن كان لا يؤمن به فإنه يعيد على سمعه ما ذكره الأقدمون من الإغريق عن قوة العفة، وذكره بقصة ديانا آلهة القمر والصيد وقوسها وسهامها وعفتها التي هابها الآلهة والملوك.

ثم يذكر مينرفا آلهة الحكمة، وما كانت منيرفا تحول إلى مثل الحجارة الباردة إلا بنظراتها الناطقة بقوة العفة، ويسترسل في قوله فيذكر أن النفس إذا اعتنقت العفة في إخلاص، أحيطت بألف من الملائكة يدرؤون عنها كل ما هو بسبب من الذنب والخطيئة، ويصلونها بالسماء فتسمع ما لا تسمع غيرها من الآذان. وفي هذا الموضع من الغنائية يطنب (ملتن) على لسان أحد الأخوين في بيان فضل العفة كما امتدح من قبل العزلة وطلب الحكمة.

ويطرق سمع الأخوين صوت فينصتان ويقدران أنه إما أن يكون صوت ضال مثلهما أو صوت لص يدعو منسره؛ ويسأل الله أصغرهما لأختهما السلامة والنجاة، ويتأهب أكبرهما للدفاع، ويستنجد السماء له ولأخيه...

ويظهر عقب ذلك الروح الحارس في زي أحد الرعاة فيظنه الأخوان راعياً يعرفانه من رعاة أبيهما، ويسألانه ما خطبه، وهل فقد من غنمه شيئاً، فهو يبحث عنه، ويجيبهما أن الأمر أخطر مما يظنان، ثم يسأل عن أختهما فينبآنه أنهما تركاها قليلاً وعادا فلم يجداها، فيطلعهما على مخاوفه وهواجسه، فيسألانه أن يفصح فيقص عليهما ما علمه عن كومس وقبيله وما برع فيه من

السحر، ويصف ما يبعثون في الغابة من جلبة وضوضاء، ثم يقول: قد سمعت أغنيه حلوة يرتفع بها صوت رقيق ملؤه الخشوع يسري فوق متن الهواء كما تسري نفحات العطر المقطر صوت بات الصمت ذاته حياله كالمأخوذ عن نفسه حتى لقد ودّ لو أنكر ذاتيته ذهب إلى غير عودة إذا كان صوت كهذا يحل محله... وأرهفت أذني أستمع فتبينت أنه صوت سيدتي أختكما الحبيبة، فمضيت لتوي صوب الصوت ولكني ألفيت ذلك الساحر اللعين قد أدركها قبل أن أصل وظهر لها في لباس قروي وهي تسأله عن اثنين تاها في ظلمات الغابة فاستخلصت أنها تسأل عنكما فخففت أبحث في الغابة حتى لقيتكما هنا، ولست أعلم ماذا كان من أمر الفتاة بعد ذلك.

ويجزع أصغر الأخوين مشفقاً على أخته؛ أما أكبرهما فيظل على يقينه وثقته في الفضيلة والاعتصام بها، فقد تهاجم الفضيلة ولكنها لا تغلب، وتباغتها القوة الظالمة ولكنها لا تزعزعها؛ وأن ما يريده السوء من خطر جسيم يصبح إذاً امتحنت به الفضيلة أعظم دواعي الفخر. ولا بد من أن يرتد الشر فينطوي على نفسه فهو من نفسه ينبت ثم إنه يأكل نفسه. ويعلن الفتى عزمه على مقاتلة ذلك الساحر حتى يرد ما اقتنص وهو صاغر أو يجره من ذوائبه إلى ميتة كريهة فيذهب لعيناً كما لعنت حياته؛ ولكن الروح الحارس أو الراعي يرد عليه بأن شجاعته هذه وإن كان يكبرها لن تجدي عنه شيئاً فذلك الساحر قادر على أن يشل بسحره مفاصله ويتلف كل عضلة في جسمه؛ ويتعجب الفتى ويسأله كيف تجرؤ إذن على أن يدنو من الساحر كما فعل؟ فيظهره الراعي على سر، وذلك أن صبياً من الرعاة دله على نبات يكشف السحر ويأمن به من غوائل السحرة ويفرح بذلك الإخوان، ويعتزمان لقاء الساحر وكسر زجاجته وقهره.

ويتغير المنظر على المسرح، فإذا جانب من قصر عظيم يتبدى للأعين وقد صفت فيه الموائد المغطاة بالأقمشة الموشاة، وزخر بأنماط الزينة وترقرق فيه لحن موسيقى هادئ. وتجلس العذراء على كرسي مسحور، ويظهر كومس

وقبيله فيمد إليها يده بكأس، فتأخذها ولكنها تضـــعها جانبا وتهم بالوقوف، فيأمرها الساحر أن تجلس، فإنه إن هز عصاه أحالها إلى تمثال من المرمر أو صنع بها كما صنع أبولو بدافني؛ وترد العذراء عليه مغضبة بقولها لا تفخر أيها الأحمق، إنك إن استطعت أن تسيطر بسحرك على جسمي فلن تنال من حرية عقلي بكل ما أوتيت من السحر.

ويترفق الســـاحر في قوله، ويحاول إغراءها بأن تشـــرب من كأســـه وألا تغضـــب، وأن تنفي عن نفســـها الهم، ففي ذلك القصـــر لا يعرف الحزن؛ وهذا الشراب الذي تحتويه الكأس يملأ النفس حبوراً وقوة وشباباً. ولن يبلغ مبلغه في هذا السبيل ذلك الشراب الذي أعطته في مصر زوجة ثون لهيلينا ابنة جوف؛ وما أحوج العذراء إليه كما يحتاج كل امرئ إلى ما ينعشه بعد النصب ويريحه بعد العناء، وقد مســـها التعب والجوع، وهذا الشـــراب يدرأ عنها ذلك جميعاً، وتصيح به الفتاة : إنه لن يفعل أيها الكذوب الخائن، وإنه لن يرد إلى لسانك ما نفيته عنه بكذبك من الصدق والأمانة. أهذا هو الكوخ الأمين الذي حدثتني عنه؟ وما هذه الأشباح المنكرة التي أرى؟ هذه الشياطين القبيحة الرؤوس! يا رحمة الله احرسيني... اذهب عني بسحرك أيها الساحر البغيض، لو كان ما تقدمه لي كأســاً من شــراب جونو الذي تشــربه إذ تطعم على مائدتها ما تناولته من يدك الخائنة؛ إنه لن يعطي الطيبات من الأشياء إلا الطيبون، ولن تسيغ الخبيث نفس عاقلة تضبطها الحكمة.

ويعلن كومس عجبه من حماقة بني الإنســان وتصــديقهم كلام الفلاســفة في القناعة والزهد؛ ولم تخرج الطبيعة إذاً كنوزها وثمارها وزينتها إن لم يك ذلك لتدخل بها الســـرور على الأنفس المتطلعة إلى كل معجب جميل، وما غناء الحرير والذهب الذي يعبده الناس جميعا وغيرهما من الجواهر؟ إن الإنسان إذا قنع بالتافه من الطعام والشـــراب والخشـــن من الثياب لم يعرف أنعم الله ولم يشـــكره؛ وأين تذهب تلك الأنعم إذا تراكمت بعضـــها فوق بعض لزهد الناس

فيها؟ ويهيب الساحر بالعذراء ألا تخدع نفسها بتلك الكلمة الجوفاء ألا وهي العفاف؛ فإن الجمال لا يكنز وإنما يجب أن تتناوله الأيدي؛ وإذا تصرمت الأيام ذوى كما تذوي الورد في عودها. والجمال فخار الطبيعة، ولذلك يجب أن يعلن في القصور والولائم وعظيم الحفلات حيث يتدبر الناس في عجيب صنعه؛ ويختم الساحر كلامه بأن يدعو الفتاة إلى التفكر فيما يقول فهي في زمن الشباب...

وترد عليه العذراء قائلة : ما تصورت من قبل أن تنفرج شفتاي بالكلام في جو كريه كهذا الجو، ولكن ما الحيلة وهذا الساحر يدلس على الرأي ويظن أنه قادر على أن يسحر فكري كما سحر عيني فيأتي بكلام زائف يلبسه لباس العقل؛ وإني لأكره أن تتمكن الرذيلة من أن تدلي بحججها ولا يكون للفضيلة لسان يصد تبجحها. أيها المخادع لا تتهم الطبيعة البريئة كما لو كانت تريد أن تبث في قلوب بنيها الزهو والخيلاء بما تفيض عليهم من كنوزها. إنها ما تخرج خيراتها إلا للطيبين الذين يعيشون وفق قوانينها الحكيمة، ويسيرون حسب ما يقتضيه الاعتدال. ولئن أتيح لكل رجل ممن أضنتهم الفاقة قدر بسيط لائق به مما جعلته الأبهة والترف ركاماً بعضها فوق بعض في أيد قليلة، فإن أنعم الطبيعة بذلك توزع في عدالة، وعندئذ فلا تتلف في خزائنها، وعلى ذلك يكون شكر المتفضل المنعم قد أدته كل نفس. ألا أن النهم لا يتجه إلى السماء ومن حوله ما تمتلئ به مائدته الفخمة، ولكنه يضيف إلى تهمه كفرانه بالنعمة، ذلك الكفران الدنيء الغبي فيمتلئ ويخوض في حق طاعمه. أأزيدك من قولي أم كفاك ما قلت؟ إنه لا يسعني إلا أن أقول شيئاً أرد به على ذلك الذي يجرؤ أن يسلح لسانه البذيء بكلمات حقيرة يوجهها ضد تلك القوة المتشحة بأشعة الشمس، قوة العفة ولكن ما غناء ذلك؟ إنك لا أذن لك ولا قلب حتى تفهم ذلك الرأي السامي وذلك السر العلوي اللذين ينبغي النطق بهما ليتكشف لك الخطير العاقل ألا وهو مبدأ العفاف، ومثلك من لا يستحق أن يعرف من السعادة أكثر مما هو فيه فأهنأ بلباقتك الحبيبة إليك وفصاحتك المرحة التي مرنت على

لجاجها الخادع. وإنك لأصـــغر عندي من أن ترى نفســـك وقد لزمتك الحجة. ولئن تكلمت فإن ما لهذه القضية الطاهرة من أحقية في الكلام لا تقاوم جدير أن يشـعل جوانب نفسـي حماسـة بحيث يتحرك بالعطف على كل أصـم من الجماد وتهتز الأرض الجافية فإذا بصـرح سـحرك الذي امتد عالياً صـوب السـماء ينقض كومات فوق رأسك الزائف.

ويحدث كومس نفســـه قائلاً: إن لكلامها لوقعاً، وإني لأحس أن كلماتها إنما تمليها عليها قوة عليا ومع أنني لســـت من بني الفناء، فإن رعشـــة باردة تهز كياني كله كما بعث جوف الرعد إذ غضـــب فألقى بأبيه ســـاتورن في العالم السفلي، وكما تثير السلاسل المهتزة من رعد في آذان ملاحي ساتورن، ومع ذلك فيجب على أن أتغافل عما أجس وأعود إلى محاولتي معها وأنا أكثر مما كنت قوة، ثم يتجه إلى العذراء قائلاً حســبك هذا فإنه مما تلغون به في الحديث عن الخلق، وإنه ليخالف قوانيننا وقواعدنا، ولســـت أطيق منه أكثر مما فعلت، وما هو إلا مظهر نفس غاضـبة، ولكن هذه الكأس تشـفي ذلك كله سـريعاً. إن رشـــفة واحدة منها تغرق النفس المكتئبة في فيض من الســـرور تقصـــر دونه مباهج الأحلام فارجعي إلى صوابك واشربي...

ويندفع أخواها وقد شـهر كل منهما سـيفه، ويضـرب أحدهما زجاجة فيلقيها من يده فتتحطم فوق الأرض، ويهم أتباعه بالمقاومة ولكن الأخوين يدفعانهم بسيفيهما، وعندئذ يدخل الروح الحارس...

ويهرب كومس وقبيله، ويحسب الأخوان أنهما غلباه على أمره، ولكن الروح الحارس يلقي إليهما أن أختهما لا تزال مقيدة بسحر كومس لا تستطيع حراكاً كأنها التمثال الحجري، فكان عليهما أن يختطفا عصاه، فإنه لا يبطل سحره إلا إذا قرأ ما على العصا قراءة عكسية تبتدئ من النهاية. على أن الروح يخبرهما بأن لديه حيلة فليس لهما أن يبتئسا، أما حيلته فهي أنه سيستنجد بسابرينيا عذراء نهر السفرن، ويصف لهما سابرينيا ومستقرها بين عذارى الماء، وكيف أتيح لها أن تكون من نبات الخلود، ويذكر ما في طاقتها من عون لطالبي العون حتى أن الرعاة لينشدون لها الأغاني ويلقون في النهر زهرات من كل لون تحية لها، وهي تحب أن تنجد العذارى مثلها إذا كن في مثل ما كانت فيه من ضيق وشدة، وأعظم ما ينهض بها إلى النجدة الغناء، ولذلك فإنه يستحثها بأغنية، ثم يهتف منشداً متوسلاً إلى سابرينيا بكل عزيز عندها من الآلهة والإلهات فلا يكاد يخلوا سطر من نشيده من اسم من أسماء هؤلاء.

وتظهر سابرينيا وحولها بعض عذارى الماء، فتغني أغنية قصيرة تصف فيها من أين أتت وكيف أقبلت سريعة خفيفة حتى إنها لتطأ الزهر فلا تنحني سوقه، وتعلن إلى الراعي أنها رهن طلبه، ويشير الراعي إلى الفتاة المسحورة ويؤكد عذرتها ويذكر ما عانت من السحر، وتجيب سابرينيا أنه ليس أحب إليها من أن تأخذ بيد العفة المضطهدة، وتتجه إلى الفتاة وتلقي على صدرها نقطاً من سائل معها وعلى شفتيها وطرف إصبعها فتبطل سحر كومس.

وما تكاد تنطلق حتى تنهض الفتاة كأن لم يكن بها شيء. ويبتهج الروح الحارس أو الراعي فيثني على سابرينيا ويدعو لها من قلبه بكل جميل، وينبئ الفتاة أنه سيصحبها إلى قصر أبيها حيث يلتقي المهنئون من الأصدقاء، ويطرب الرعاة والقرويون، وسيضاعف حضورها طربهم، ويزيد الحاضرين جميعاً فرحاً على فرح.

ويتغير المنظر على المســـرح، فتمثل مدينـة لادلو وقلعـة الرئيس اللورد، ويتقدم على المسـرح رهط من الراقصـات القرويات وفي إثرهن الراعي ومعه الأخوان وأختهما، ويخاطب الراعي القرويات ويســألهن في أغنية قصــيرة أن يذهبن، ويتمنى لهن عودة إلى ســرور كهذا الســرور، ثم يقدم الأخت وأخويها إلى أبيها في أغنية أخرى مثنياً على شباب الفتيين، وعلى عفة الفتاة، وانتصـار الجميع على الحماقة والنزق.

ويختم الراعي المســـرحية بأغنية طويلة، فيذكر إلى أين يذهب بعد أن أتم عمله، ويصـف مواطن الحبور والجمال التي ينطلق إليها وصفاً يعيد إلى الذهن قصيدة الأليجرو، وما تفيض به من صور المرح وتلميحات الميثولوجيا.

ويعلن الراعي أن من يريد أن يلحق به من بني الفناء فســبيله الفضـــيلة، فالفضـــيلة وحدها هي التي تعلم النفس كيف تســـمو وكيف تنطلق، ولئن مس الفضيلة الضعف فلها من السماء عون.

تلك هي خلاصـــة الغنائية المســـرحية، وهي تتضـــمن كثيراً من آراء ملتن وفلسفته، فكل شخصية في الغنائية تعبر عما يريد ملتن من معان، وتصـف في الواقع ناحية أو موقفاً من مواقف حياته، فالعذراء تستمسك بالعفة كما استمسك هو بها، وتواجه الإغراء الشـــديد وتقاومه كما واجه وقاوم، وأكبر الأخوين يمتدح الفضـــيلة ويدافع عنها ويؤمن بها كما يفعل ملتن وكما يحس، وكومس نفسـه نراه في وصـف الطبيعة وصـلتها بالنفس عن طريق ما تحدثه مشـاهدها ومسـراتها من أثر في الحواس يعبر عن جانب من إحسـاس الشـاعر الشـاب، وأصـغر الأخوين يفصـح بكلامه عن وسـاوس الشـك التي تطوف أحياناً بنفس ملتن على الرغم من استعفافه وزهده وعزلته والتي يتغلب عليها بالصـبر وقوة العزيمة فيحس لذة النصر.

أما عن فلسـفته في الغنائية، فأســاســها الصــراع بين العفة تمثلها العذراء، والشـــهوة يمثلها كومس، ومهما يكن من إغراء الشـــهوات وتحايلها فإن الغلبة

للفضـــيلة؛ ولن تعدم الفضـــيلة عوناً من الله، ويتجلى هذا العون في الروح الحارس الذي دل الأخوين على طريق الخلاص.

ولملتن نظرة في الطبيعة وصـــلة النفس بها، فهو لا يحرم طيباتها وزينتها، ولكنه كذلك لا يذهب في الاســـتمتاع بها مذهب كومس، فيجعل الأمر فيها أمر لذة وفجور واغتنام ونهب في غير مبالاة كما تفعل البهيمة. وعنده أن تأخذ النفس من طيبات الحياة كما تقضـــي الحكمة، ومقومات الحكمة عنده الاعتدال والقناعة والعفة، وعلاقة المرء بالحياة والطبيعة على هذه الصـــورة طريق من طرق السمو الروحي بالنفس الإنسانية إلى معارج الكمال ومسالك الهداية

وينم كلام كومس في امتداح الطبيعة عن نزوع نفس ملتن إلى الطبيعة وجمالها وقوة إحساسه بمباهجها وزينتها؛ ويتضح هذا الميل القوي في ذلك المعنى البديع الذي نطق به كومس، ألا وهو قوله: إن الإنسان بزهده في جمال الحياة ومتعها لا يؤدي حق الشكر للمنعم ولا حق الثناء عليه. وما يخاف ملتن إلا شيئاً واحداً هو الفتنة، ولكن إذا اعتصمت النفس بالفضيلة تمتعت بأنعم الله ونجت من الزلل، فالطبيعة مما أنعم الله به علينا، وأنعم الله خير كلها، والغرائز والميول الطبيعة كذلك خير واتباعها تنفيذ لمشـــيئة الخالق، وهو لذلك يحب الطبيعة من ناحيتين: أولاهما: ما تظهره من جمالها الذي يبهج النفوس؛ وثانيهما: ما تخرجه من كنوز خيراتها وما تبثه في الكون من نماء وتجديد واتساع وكل أولئك من مقومات الحياة

وكذلك ينم كلام أكبر الأخوين عن الفضـــيلة كما ينم كلام العذراء عن العفة والعذرية، عن ميل كان في نفس ملتن أثناء مقامة في هورتن، فقد كان يميل إلى البقاء عزباً حتى يتفرغ لرسالته، وأراد أن يستعفف حتى لا يزل، فتولدت في نفسه فكرة، وهي أن الشهوة أصل الفسوق كله والفجور والرجس؛ وعلى ذلك فلا بد من تغليب العقل على العاطفة، أو الروح على الجسد، وهذا الصراع بين العفة أو الطهر وبين الشهوة يتضمن بالضرورة قيام وساوس الشهوة في

نفســه، شــأنه في ذلك شــأن كل فتى مثله، ومرد الشــهوة إلى العاطفة، ومرد الرغبة في قهرها إلى الحكمة، وما دام أنه يحس العاطفة في نفســه إحســاســاً قوياً، وأنها أمر طبيعي، فهي إذا لم تخرج في مظاهرها أو نتائجها عما تقضــي به الحكمة كانت أمراً مشــروعاً لا نكران له، ومن ذلك نشــأت في رأســه فكرة سوف تظهر في كثير من آثاره، وهي العمل على وجود التوافق والانسجام بين القلب والعقل

وثمة شيء آخر نستخلصه من الغنائية، وهو صفة شائعة في بقية شعرة في هورتون، ونعنى بها روحه الإنسانية وتتضح في شدة إحساسه وصدق استجابته لمعاني الحياة، وشعوره بكل ما يشعر به القلب الإنساني من دواعي الفرح أو الحزن أو الراحة أو الألم، وكل ما يهجس في النفوس من رغبات وينهض بها من مطامح؛ وفي هذا كله أبلغ دليل على أن ملتن لم يكن الشــاعر المتزمت كما عسى أن يفهم من تمسكه بالفضيلة، كما فيه خير مصداق لقول القائل: (إن ملتن كان خاتمة الأليزابيثيين)

ليسيداس:

كانت ليسـيداس آخر قصـيدة نظمها الشــاعر في هورتون، وكانت في رثاء صــديق له هو إدوارد كنج أحد زملائه في كمبردج وكان شــاعراً له قدره، وقد غرق هذا الصــديق ســنه ١٦٣٧ أثناء رحلته من شــســتر إلى أيرلندة، وأعد أصــحابه في كمبردج عدداً من المراثي انتظمها كتاب صــغير، وكان من بينها مرثية ملتن!

بدأ ملتن مرثيته بإشــارة إلى بعض الأزهار التي يوحي ذكرها الشــعر قائلاً إنه يعود ليقتطفها مبتسرة لم تتفتح، وهو يرمي بذلك إلى أنه يعود مرة ثانية إلى الشــعر قبل أن يتم اســتعداده كما يجب، فإن حادثاً جللاً يعز عليه معه أن يظل صــامتاً، وذلك هو موت ليسـيداس، وكان ليسـيداس اسـماً اصـطلاحياً على أي

راع من الرعاة، وقد شـبه ملتن صـديقه بالراعي تلميحاً إلى الشـعر الغنائي ونشأته على ألسنة الرعاة...

ويتساءل الشاعر: منذا الذي لا يغني لليسيداس وهو الذي عرف كيف يغني وكيف يطرب؟ فلا أقل إذ من أغنية دامعة على هذا الراحل العزيز!

ثم يستحث ملتن ربات الشعر اللائي يقمن في سفح الأولمب عند البئر المقدسة، حيث موطن (جوف) وسألهن العون، فقد كان ليسيداس قرينه، كانا راعيين معاً على تل واحد يطعمان غنماتهما ويسقيانها من نبع واحد ويأويان بها إلى ذل واحد ويغينان لها بزمارة واحدة... ويستطرد في وصف حياتهما معاً وما يحيط بهما من مظاهر الجمال والاستمتاع على صورة أشبه بما جاء في قصيدته الإليجرو، وهو إنما يقصد حياة الشعر وجمال دنياه!

وينتقل بعد ذلك انتقاله حزينة بذكر ما حدث من موت ليسيداس فيذكرنا بقصيدته البنسروزو؛ فسوف يقع نبأ فقده في أنفس الرعاة أو الشعراء كما تقع الحشرات والصقيع على الزهر والحشائش النضرة.

ثم يسأل الشاعر عذارى الماء أين كنا حينا أطبقت اللجة على ليسيداس الذي أحببن؟ ولكن ماذا يجدي هذا الحلم وما عسى أن يصنعن لو أنهن كنا حاضرات...

ويتساءل الشاعر بعد ذلك في فقرة حزينة تعد من أبلغ ما كتب عن جدوى الشعر ومعاناة قرضه إذا كان مصير الشاعر إلى مثل هذا الفناء المباغت؛ أليس أجدى على المرء أن يرتع ويلعب؟ إن الصيت والرغبة في المجد هما اللذان يحفزان الأنفس النبيلة فتحتقر اللعب وتقبل على المتاعب، ولكن القدر المباغت يذهب بهذا كله. وإنما يشير ملتن في هذه الفقرة إلى ما يخشى على نفسه كما يشير إلى ما حدث لصاحبه، ثم يستدرك قائلاً إن أبولو يرد عليه مذكراً إياه ان المرء يفنى ولكن المجد والصيت لا يلحق بهما الفناء، وكأنه بذلك يعزي نفسه...

ويعتذر الشـــاعر عن نبتيون إله البحر بفقرة جميلة رائعة الخيال ويبرئه من إغراق ليسـيداس ويعود باللائمة على الحظ العاثر، ثم يلمح إلى جامعة كمبردج ويذكر مبلغ حزنها على ابنها الذي فقدته.

ويبتعد الشاعر عن جو المرثية الذي جعله كله ريفياً فيحشر في آله الإغريق التي يلمح إليه (لود) كبير الأسـاقفة يومئذ ويشـتد في الحملة عليه وعلى شـيعته ويرميهم بالجهل، ويأتي في حملته عليهم بجمله قوية فيصفهم بأنهم (تلك الأفواه العمياء) ويقصـد بالأفواه الهم والجشـع والإقبال على الدنيا، والابتعاد عن الحياة الروحية. وأمل العمى فهو عمى بصـائرهم وموت أرواحهم. وتفسر هذه الحملة على لود في هذا المقام بأن صاحبه إدوارد كنج كان يكره كبير الأساقفة وشيعته كما كان يكرهه ملتن لجمودهم واســـتبدادهم، وطالما قرأ ملتن وصـــديقه كنج الفلسـفة معاً وعلوم الدين فكأنما يكره الشـاعر إذ يرثي صـديقه أن يموت ذلك الصديق ويعيش لود وأتباعه.

ويعود ملتن إلى جوه القروي، جو الرعاة والشعر، فينادي الوديان والشطآن أن ترسـل زهرها من كل لون وفي مآقيه دموع الندى ليوضـع هذا الزهر حيث يوسد ليسيداس.

ويدعو الشـاعر الرعاة أن يمسـكوا عن البكاء فما مات ليسـيداس وإن طواه اليم، فهو كالشمس كوكب النهار، تغرق في ماء المحيط، ثم ما هي إلا سـاعات وترفع جبهتها الوضـاءة من اليم فيكون ألا صباح، وسيرفع ليسيداس جبهته في عالم النعيم الدائم؛ حيث يتلقه القديسـون والصـالحون، وهو منذ اليوم جني الماء يتلمس الخير عنده كل من يرد الشط.

وتعد هذه المرثية من أجمل المراثي في اللغة الإنجليزية إن لم تكن أجملها وأعظمها جميعاً. وهي في غير تحفظ أجمل مرثية في صـــديق في تاريخ تلك اللغة. أما من حيث قوة الشـــعر فيها فقد بلغ ملتن هنا ما لم يبلغه في غيرها من السمو والقوة، حتى لتعد نموذجاً لشعره إذ يكتمل، وللشعر الإنجليزي في أرفع

درجاته، ولروح الشعر على الإطلاق في أي لغة وفي أي مناسبة، إذ يكون له من السحر والروعة ما يكون للأثر الفني الخالد المعجز.

هذه القصائد الخمس هي كل ما نظم ملتن أثناء مقامه في هورتون، وهي كما أسلفنا القول كفيلة أن تحل ملتن بين الصفوة من شعراء الغناء، كما أنها كيله وحدها لو لم يكن له غيرها أن تجعل منه شاعراً فذاً مرموق المكانة، بيد أنها على الرغم من ذلك لم تخل كما قلنا من هفوات.

تزدحم قصيدتاه الأليجر والبنسروزو بتلميحاته الميثولوجية ازدحاماً يكاد يحس معه المرء أن شعر ملتن هنا غلبت فيه الصنعة على الفن، وأنه يميل إلى إظهار معرفته بالإغريقية واللاتينية أكثر مما يعنى بفنه. وكذلك تعد عليه في هاتين القصيدتين هفوات عند وصفه الطبيعة تدل على أنه أحياناً ينقل عما يقرأ أكثر مما ينقل عما يرى، فهو يشير مثلاً إلى زهرات في زمان غير زمانها يجعل لها لوناً غير لونها، كما أنه يصف أوراق شجرة من الأشجار بما هو بعيد عن طبيعتها. ويؤخذ عليه في قصيدة الأليجرو وأنه أغفل أمر الحب كصورة من صور المرح، وإغفال صورة كهذه تعد من أقوى صوره أمر معيب وبخاصة إذا كان مرده إلى مبالغة ملتن في الحرص على العفة، فلا يصح أن يتعمد شاعر إهمال هذه الناحية الإنسانية القوية تشيعاً منه لنزعة من نزعات الفكر، فإن ذلك لا يتفق مع صدق الفن وصراحته.

أما مسرحيته الغنائية كومس فإننا وإن صرفنا النظر عن ضعف بنائها كمسرحية غنائية نجدها لا تخلو من مآخذ، وأهمها هذه الطريقة الوعظية التي لجأ إليها ملتن، أو هذه النزعة التعليمية التي جعلته يطنب في إرسال آرائه على ألسنة المتحدثين في المسرحية بصورة كادت تبعث على الملل في كثير من المواقف. وحسبك أن يتناقش الإخوان في مائة وستين سطراً فيما إذا كانت الفضيلة تعصم أختهما من الخطر، وأن يطيل الروح الحارس حبل الكلام فيستنفد وحده مائة وسبعين سطراً قبل أن تتخذ أية خطوة لإنقاذها، مما يبعد

المســـرحة عن روح المســـرح وما تتطلبه من حركة وفعل، ومما يجعل المرء يحس أن مواقفها متكلفة لمجرد التعبير عن أفكار الشاعر. ويأتي بعد ذلك عيب آخر وهو مبالغة أكبر الأخوين في ثقته بالفضيلة، الأمر الذي يضعف في النفس اللهفة على الفتاة وقد تاهت في ظلمات الغابة. ومثل ذلك العيب إغراء كومس الفتاة، فإن إغراءه لم يزد على كونه بعض الآراء الفلســفية الجامدة مع إشــارة إلى سحر ذلك الشراب، ولو أنه كان حواراً قصيراً تعرض فيه جوانب الرأي لكان أوقع في النفس وأدنى إلى روح الدراما، وأبلغ في الإغراء وفي امتحان عفتها من ذلك الكلام الشـــبيه بلغة المدارس أو أســـلوب المقالات. والحق أن الغنائية كلها مواقف وأشــخاصــاً إن هي إلا وسـيلة أراد بها ملتن أن يعبر عن أفكاره، فلو أننا قارنا بينها وبين الدراما المسرحية لرأينا كأنما ظهر الملقن على المسرح في هذه الغنائية، وأخذ يلقن كل شخصية ما تقول...

أما من حيث فلســـفته الغنائية، فقد خلط ملتن بين العفة وبين العذرة، والعفة إذا انتهت إلى الزواج أمكن الجمع بين مباهج الحياة وجمال الطبيعة والحكمة المطلوبة، ولكن أن تظل الفتاة عذراء أبداً أو يظل الفتى عزباً أبداً دون أن يقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ثم يحاول مع هذا الزهد الصارم أو هذا الحرمان أن يأخذ بقســـط من جمال الحياة وثمرات الطبيعة فهذا ما يصـــعب تصــوره. ومرد هذا الاضــطراب إلى تذبذب الشــاعر بين الطبيعة وفرط حبه إياها حباً تجلى فيما قاله على لسان كومس وبين حرصه على قواعد الخلق التي ألتزمها منذ صـغره، والتي هي أقرب الأشـياء إلى طبيعة البيوريتانية التي كان يميل إليها. ولعل تمسكه يومئذ بأن يظل عزباً ليتفرغ لرسـالته مع شـغف نفسـه بالجمال وإحساسه بالحياة كان له أثره في هذا التناقض الذي أضعف فلسفته.

وكذلك يؤخذ على ملتن أنه لم يرنا كيف تكون العفة ســـبيلاً إلى قوة خفية سماوية، فهذه مسألة ظلت مبهمة، ولهذا ضعف وقعها في النفس.

ومما يلفت النظر في الغنائية أن كومس في محاولته إغراء الفتاة قد ســـخر من العفة في ذاتها وعدها كلمة جوفاء، كما أنه أغراها بالطبيعة ومفاتنها وطيباتها، فلما أرادت أن ترد كان ردها موجهاً إلى محاجته في الطبيعة، أما ســـخر به فلم ترد عليه إلا بامتداح العفة فحســـب، كقولها إنها القوة المتشـــحة بأشعة الشمس، وكان أولى أن تبين أثر العفة في تطهير النفوس لتستبين قوتها، ولقد بدا ملتن هنا في أضـــعف مواقفه في الغنائي، حتى لكأنه لا يدري ماذا يقول.

هذه هي المآخذ التي توجه إلى شـــعر ملتن في هورتون، ومهما يُقل فيها، فهي أقل من أن تذهب بشيء من قيمة هذا الشعر الذي بلغ الذروة الفنية، والذي قل أن يقع المرء على نظيره في اللغة الإنجليزية كلها روعة أداء، وعذوبة موسيقى، وإشراق لفظ، وسمو معنى، مما يجعله مزيجاً فذاً من جمال العصر الأليزابيثي ومن ثقافة ملتن، مزيجاً طبعه بطابع الفحولة، حتى بات بين ما أنتجت الدنيا من شعر في قديمها وحديثها وله مقام معلوم.

رحلة إلى إيطاليا

قضى ملتن نحو ستة أعوام في هورتون بين كتبه وأوراقه، وهي في الحق عزلة طويلة ما كان ليطيقها لولا عزم مصمم ورغبة قوية في الاستزادة من المعرفة والتأهب لعظيمة في دنيا الشعر.

بيد أن القلق أخذ يساوره والسأم يهجس على قلبه في نهاية العام الخامس من مقامه في القرية أي سنة ١٦٣٧ قبيل نظمه مرثيته الرائعة ليسيداس، نتبين ذلك مما كتبه إلى صاحبه ديوداتي في سبتمبر من تلك السنة، وكان ديوداتي قد صار يومئذ طبيباً تشغله مهنته فعتب عليه ملتن عتباً عنيفاً أن لم يف بوعده في زيارته وكانت لهجة الكتاب غاضبة شاكية تنم عن حال من الضجر والسأم من طول مصاحبة الكتب والابتعاد عن الدنيا إلى هذا المضطرب الضيق المحدود في القرية.

والحق إن هذه العزلة وإن أجدت على الشاعر كثيراً من الثقافة والاطلاع لم تخل من بعض الآثار السيئة، فقد زادت من ذهابه بنفسه واعتداده برأيه ووثوقه من ارتفاع مستواه من غيره، وإلى ذلك يعزى إلى حد ما صرامته في الجدل فيما كتب بعد وتعاليه على مخالفيه في الرأي وعنفه في الخصومة، وغياب ما عرفه خلانه في مجالسته من عذوبة روحه ورقة حاشيته وطلاوة حديثه.

وكانت قد ماتت أمه في أبريل من هذه السنة، وبموتها ازداد قلقه وازداد ميله إلى الرحيل عن هورتون، وأصبح يحس أن مقامه فيها قد أشرف على النهاية، فقد كان يجد في ابتسامة أمه له وحدبها عليه وثقتها في مستقبله وفرحها بطموحه عزاء له وبهجة لروحه في هذه العزلة القاسية، أما أبوه فقد جاوز السبعين وهجر ألحانه وقراءاته، ورغبت نفسه عن الحديث في الأدب والفن إلا قليلاً، ولهذا لم يعد ابنه يجد عنده ما كان يجده من قبل من بشاشة وإقبال إذا

كان يفضـــي أليه بآماله ويحدثه عما يقع عليه من مطالعاته من رأي ســـديد أو تعبير بليغ أو نادرة حلوة.

ورد عليه ديوداتي يتمنى له راحة البال وهدوء الحال، وســـأله عما هو فيه. وكتب إليه ملتن كتاباً لم يك فيه ما كان في سـابقه من الضـجر، ما ذلك إلا لأنه قد عقد العزم على أن يرحل. وكان يفكر أول الأمر في الإقامة في أحد فنادق لندن، وفي هذا الكتاب أجاب ملتن إذ يرد على تساؤل صديقه بتلك العبارة التي أسلفنا الإشارة إليها ألا وهي تهيؤه لعمل يسلكه في الخالدين.

وصـــح عزمه في ربيع ســنة ١٦٣٨ على الرحيل إلى إيطاليا لتكون رحلته فيها متعة لنفســـه وثقافة لعقله، فما إن تزال الثقافة هي حافزاً إلى كل ما يعمل من عمل، كأنما يضن بوقته أن يكون فيه قسط للراحة أو للمتعة الخالصة.

ولم يبخل الموثق الشـــيخ على ابنه بالمال اللازم له ولخادم يتبعه فأمده بثلاثمائة وخمســـين من الجنيهات وكانت تســـاوي يومئذ نحو ألف مما نتداوله اليوم، وحمد ملتن لأبيه ســـخاءه، وكان يتوجس خيفة منه حين هم بطلب ذلك المال، وكان حرياً أن يخاف، فهو قد بلغ الثلاثين من عمره ولما يزل في رأي أبيه عاطلاً لم ينهض بعمل مما كان يحبه له، وكأنما لم يكفه ذلك فجاء يطلب من أبيه مالاً ليستمتع بالرحيل إلى إيطاليا!

والحق إنها يد للموثق الشـيخ تضـاف إلى سـالف أياديه على ابنه، ولم ينس الابن أنه تركه لما كان فيه من الشـعر، إذ آنس منه وهو بعد غلام أنه يحب أن يجعل من نفســـه هوميروس آخر وكان أبوه يحب أن يكون منه كلفن ثان، ولم ينس أنه قبل ولو على كره انصـــرافه عن الوظيفة مدنية كانت أو دينية، وأنه وافق على مقامه في هورتون ليتفرغ للدرس والاطلاع وهو خريج الجامعة؛ لم ينس الشاعر الشاب شيئاً من هذا ولذلك فهو مغتبط بسماحة أبيه ونور بصيرته، ومرد ذلك فيما يرى الشـــاعر إلى ما تذوقه أبوه من نعمة الثقافة، وما فتح عليه عينيه من نور المعرفة.

وكانت إيطاليا يومئذ منتجع خواطر الرجال والشـــباب من كل أمة على اختلاف ثقافاتهم وميولهم، فكانت تجتذبهم إليها اجتذاباً، وكان لا يحس المرء بكامل ثقافته إلا إذا زار معالمها أو معالم النهضـــة في أنحائها، وكان بها لكل عقل متعة، يجد فيها ضالته رجل الفن ومحب البحث في الآثار القديمة والعاكف على دراســة التاريخ والمولع بالمعمار، والمفتتن بمشــاهد الطبيعة والمشــتغل بالفلســفة والعلم، ولا عجب ففي إيطاليا ازدهرت الحضـــارة الرومانية، وفيها أشرقت شمس النهضة الأوربية منها انبعثت أشعتها، وهي مهد أوفيد وفرجيل، وموطن دانتي وبتراك وتاســـو ورفائيل وميكائيل أنجلو وجاليليو، وكانت في النصف الأول من القرن السابع عشر حين رحل إليها ملتن كسوق انقضت إلا قليلاً، فلا يزال بها من سحر النهضة وجمال مواكبها بقية.

وكان أمر طبيعياً أن ينجذب ملتن إلى إيطاليا وهو ابن النهضـــة بدراســته وروحه وفنه، وما يزال يتجه بخياله وعقله إلى الربيع الأليزابيثي الراحل وكان موكباً من مواكب النهضة وإن له في مشاهد إيطاليا وفي لقاء شعرائها ورجال الفن والذوق فيها وإن كانوا ظلالاً لمن مضـــى من الأفذاذ، لمتعة يطرب لها قلبه، وتأنس بها روحه.

وكان لملتن أكثر من عدة إلى إيطاليا، فإلى جانب ما أمده به أبوه من مال، كان له باللغة الإيطالية علم كاف، وبتاريخ إيطاليا معرفة وثيقة، كما أنه حصل على كتاب توصـــية به من بعض ذوي الحيثية، وكان من بين تلك الكتب كتاب من سير هنري وتون وقد قضى سير هنري سنين من عمره في إيطاليا، وله فيها أصدقاء من ذوي المكانة

ونصح سير هنري لملتن فيما نصح له به أن يتجنب المناقشات الدينية، وأن يكون حريصاً في هذا ما وسعه الحرص؛ وكان سير هنري خبيراً بما عسى أن يجلب على المرء المتاعب في إيطاليا، كما أنه كان يلمس من تحمس ملتن

لرأيه ومن شـدة كراهته لبابوية روما وقسـاوسـتها ما جعله يكرر النصـح في إلحاح وشدة

وصـل ملتن إلى باريس في أبريل أو مايو سـنة ١٦٣٨، وهناك لقيه السـفير الإنجليزي بالترحاب والحفاوة وقدمه إلى جروشْيَسْ وكان جروشيس يعيش منذ بضع سنين في كنف ملك فرنسا لويس الثالث عشر، وكان رجلاً مشهور المقام في الأدب والفلسـفة والسـياسـة والبحث الديني، وكان قد حكم عليه في بلاده بالسجن مدى الحياة بسبب آرائه الدينية التي خالف بها مذهب كلفن في القضاء المحتوم، وفر بمسـاعي زوجته إلى فرنسـا، حيث طاب له المقام، وأظهر جروشيس الحفاوة بملتن وأبدله المودة وأثنى عليه، وذكر له ما سمعه عن نباهة شأنه في الشعر

وفي يوليو بلغ ملتن فلورنسـة عن طريق نيس وجنوة، وأقام الشـاعر في فلورنسة شهرين، وقد أحب ملتن فلورنسة وأهلها حباً قوياً، وكانت تمتاز يومئذ بجماعاتها الأدبية، وكان بها من تلك الجماعات سـت شـهيرة، وكانوا يسـمونها الأكاديميات، وشـتان بينها وبين الأكاديميات الحديثة ذات القوانين المحددة والأصـول المرعية في البحث والدرس، وإنما كانت هي منتديات يلتقي فيها ذوو الثقافة فيتناقشـون فيما يعرض لهم من المسـائل في جلسـات ترفع فيها من بينهم الكلفة وتزداد الألفة؛ وقد تنقل ملتن بين هذه الجماعات وكان يقابل فيها جميعاً الحفاوة والمردة، وأصـغى ملتن وتكلم في تلك المنتديات، وكان هو ومضـيفوه ينتقلون من حديث إلى حديث حيثما تتشـعب طرق الكلام، فتناولوا الأدب والعلم والفلسفة والرقابة على المطبوعات والسياسة والدين؛ وتكلم ملتن عن عقيدته الدينية كما تعرض لعقيدتهم، وأصـغوا إليه في دماثة وهدوء، ووافقوه على كثير مما يقول، بل إنهم ذهبوا إلى أكثر من ذلك فشـكوا إليه وقد وثقوا منه ما يعانون من اسـتبداد الكنيسـة وطغيانها، الأمر الذي يمقتونه أشـد المقت؛ وقد جاء فيما كتبه ملتن عن تلك الزيارة ١٦٤٤ قوله: (جلسـت بين

المثقفين من رجالهم، وقد عدوني سعيداً أن ولدت في إنجلترا بلد الحرية الفلسفية كما تصورها يومئذ، في حين أنهم لم يترك لهم شيء إلا أن يئن المثقفون منهم مما يلاقونه من عنت وشدة، وإلى ذلك يعزى ما أحاط بأولى الألمعية من الإيطاليين من ظلمة، وإليه يعزى أنه لم يكتب طوال هذه السنين الكثيرة في إيطاليا إلا الملق والادعاء!)

وكان مما اعتاده أعضاء هذه الأندية أن يلقى كل واحد منهم ما يبرهن به على ذكائه وسعة اطلاعه، واستمع ملتن إلى كثير مما ألقي أمامه بالإيطالية، وجاء دوره فتلا في إحدى هذه الجماعات عن ظهر الغيب بعض قصائده اللاتينية التي نظمها في أول شبابه، وبعض قصائد أخرى نادرة وقع عليها أثناء مطالعاته، كما أنه ألقى عليهم بعض ما نظم بالإيطالية، وقد طربوا كثيراً لهذه القصائد الأخيرة وبالغوا في امتداحها، وعبورا عن شعورهم نحو صاحبها بمدائح لاتينية ذكر ملتن أنها (مما يضن به الإيطاليون على من يقطنون في هذا الجانب من الألب).

وبلغ من فرط سروره بهذه المدائح أنه اعتزم أن تكون معظم أشعاره في المستقبل باللاتينية ليذيع صيته في القارة، ولكنه ما لبث أن ترك هذه الفكرة بعد أن عاد إلى وطنه؛ على أنه لم ينس تلك المدائح التي اختصه بها أهل فلورنسة فنشرها في مقدمة ما نشر من أشعاره اللاتينية سنة ١٦٤٥، ولعله أراد بنشرها أن يطلع الحاقدين عليها من بني وطنه على ما لقيه من ثناء وحفاوة بين الإيطاليين، فقد أثنى الإيطاليون فيها على ذكائه وعلمه وحذقه اللغات، وجماله وفصاحته وما يتصف به من فضائل، وطول باعه في الفلك والفلسفة والتاريخ وبالغ أحدهم وهو السنيور فرانسيني فراح يؤكد لملتن في قصيدته أنه ما من سر مهما بلغ من عمقه تخبئه الطبيعة في السماء أو في الأرض إلا وهو على علم وثيق به، وأنه قد بلغ حد اكتمال الفضيلة وأن ألحانه الحلوة ترفعه إلى السماء.

واتخذ ملتن طريقه إلى روما فقضـــى فيها شـــهرين؛ وهناك طاف بأبنيتها وآثارها القديمة وتعرف إلى كثير من ذوي النباهة والمكانة، وقوبل بالحفاوة فيها كما قوبل في فلورنسة، وإن كانت حماسة أهل روما لم تصل إلى حماسة أهل فلورنسة، ولم يتبع ملتن في روما ما نصح له به سير هنري، فأخذ يتكلم في حماسة وصراحة عن مذهبه البروتستنتي ورأيه في الإصلاح الديني، ولعل ذلك هو السبب في فتور حماسة أهل روما نحوه، بل إن بعضهم انصرف عن الحفاوة به حينما نما إليهم ما يقول في الدين، وما كان ملتن بالرجل الذي يستطيع أن يخفي في نفسه رأيا يؤمن بصوابه، وما كان ليخاف عنتاً أو أذى في ســـبيل عقيدته، ومن أبرز خلاله منذ صـــغره الجهر بما يعتقد لأنه يرى أن الكتمان نوع من المذلة إذا كان الباعث عليه الخوف. وهكذا أخذ في المدينة البابا نفسه يتكلم في طلاقة وجرأة لا يهمه كيف يقع كلامه في نفوس سامعيه، ولا يخيفه أقل خوف ما عسى أن يكون من موقف السلطات حياله؛ أشار إلى ذلك فيما كتب فقال (لم يكن من دأبي أن أثير المناقشات الدينية فيما أغشاه من الجماعات، ولكني كنت إذا ســـئلت عن عقيدتي لا أخفي شـــيئاً مهما يكن ما أتعرض له من ألم... لم أخف عن أي سائل يسألني أي مذهب أعتنق مهما كان هذا الســـائل؛ وكنت إذا هاجم أي شـــخص في المدينة البابا العقيدة الأصـــلية لا أتردد في الدفاع عنها بكل طلاقة)

وتعرف ملتن إلى رجل ألماني الجنس هو لشتنيس، وكان يقوم على شؤون مكتبة الفاتيكان، وكانت له مكانة عظيمة في نفوس الكثيرين من عظماء القساوسة، وقد أراد أن يظهر للشاعر الإنجليزي عرفانه لجميل أهل إنجلترا معه حين كان يطلب العلم في اكســـفورد وقد قدمه هذا الألماني إلى الكاردينال العظيم فرنسسكو باربريني، وكان الكاردينال يومئذ هو كل شيء في روما، وأقيم للشاعر حفل موسيقي في قصر باربريني وهناك استمع ملتن إلى المغنية الشهيرة ليونارة باروني فأعجب بها إعجاباً شديداً عبر عنه في قصائد ثلاثة لاتينية قصيرة أهداها إلى المغنية العظيمة.

ولو كان رجل آخر مكان ملتن لأثرت فيه أمثال هذه الحفاوات وبخاصـــة ما جاء منها من قبل رجال الدين، ولتخفف من صـــراحته وحدته في الكلام عن عقيدته الدينية وركن إليهم شيئا قليلاً، ولكنه لم يدع لمثل هذه الأمور سبيلا إلى التأثير في رأيه فلم يتحول عنه قيد شعرة الأمر الذي جعل البعض يصدون عنه بعد إقبال، وجعل الجزويت ينكرون أقواله ومسلكه إنكاراً شديداً.

ولم تك تلك القصـــائد الثلاث كل ما أوحته إيطاليا إلى ملتن، فبين قصـــائده اللاتينية خمس غيرها وجهها الشاعر إلى سيدة إيطالية لم يذكر اسمها سحرته (بسمو حركتها وبحاجبها الأسود الذي يلقي في النفوس الحب).

وتوجه ملتن بعد ذلك إلى نابلي، وهناك زار رجلا كان لزيارته إياه أجمل وقع في نفســه وذلك هو مانســو العظيم ماركيز فيلا، وكان مانســو في الثامنة والسبعين من عمره، ومرد عظمته إلى أنه كان راعي الأدب والفن مدة جيلين، آوى في أولهما الشاعر تاسو وفي ثانيهما ماريني؟ وهاهو ذا يلقى شاعراً ثالثاً ســوف يكون أعظم خطراً في تاريخ الأدب العالمي من ذينك الشـــاعرين، وقد رحب به مانسو واستطاع على الرغم من شيخوخته أن يطوف به على الأماكن التي وصـفها حين كتب حياة تاسـو، وأحب ملتن هذا الشـيخ فامتدحه بقصـيدة جميلة ذكر فيها أنه يود لو كان له راع مثل مانسو راعي الشعراء؟ ليعنى بدفنه إذ يموت، ويقيم له تمثالا من المرمر يتوج الغر هامته، وقد أشـار ملتن في هذه القصـــيدة إلى ما يعتزم في دنيا الشـــعر كما أثنى على موطنه إنجلترا وعلى مكانتها في الشـعر والأدب؛ وأهدى إليه مانسـو كأسـين منقوشـين وعبارة جاء فيها (لو أن دينك كان مثل عقلك وهيكلك ورشـــاقتك ووجهك ومزاجك ما كنت بريتانيا فقط بل كان مقامك بين الملائكة).

واعتذر إليه مانســو لأنه لا يســتطيع بســبب عقيدته الدينية أن يظهر له من الحفاوة به ما يستحق مخافة الرقباء في المدينة، وعاد ملتن إلى روما فلبث فيها شــهرين آخرين ثم ذهب مرة ثانية إلى فلورنســة، وفي هذه المرة اســتطاع أن

يزور العالم العظيم جاليليو وكان نزيل السجن في المرة الأولى؛ بسبب آرائه في الفلك وخالفته بها رأي الكنيسة، وزاره ملتن في بيته على مقربة فلورنسه بعد أن حصل على إذن من السلطات، وكم تأثر الشاعر لمرأى هذا العالم الشيخ فقد كف بصره وأحيط بالرقابة الشديدة وبدا محطم الهيكل شديد الضعف، على أنه كان لا يزال محتفظا بقواه العقلية، ولو اطلع ملتن على الغيب ساعتئذ لرأى نفسه صورة شبيهة بصورة جاليليو في ضعفه وفقد بصره ومعاناته الآلام من أجل عقيدته...

وسافر ملتن بعد ذلك إلى البندقية ومنها أرسل إلى وطنه ما اشترى من كتب ومخطوطات وكان بينها صندوقان لكتب الموسيقى، ومن البندقية اتجه إلى جنيف ليعود منها إلى موطنه، وكان يجب أن تطول رحلته أكثر من هذا، ولكن ما ترامى إليه من أنباء وطنه جعله يؤثر العودة، عبر عن ذلك في قوله (رأيت أن ما يلحق بي الشين أن أرتحل طلباً للمتعة في الخارج بينما يعاني بنو وطني الآلام من أجل الحرية في بلادي).

هذه هي رحلة ملتن إلى إيطاليا ولسنا نجد لما شهده من المدن والآثار صوراً في شعره اللهم إلا ما وصف به روما في الفردوس المستعاد، وهي صورة ليست بذات أهمية كان يستطيع مثلها لو لم يسافر؛ كذلك لم يظهر ملتن أثر لاستمتاع بلهو الحياة، بل إنه أشهد الله وهو في جنيف في طريقه إلى موطنه أنه لم يأت شيئا في رحلته تخجل منه الفضيلة.

بين الطغيان والحرية

لم يقف ملتن بمعزل عن حوادث العصر الذي عاش فيه، السياسية ومنها الدينية، فدخل في غمارها ورمى بنفسه في بركانها وأصابه ما أصابه من نارها، وكاد يحيط بعنقه حبل المشنقة. وما كان لنفس مثل نفسه تعشق الحرية وقد فطرت عليها أن تهاب الضرر أو الموت فتنكل عن الوقوف في وجه الطغيان، وهذا ركن من أهم أركان شخصيته كرجل وكشاعر. لهذا كان لا بد من فصل يجلو حوادث ذلك العصر لننظر بعده على أي صورة كانت صلته بتلك الحوادث وإلى أي مدى أثرت فيه وأثر فيها.

انتهى بموت إليزابيث عام ١٦٠٣ حكم أسرة تيودور، وبدأ حكم أسرة ستيوارت في شخص جيمس الأول، وقد ولد ملتن بعد خمس سنوات من اعتلاء هذا الملك عرش انجلترة، وظل جيمس يحكم حتى وفاته سنة ١٩٣٥ وهي السنة التي التحق فيها ملتن بالجامعة، وخلف جيمس على العرش ابنه شارل الأول، وظل شارل يقود سفينة الملك وسط الأنواء الشديد التي انتهت بريح عاتية هي الثورة أو الحرب الأهلية، واختتمت هذه الثورة بإعدام شارل بتهمة الخيانة سنة ١٦٤٩، أي بعد عشر سنوات من عودة ملتن من إيطاليا. وحكم البلاد بعد شارل القائد الحربي للثورة أوليفر كرمويل أحد كبراء البيوريتانز وسمى حامي الجمهورية، وظل يحكمها حتى وفاته سنة ١٦٥٨. وخلفه ابنه فحكم البلاد سنة واحدة، ثم عزل لضعفه وأعيدت الملكية في شخص شارل الثاني سنة ١٦٦٠.

وكانت تلك السنوات السبع والخمسون مليئة بالأحداث، وهي من أهم السنوات لا في تاريخ إنجلترة فحسب؛ بل في تاريخ الحكم النيابي والحرية في العالم كله، إذ كانت صراعا متصلا بين الطغيان تمثله الملكية وبين الحرية

يمثلها البرلمان؛ وكان هذا الصراع حول مسألتين: المسألة السياسية والمسألة الدينية.

ظهرت المسألة السياسية في صورة نظرية أول الأمر، وذلك حينما أعلن جيمس الأول تمسكه بالحق الإلهي للملوك، أو نظرية التفويض من قبل الله. وقد أنكر البرلمان عليه هذا الزعم كما أنكره طالبو الحرية من غير رجل البرلمان. ثم اتخذت المسألة وضعا عمليا حين وقع الخلاف بين الملك والبرلمان على أمور معينة، إذ حاول كل أن يبرر مسلكه حسبما يذهب إليه من رأي في التمسك بنظرية التفويض الإلهي أو في إنكارها والتمسك بالحقوق التي اكتسبها الشعب منذ منتصف القرن الثالث عشر.

كان يقصد بالحق الإلهي للملوك في القرن السادس عشر معنى خاصا، وذلك أن الدولة سواء أكان يرأسها ملك أم أمير لها حق البقاء، وافقت الكنيسة على ذلك أو لم توافق، وكان ذلك المعنى مما قصدت به البروتستنتية إلى الفصل بين سلطان الكنيسة وسلطان الدولة رغبة في إضعاف الكنيسة.

ولكن الملوك فسروا هذه العبارة تفسيرا جديدا في القرن السابع عشر، فقالوا إن هناك حقا خاصا بأشخاص الملوك، فهم خلفاء آدم في الأرض، وقد أعلن الله في كتابه إقراره سلطة الملوك المطلقة فلا يجوز أن تلاقى تلك السلطة أية مقاومة أو تدخل في شؤونها.

وكان جيمس الأول يحكم اسكتلندة باسم جيمس السادس وآل إليه عرش إنجلترة بالوراثة فاتحد في شخصه حكم المملكتين، وقد قتل الملك لصا وهو في طريقه إلى إنجلترة بغير أن يحاكمه فخرج بفعلته هذه على حق أكتسبه الفرد في إنجلترة منذ لائحة العهد الأعظم التي ظفر بها الإنجليز سنة ١٢١٥، والتي جاء فيها صراحة أنه لا يجوز حبس أي إنسان أو نفيه أو مصادرة أملاكه أو إعدامه إلا بعد محاكمة تكفل له فيها وسائل الدفاع عن نفسه.

وتمسك جيمس منذ هبط إنجلترة بالحق الإلهي للملوك، وتحدى البرلمان هذا الحق، وكان من محاسن الأقدار أن لم يقف النزاع عند وضعه النظري بل تعدى ذلك إلى مواقف راح البرلمان فيها يبرر مسلكه أو يؤيد حقه على ضوء السوابق والحقوق المكتسبة، وملابسات الحال، ومقتضيات الظروف من النصفة والعدالة.

وكان البرلمان في عهد أسرة تيودور قد خضع للحكم المطلق فعلا، ومرد ذلك إلى أن ملوك تلك الأسرة لم يتمسكوا في حكمهم بالنظريات؛ بل كانوا يعملون على كسب مودة أعضاء البرلمان وضمان تأييدهم إياهم ليكون الأمر في ظاهره للبرلمان وفي حقيقته لهم. هذا إلى أنهم كانوا أحيانا يتزحزحون عن مواقفهم خطوات إذا لاحت نذر الشر، أو يحاولون بالكلمة الطيبة أن يكسبوا قلوب النواب، نجد خير مثال لذلك في موقف نبيل وقفته إليزابث في أواخر حكمها سنة ١٦٠١ حين لمحت اتجاه الرأي العام في معارضة البرلمان لقانون من القوانين، فقالت للنواب: (ولو أن الله رفعني مكانا عليا فإن ما أعده في الواقع مجد تاجي هو أني أحكمكم مستندة إلى محبتكم، وهذا ما يجعلني أشعر بالسعادة لأني ملكة شعب شكور، أكثر مما أشعر بها لأن الله جعلني ملكة فحسب).

وكانت البلاد في عهد تلك الأسرة تخشى الحرب الأهلية بين فرعي بيت الملك كما كانت تخشى الغزو من الخارج، وعلى الأخص من جانب أسبانيا الكاثوليكية. هذا إلى أنه كان للناس منصرف عن السياسة وأمورها إلى النهضة العلمية الأدبية وحركة الكشف الجغرافي والاستعمار وراء البحار، فخمدت جذوة السياسة حتى كادت تتحول إلى رماد.

وكانت تقتضي المحكمة وبعد النظر مسالمة رجال البرلمان بعد زوال الخطر الداخلي وابتعاد شبح الغزو الخارجي إثر تحطيم الأرمادا أسطول

أسبانيا العظيم، ولكن جيمس الأول أخذ في ظروف كهذه يعلن تمسكه بنظريته، فنفخ بذلك في الرماد حتى توهج، ثم إذا به يشتعل في عهد خلفه اشتعالا

وكان جيمس غداة ولايته عرش انجلترة في السابعة والثلاثين من عمره، وكان ملكا مثقفاً على شيء غير قليل من اللباقة، وفي نفسه قدر من روح الفكاهة، ولكن لم يكن يحسن وزن الأمور لتمسكه بالجانب النظري منها، كما أنه لم يحسن كيف يحيط شخصه بما يجب للملوك من وقار وهيبة، بل لقد اجتمعت فيه كل الصفات التي يجب ألا تنسب واحدة منها إلى ملك، وقد قال عنه هنري الرابع ملك فرنسا: (إنه أعلم مغفل في العالم المسيحي!)

اجتمع أول برلمان في عهد جيمس سنة ١٦٠٤، فكان أول خلاف بينه وبين الملك أن تدخل الملك في الانتخاب، فقد حذر الناخبين أن ينتخبوا المتطرفين في الآراء الدينية والمحرومين من حماية القانون، ولكن إحدى الجهات انتخبت واحداً من هؤلاء فأبطل انتخابه بأمر الملك توطئة لانتخاب غيره. وثار البرلمان وتمسك بأنه صاحب الحق في النظر في هذا الأمر، وأذعن الملك مكرهاً وتأكد بهذا الإذعان حق البرلمان في القيام على أمر الانتخاب!

وأعقب ذلك حادثة أخرى، وتلك هي حبس أحد أعضاء البرلمان لعدم دفعه ما عليه من دين، وإذ ذاك أعلن النواب أنه لا يجوز القبض على عضو من الأعضاء إلا بتهمة الخيانة أو تعريض السلم العام للخطر. ولكن الملك أصر على موقفه ولم يعبأ برأي النواب!

وفي نفس السنة أظهر جيمس عطفه على الكاثوليك وأراد أن يغير بعض القوانين الضارة بهم، فعارض البرلمان، وكانت ميول أعضائه بيرويتانية، ولعله إنما أراد بالمعارضة أن يقف في وجه الملك أكثر مما أراد أن يكيد للكاثوليك.. وأسرها الملك في نفسه...

على أن أكبر خلاف وقع بين الملك والبرلمان كان على مسألة الضرائب، وذلك سنة ١٦٠٨ حين أراد الملك أن يفرض من تلقاء نفسه ضريبة إضافية

على التجارة، فعارض البرلمان معارضة شديدة، لأن هذا العمل يقوض حقاً هو أهم حقوقه من أســاســه، ولكن الملك تمادى في عناده، وامتنع أحد التجار عن الدفع وقدم إلى المحاكمة، وكان الملك يومئذ يخيف القضاة بعزلهم من مناصبهم على الرغم مما نص عليه العهد الأعظم من منع تدخل الملك في ســير العدالة، وحكم القضــاة على التاجر؛ ولكن صــوت البرلمان في الاحتجاج لم يخفت بهذا الحكم وأن لم يجده ذلك شيئاً، وما لبث أن تخلص منه الملك في غير عناء!

وفي سنة ١٦١٤ اشتدت بالملك الحاجة إلى المال بسبب إسرافه وإسراف حاشــيته ومن اصــطفاهم، فجعلهم من المقربين إليه أولى الخطوة عنده، فدعا الملك برلماناً جديداً ليعينه على الخروج من الأزمة، وحرص أتباعه على أن يأتي موالياً للملك، ولذلك أطلق الناس عليهم أسم المتعهدين استهزاء بهم؛ ولكن البرلمان ما كاد يجتمع حتى أظهر المعارضـــة للملك وللمقربين إليه، وأنكر ســياســة الملك الخارجية، فقد كان يريد جيمس مســالمة أســبانيا ومصــالحتها، وكانت انجلترة تكره ذلك أشد الكره!

وغاظ الملك أن يكون هذا البرلمان أشــد من ســالفه عناداً، فأســرع إلى حلة بعد شـــهرين من اجتماعه، ولما يتخذ قراراً واحداً، ولذلك أطلق عليه أســم (البرلمان العقيم)!

وحكم الملك ســت ســنوات من غير برلمان، يعمل بمشــورة خلصــائه حيناً، ويتبع هواه حيناً، يعزل من يشــاء ويذل من يشــاء، لا يســأل عما يفعل ولا يفكر في عاقبه أمره.

وفي ســـنة ١٦٢١ دعا جيمس برلماناً جديداً، وكانت الحاجة إلى المال هي التي تجعله يدعو البرلمانات ليعتمد على معونة النواب في فرض ما يطلب من الضــرائب، وقد تذرع في هذه الســنة برغبته في نصــرة البروتســتنتية وذلك بمســاعدة صــهره البروتستنتي فردريك حاكم البلاتينات في ألمانيا ضــد النمســا وأسبانيا؛ وتحمس البروتستنت في انجلترة لمعاونة زملائهم في القارة، ولكن ما

كان أشد غضبهم أن رأوا الملك يجحم بعد تحمس، دون أن يستخذى لما حل بصهره أو يأبه بتألم الشعب لما نال البروتستنت من هزيمة في القارة، وإذ ذاك عاد البرلمان إلى مناوأة الملك في المسائل الداخلية، فطالب بمحاكمة بعض وزرائه وأصفيائه على ما نسب إليهم من تهم أهمها الإثراء بغير حق عن طريق الاحتكار، وكان ثمة عرف قديم أهمل منذ سنة ١٤٥٠ يتيح للنواب حق الاتهام على أن تكون المحاكمة أمام اللوردات، وأحيا النواب هذا العرف فغضب الملك غضباً شديداً ليحمى وزراءه وأصفياءه، وأعلن كلمة جريئة اهتزت لها البلاد هزة الغضب والألم وهي قوله (إن امتيازات النواب واللوردات ليست حقاً لهم كما يظنون وإنما هي منحة من الملك، وإن عمل النواب ينبغي ألا يتعدى الأمور المحلية كالمناقشة فيما يطلب من المال والإعراب عن آراء ناخبيهم، أما أمور الدولة العليا في السياسة والدين فمن اختصاص الملك وحده...) ورد البرلمان بصيحة بالغة الجرأة فقال (إن كافة ما لدى البرلمان من الحريات والامتيازات والأمور المتصلة بالانتخاب وبسير العدالة، إنما هي حقوق قديمة مؤكدة تثبت بمجرد الميلاد لكل فرد في انجلترة ويتوارثها الأجيال، وكل ما هنالك من مسائل خطيرة لمحة تتصل بالملك والدولة والدفاع عن المملكة وعن كنيسة انجلترة ووضع القوانين والمحافظة عليها والعمل على إزالة أسباب الشكوى في الداخل، إنما هي من صميم ما يختص به البرلمان ويدير فيه المناقشات ويتبادل أعضاؤه فيه المشورة.)

وساء وقع هذا بالضرورة في نفس الملك المتجبر فأخذته العزة بالإثم وحل البرلمان ولم يجتمع إلا سنة ومزق بيديه هذا القرار من مضبطة المجلس وألقى ببعض أعضائه في غيابه السجن، وظل يحكم مستبداً بالأمر حتى سنة ١٦٢٤ حين جمع عزمه وأراد أن يعلن الحرب على أسبانيا، وشعر بحاجته إلى المال، وإذ ذاك دعا برلماناً جديداً لم يكن أقل من سابقيه معارضة للملك المستبد وظل قائماً حتى مات الملك سنة ١٦٢٥.

ومن عجيب أمر جيمس أنه كان أقل الطغاة خطراً لضعف شخصيته، ولكنه كان مع ذلك أكثرهم استفزازاً للنفوس بتهوره وبكلامه. والحق أنه أساء إلى الإنجليز بما قال أكثر مما أساء إليهم بما فعل؛ كأنما كان مولعاً بأن يستعجل الثورة في البلاد، وكأنما كانت رسالته إشعال نار هذه الثورة؛ فما كان بمستطيع أن يحمل الناس على احترامه بناحية من نواحي القوة والعظمة كما عسى أن يفعل إذا أرادوا أن يغطوا طغيانهم لأنه لم يكن على شيء من هذا؛ ولا كان بقادر على أن يقف في طريق الحرية الثائرة معترضاً لها ليصدها عن وجهتها. ورأى الإنجليز أنفسهم لأول مرة في تاريخهم تلقاء ملك يشعرون باحتقاره، ويسخرون من ضعفه وإن تظاهر بالقوة فما كان ما يزعمه لنفسه من قوة إلا الحماقة في أسخف صورها...

أما عن المسألة الدينية في عهده فلم يك جيمس فيها أقل حمقاً ولا أخف طغياناً إن لم يكن أقبح عتاداً وأبغض استبداداً.

تربى جيمس في أسكتلندة تربية بروتستنتية إلا أن هواه كان مع الكاثوليك، ولم يك ذلك بدافع العقيدة فما كان يعبأ مثله بعقيدة. وإنما كان بدافع الرغبة في الاستناد إلى الكنيسة كدعامة من دعائم الاستبداد.

وكان البيوريتانز قد تزايد عددهم في البلاد حتى أصبحوا قوة عظيمة، وكان هؤلاء خارجون على كنيسة إنجلترا لأنها كاثوليكية العقيدة وإن كانت رياستها لملك إنجلترا منذ فصلها هنري الثامن عن رياسة روما.

وقد كان هؤلاء البيوريتانز عند نشأتهم كما رأينا فريقاً من قساوسة الكنيسة الإنجليزية ولكنهم في الواقع أصبحوا يعدون من البروتستانت في ميولهم ومبادئهم ورغبتهم في الإصلاح وأن أطلق عليهم أسم خاص بهم؛ وطمع كل من الكاثوليك المتشيعين لروما والبيوريتانز أن ينالوا عطف جيمس. أما طمع الكاثوليك فلأنه ابن ماري الكاثوليكية ملكة أسكتلندة، وأما طمع البيوريتانز فلأنه تربى تربية بروتستينتية في أسكتلندة وفق الكنيسة البرسبتيرية، ولكنهم جميعاً ما لبثوا إلا قليلاً حتى رأوه يميل إلى نظام كنيسة الدولة كما نشأت في عهد هنري الثامن وتوطدت في عهد اليزابيث.

وأجتمع سنة ١٦٠٤ مؤتمر من قساوسة الكنيسة وممثلي البيوريتانز بغية التفاهم على حل، ولكن ثلاثمائة من البيوريتانز آثروا اعتزال مناصبهم على الاعتراف بكتاب الصلاة الذي تقره كنيسة الدولة. وأعلن جيمس كلمته الشهيرة يومئذ التي أفصح بها عن رغبته في التمسك بالنظام الأسقفي في رياسة الكنيسة وفروعها وهي قوله: (إن لم يوجد القس فلن يوجد الملك)؛ وتهدد البيوريتانز بطردهم من المملكة إن لم يذعنوا له.

وكان أعضاء البرلمان يميلون إلى البيوريتانية فاشتد غضب أشياع روما عليهم، كما أنهم غضبوا على الملك لتمسكه بنظام كنيسة الدولة فدبروا مؤامراتهم الشهيرة مؤامرة البارود لنسف البرلمان والملك جميعاً، ولكن مؤامراتهم أحبطت إذ نما خبرها إلى الحكومة، وأزيل البارود والفتائل من

تحت البناء ولاقى المؤتمرون نكال الملك جزاء بما أجرموا، وحاق بهم سوء ما مكروا فنسف ما بقي لديهم من البارود عدداً منهم، وأصبح أشياع روما موضع سخط الناس جميعاً وكراهتهم وظل الناس زمناً طويلاً يعلمون بحادثة منكرة إلا ردوها إليهم، وظل السذج من العامة ينسبون كل شر يقع مهما كانت صورته إليهم، ولا يزال بعض القرويين حتى اليوم يحرقون تمثالاً رمزياً للبابا في ذكرى هذا الحادث من كل عام.

وعظم ميل الناس إلى البيوريتانية بقدر ما أشتد سخطهم على الكاثوليك، ولكن القساوسة على الرغم من ذلك يوحون إلى الملك اضطهاد البيوريتانز والعطف على الكاثوليك من أتباع الكنيسة الإنكليزية، والتمسك بالنظام الأسقفي، وأصبح هؤلاء القساوسة في نظر البيوريتانز وأنصار الحرية الفكرية جميعاً رمز التعصب الأحمق والاستبداد الغبي، لا يدرون أهم أم الملك أحق منهم بالمقت والازدراء؛ وكان كلما أشتد سخط الشعب على الأساقفة ازداد عطف الملك عليهم وحباهم بالمودة والرعاية وبالغ في التمكين لهم في سلطتهم وتنفيذ ما يشيرون به يكيد بذلك لمخالفيه ويشرح صدور مؤيديه.

وتناصر على الملك وحزبه البرلمان البيوريتانز، ومازالت هاتان القوتان تعملان على مناوأته في ثبات ويقين حتى أدركه الموت سنة ١٦٢٥، وخلف لابنه شارل الأول العرش والثورة معاً، ولسوف تكون البيوريتانية في عهده أشد خطراً عليه من النزاع الدستوري بينه وبين البرلمان.

واستوى على عرش إنجلترة شارل الأول، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وكان شارل على الضد من أبيه في خلقه فلم يعرف التبذل واللهو، بل كان ملكاً من جميع أقطاره يملأ النفوس هيبة باحتشامه ووقاره، ولم يك ضعيف العزيمة ولا خواراً ولا أرعن الكلم ولا ثرثاراً؛ بيد أنه لم يتوفر له من الثقافة بقدر ما توافر لأبيه منها. وكان البرلمان قد مرن على أساليب المعارضة والمقاومة في عهد جيمس، فلم يك أمام شارل ألا طريقاً واحداً هو مسالمته،

ولكنه تنكب هذا الطريق، وبالغ في إعنات البرلمان وأسرف في تمسكه بالحق الإلهي المزعوم، وأصبحت سياسته تنحصر في مقاومة الرأي العام حتى مل الناس، لا يحفلون رضاه أو غضبه.

لم يكد يجتمع أول برلمان في السنة الأولى من حكمه حتى دب الخلاف بينه وبينه، وذلك أن البرلمان لم يمنحه المال إلا بقدر حتى يظل محتاجاً إليه فلا يحله، كما أن البرلمان لم يعتمد له ضريبة التجارة إلا لسنة وكانت للملك طول حياته، وكانت الحرب قائمة بينه وبين أسبانيا فكانت حاجة الملك إلى المال شديدة، وأمدت انجلترة فرنسا ببعض سفنها لتقذف بها أسبانيا ولكن فرنسا قذفت بها البروتستنت في أرضها حيث تحصنوا في ميناء لاروشل فغضب البرلمان وما زال ينتقد سياسة الملك حتى ضاق به الملك فحله.

ولكنه دعا برلماناً جديداً في السنة التالية أي سنة ١٦٢٦ فاشترط هذا البرلمان أن يزيل الملك أسباب ما يشكو الناس منه وإذ ذاك يجيبه في سخاء إلى ما يطلب من مال. واتهم البرلمان لورد بكنجهام توطئة لمحاكمة أمام اللوردات، وكان أقرب المقربين إلى شارل، وكان بكنجهام هوفلير أحد أصفياء أبيه جيمس من قبله، وكان يعتقد الناس أنه هو الذي يوحي إلى الملك الطغيان ويدفعه إلى محاربة البرلمان، واستشاط الملك غضباً وأمر بالمحرضين على ذلك فألقى بهم في السجن، وامتنع البرلمان عن العمل حتى يطلق الملك سراحهم، وأعلن ألا تجبى ضريبة التجارة إلا بموافقة البرلمان، وأذعن الملك فأطلق المحرضين، ولكن البرلمان عاد إلى اتهام بكنجهام فلم يطق الملك صبراً، وتخلص منه بحله.

وعمد الملك إلى فرض قرض جبري لمواجهة الحرب وأخذ في جمعه بالقوة، وكان يرسل إلى السجن من يرفض أن يدفع، وكان ممن دخل السجن بسبب الامتناع جون همبدن أحد زعماء البرلمان وقد أصر على امتناعه معلناً في صراحة وجرأة أن الملك لا يملك فرض مثل هذا القرض، وزاد على ذلك

قوله (أن العهد الأعظم ينبغي أن يقرأ مرتين كل سنة في وجه من يخرجون عليه).

واشتدت الضائعة بالملك، فقد ساقته حماقته إلى خلاف بينه وبين فرنسا وانقلب الخلاف إلى حرب وما تزال الحرب بينه وبين أسبانيا قائمة؛ وأرسل شارل حملة بحرية لمساعدة البروتستنث الفرنسيين (الهيوجونون) في لاروشل، وكانت قيادتها لبكنجهام وباءت بالفشل، فازداد الناس سخطاً عليه وعلى الملك، وراح الملك يجمع القرض الجبري بكل ما في وسعه من عنف حتى لقد ألقي بنحو ثمانين من العلية في السجن ممن حذوا حذو همبدن، أما العامة فكان الجلد جزاء من يمتنع أو الحشد في صفوف الجيش أو في سفن الأسطول، ولم يغني عن الملك بطشه فقل المال في يديه وأيقن أن لا بد من دعوة برلمان ومهد السبيل لذلك بإطلاق من سجن، كما أنه طمع أن يكتسب بذلك مودة الشعب

واجتمع البرلمان الثالث سنة ١٦٢٨ فافترض حاجة الملك إلى عونه وعاد إلى اتهام بكنجهام، وتحرج الأمر بينه وبين الملك. ثم أعد النواب ملتمساً سموه ملتمس الحقوق، وأعلنوا استعدادهم لإجابة الملك إلى بغيته من المال إذا أجابهم إلى ذلك الملتمس، ووافق الملك فأجابوه إلى ما أراد، ونص الملتمس على أنه لا يحق للملك فرض ضريبة إلا بموافقة البرلمان، وألا يسجن أي شخص إلا وفق القانون، وألا يجعل الجند عالة على الناس، وألا يلجأ إلى الأحكام العسكرية بدل القانون العام، وهذا الملتمس مستمد في روحه من العهد الأعظم، ويعد بعده الوثيقة الثانية لحقوق الإنجليز وحرياتهم.

على أن أشد ما استاء منه الناس هو مسلك الملك يومئذ في سياسته الدينية. أظهر شارل من أول الأمر ميله إلى نظام الكنيسة الإنجليزية، ومع أنه لم يك كاثوليكياً وفق مذهب روما فإنه كان يكره البيوريتانز كرهاً شديداً ويخاف من تزايد عددهم ويشك في دعوتهم الإصلاحية ويراها ضربا من التطرف لا مبرر له ويميل بالرجوع بالدين إلى مظهره الكاثوليكي القديم.

وحدث أثناء إجازة البرلمان أن قرب الملك إليه أحد رجال الدين وهو وليام لود ورقاه أسقفا للندن، وأخذ يعمل بما يشير عليه به، وكان لود من أشد أعداء البيوريتانز، وكان هؤلاء يمقتونه أشد المقت لتعصبه لنظام الكنيسة الإنجليزية ولميله الفطري إلى الاستبداد بالرأي والقسوة في معاملة خصومه ولضيق تفكيره وفظاظته، وغلظ قلبه، فلما قربه الملك إليه، عد البيوريتانز عمل الملك نذيراً لهم فأجمعوا أمرهم بينهم على مقاومته ومعاندة لود وممالأة البرلمان عليهما، وأصبح البيوريتانز من أكبر المتحمسين في طلب الحرية السياسية، فهي فضلاً عن كونها من مبادئ مذهبهم تعد في رأيهم الآن طريق الخلاص من وليم لود أسقف لندن خصمهم العنيد.

وقتل بكنجهام بيد مغتال لأمر لا يتصل بالسياسة فتنفس الناس الصعداء، وخفف عنهم ذلك مروق ونتورث شيئا قليلاً ودأب الملك في جمع ضريبة التجارة، وعاد الجند يفرضون على الناس لإطعامهم وإيوائهم أينما انتقلوا، ونظر النواب فإذا ملتمس الحقوق لم يبقى فيه من الحقوق شيء.

فلما اجتمع البرلمان سنة ١٦٢٩ كانت قلوب أعضائه مليئة بالسخط على الملك الذي نقض عهده، وأخذ البرلمان يدعوا إليه بعض المسؤولين ليستجوبوهم عما عدهم مخطئين فيه مما يتصل بحماية ضريبة التجارة فكان عمله هذا تحدياً لإرادة الملك.

وأعد بعض النواب مقترحاً فحواه أن جباية هذه الضريبة عمل غير قانوني فليس على الناس أن يدفعوها، وصاح فيهم رئيس المجلس أن الملك قد أمره ألا يكون موضع مناقشة، ونظر الرئيس فكأنما أنقلب المجلس بركاناً يلفظ الحمم، وصعب عليه أن يتبين ما هز أرجاء القاعة من عبارات صاخبة فمن احتجاج على التدخل الملك في إدارة الجلسة ومن هتاف بوجوب الإصرار على المقترح، ومن صيحات موجهة إلى الرئيس أن ينزل عن كرسيه إلى غير ذلك من مظاهر الغضب والسخط، وذهب بعض النواب فأغلقوا باب القاعة وجاءوا

بمفتاحها فوضــعوه على المنصــة وأنزل عضــوان الرئيس عن كرســيه بالقوة وبعض اللوردات وكبار الموظفين يطرقون الباب في غير جدوى إلى أن قرء المقترح ووافق عليه النواب في حماســة عظيمة، ومما جاء في فيه قول النواب (إن من يحدث تغيراً في الدين أو من يفرض ضـــريبة جديدة أو يدفعها بغير موافقة البرلمان فهو عدو للملكة).

ولما نما ذلك إلى الملك لم يســعه إلا حل البرلمان فحله في اليوم الذي تحدد لاجتماعه بعد هذه الجلســة المشــهودة، وأمر الملك فقبض على بعض أعضــاءه وأرســلوا إلى الســجن، وكان في مقدمتهم ســيرجون إليوت صــديق همبدن وصــاحب المقترح، وبعد مضــي بعض الوقت تاب الأعضــاء مما فعلوا فخلى سبيلهم إلا اليوت فقد ظل على إصراره. وساءت في السجن حالته ومشى السقم في بدنه فما زاده ذلك إلا عناداً وإصــراراً. واقترب منه الموت بعد بضـع سنين فما أخافه شــبح الموت ولا أوهن له اصــطباراً ولقي النائب الشــجاع حتفه بين جدران الســجن فكان أحد شــهداء الحرية، وكان من الســهل أن يشــتري حياته بإذعانه لمن سجنه ولكنه آثر ميتة البطل؛ ولم يتورع الملك عن أن يكيد له وهو بعد رفات فمنع أهله من أن يدفنوا جثته خارج الســجن فوســد حيث اســتشــهد، ودفن حيث أبت روحه أن تدفن.

واستبدل شارل بالأمر أحد عشر عاماً لقي أثناءها الإنجليز ما شاء له طغيانه من ضروب العسف والإذلال، وكان وليم لود الذي رقي في عام ١٦٣٣ إلى منصب كبير الأساقفة مشيرة في الشؤون الدينية ولورد استرافورد مشيرة في الشؤون السياسية.

وامتحنت الحرية امتحاناً طال ليله واشتد بالناس هوله، وسلط لود على البيوريتانز من أنواع الاضطهاد وأساليب العسف ما شاء له سلطانه وما أملاه غيظه وغلظه فكانت تكوى جباههم وصفحة وجوههم بالحديد المحمي أو تقطع أطراف آذانهم أو أنوفهم وليس لهم منجاة من هذا العذاب إلا أن يطرحوا عقيدتهم؛ ولكنهم كانوا يمدون آذانهم وجباههم ووجوههم وأنوفهم جماعات إلى من يكويها أو يتحيفها دون أن يذل لهم إباء أو تهن لهم عقيدة، وكانوا كلما أمعن لود في تعذيبهم ازدادوا تمسكاً بمذهبهم وازداد مذهبهم رسوخاً وانتشاراً كالشجرة كلما امتدت إليها الأيدي بالتقليم تغلغلت في الثرى جذورها وامتدت في الجو فروعها.

ولم يقتصر التعذيب على عامة البيوريتانز، فامتد إلى الخاصة وشمل كل من كتب شيئاً ضد الملك أو الأساقفة، وكان يعين الملك في طغيانه محكمتان: إحداهما هي محكمة غرفة النجم، والأخرى محكمة عليا أنشأتها اليزابيث أول الأمر للحكم على من يخالف قرار توحيد العبادة؛ وكان من الضحايا العديدين لهاتين المحكمتين أحد كبار رجال الدين فضرب وحبس ووضع في الأصفاد وقطعت أذناه لأنه كتب ينتقد لود وأساقفته؛ وأحد رجال القانون لأنه كتب كتاباً يعيب فيه على من احترف التمثيل من الأوانس والسيدات مسلكهن فظن أنه يعرض بالملكة فيما كتب ولم يك جزاؤه أخف من سألفه؛ ومن هذين المثلين ندرك مبلغ ما حل بالناس من ألوان العذاب.

ولما كانت المشـكلة المالية هي التي تضـطر الملك إلى الاسـتعانة بنواب البلاد، فقد أشار سترافورد على الملك باتباع سياسة الاقتصاد ليطرد استغناؤه عن البرلمان، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها، فتحسنت الحالة المالية إلى حد ما وخيل إلى سترافورد أن ليس للبرلمان رجعة.

ولكن الملك وازن بين دخله ومنصـرفة فلم تسـره الموازنة ووجد نفسـه لا يزال في حاجة إلى زيادة الدخل وإلا اشـتدت به الضـائقة ثانية، فسـلك سـنة ١٦٣٤ مسلكاً كان أبعد ما سلك عن الصواب، وذلك أنه عمد إلى فرض ضريبة مباشرة، وكانت تسمى ضريبة السفن، وهي ضريبة قديمة كان من حق الملك وفق الدسـتور أن يفرضـها على الموانى إذا تعرضـت المملكة لخطر الحرب فتقدم الموانى سـفناً أو ما لا يقوم مقامها؛ ونظر الإنجليز هذه المرة فإذا بالملك يفرض هذه الضـريبة وليس ثمة من خطر يتهدد المملكة ولكن الملك احتج بأنه يبتغي بها مطاردة ما يتهدد التجارة من القراصـنة، وتمادى الملك فخرج على القانون والعرف وفرض هذه الضريبة لا على الموانى فحسب بل وعلى داخلية البلاد، ثم استمر يفرضـها عاماً بعد عام وكان الأصـل فيها ألا تفرض إلا حين الخطر

ويأبى القدر إلا أن يرتطم الملك وكبير أساقفته في ورطة كانت هي القاضية عليهما، فقد شـاء لود أن يدخل في اسـكتلندة النظام الأسـقفي على الرغم من تمسك الاسكتلنديين بنظام الكنيسة البرسبتيرية، وأعد لود كتاباً للصـلاة على نمط كتاب الصـلاة في انجلترة، وأراد أن يحمل الاسـكتلنديين على اتباعه في كنائسـهم، فثار الناس هناك وأعلنوا سـنة ١٦٣٨ في مجلس عام رفض النظام الأسقفي وطردوا الأساقفة الذين أرسلهم شارل إليهم فكان هذا تحدياً صريحاً لمشيئة الملك؛ وأصبحت المسألة في الواقع تتصل بحق شارل في حكم اسكتلندة أكثر مما تتصـل بالنزاع الديني، وبات الموقف بالغ الخطورة، فإذا اسـتطاع الاسكتلنديين أن يعصوا الملك فماذا عسى أن يكون وقع هذا في إنجلترا.

ولجأ الملك إلى الحرب وتأهب الاسكتلنديون للقتال وتلاقى الجيشان فأحس الملك ضعفه فهادن الاسكتلنديين وهادنوه وسكنت ريح الحرب إلى حين.

وأحس الملك بضرورة دعوته برلماناً فدعا ذلك البرلمان في ربيع سنة ١٦٤٠ وعرف باسم البرلمان القصير لأنه لم يلبث أن أنكر على الملك فرض ضريبة السفن، ولما ساومه الملك وعرض أن يتنازل عن ضريبة السفن نظير أن يمنحه البرلمان مبلغاً معيناً رأى البرلمان أن قبوله هذا العرض يتضمن الاعتراف بحق الملك في فرض تلك الضريبة فأبى إلا أن يكون تنازل الملك عنها بغير قيد وضاق الملك بالبرلمان فحله في نفس العام.

ولكن الاسكتلنديين عبروا نهر التويد في الصيف زاحفين على إنجلترا، ودعا الملك مجلساً من الأعيان فأشار هذا المجلس بوجوب الاستناد إلى برلمان، ولم يجد الملك بداً من الإذعان فدعا برلماناً جديداً في نفس السنة وعرف هذا البرلمان بالبرلمان الطويل، وظهر في هذا البرلمان زعماء أشداء كان من أشهرهم بم وهمبدن وأليفر كرمول...

ووجد البرلمان الفرصة سانحة ليصفي حسابه فوجه إلى لود واسترافورد تهمة الخيانة العظمى للشعب الإنجليزي وأطلق السجناء من أنصار الحرية، وأزال من الكنائس كل ما يصلها بروما من مظاهر وصور وتماثيل، واحتاط البرلمان للمستقبل فأصدر قراراً يقضي بأنه لا يجوز أن ينقضي أكثر من ثلاث سنوات بغير أن يدعى برلمان، وقدم سترافورد إلى المحكمة، ووضع تحت الحراسة كيلا يهرب، وكان لا بد من موافقة الملك حتى تقام الحراسة فوافق الملك مه أنه وعد سترافورد أن يدافع عنه وأدين سترافورد وأعدم وتنفس أنصار الحرية الصعداء، وبالغ البرلمان في الحيطة فأصدر قراراً فحواه ألا يجوز حل البرلمان إلا بموافقة أغلبية أعضائه؛ وقضى البرلمان بحل محكمة غرفة النجم والمحكمة العليا المختصة بالشؤون الدينية.

وخيل لأنصـــار الحرية أنه لم تعد تعترضـــهم عقبات، ولكنهم ما لبثوا أن أحسوا روحاً رجعية في مقاعد البرلمان نفسه، وذلك بسبب مغالاة البيوريتانز ضـد النظام الأسـقفي، فقد قدم هؤلاء مقترحاً إلى البرلمان يقضـي بإزالة هذا النظام كله وسمي مقترحهم باسم مقترح الأصل والفرع، ولكن بعض النواب كانوا يميلون إلى النظام الأسـقفي فعارضـوا هذا المقترح وانضـم إلى هؤلاء نواب آخرون أشفقوا من تطرف البرلمان في استلاب سلطة الملك ورأوا أن الملك قد أذعن أكثر مما يجب أن يذعن وتوجسوا خيفة من عواقب هذا التطرف كأنما يلمح لهم شبح الفوضى.

وأخافت هذه الرجعية بم وزملاءه، فأقدم بم على عمل خطير وهو ما سـمي الإعلان الأعظم وهو عريضة قدمت إلى البرلمان وفيها جميع ما ارتكب الملك وأعوانه من أخطاء في السياسة والدين منذ بداية عهده وطلب إلى البرلمان أن يقرر صحة ما جاء فيها، وبعد مناقشة عنيفة في جلسة طويلة استمرت الليل كله وافق البرلمان عليها بأغلبية تسعة أعضاء فحسب فأظهرت هذه العريضة عدد أنصار الملك في البرلمان وتبين أنه عدد لا يستهان به.

وتزايدت مخاوف بم وأنصاره، وكان الملك قد ذهب إلى اسكتلندة على أثر وفاق البرلمان بين إنجلترا والجيش الثائر في اســكتلندة، فلما عاد شـــارل إلى إنجلترا استقبل في لندن بحفاوة عظيمة.....

وكأنما أغرته تلك الرجعية في مقاعد البرلمان وهذه الحماســة التي لقيه بها أهل لندن بأن يضرب ضربة، فخطا خطوة جريئة ود كثير من أنصاره أنفسهم لو أنه لم يخطها، وذلك أنه وجه في ســنة ١٦٤٢ إلى خمســة من أعضـــاء البرلمان على رأســهم بم تهمة الخيانة العظمى، وبعد يومين ذهب إلى البرلمان بنفسه على رأس قوة من حرسه وقفت عند بابه شاكية السلاح وطرق شارل الباب ودخل القاعة ليقبض على الأعضـــاء الخمســـة، ونهض النواب وقوفاً وحسـروا القبعات على رؤوسـهم، واتجه الملك إلى منصـة الرئيس فخر أمامه

على ركبتيه وســـاد الصـــمت فلا يســـمع إلا همس، ودار الملك بعينيه يطلب الأعضـــاء فلم يتبين في الصـــفوف منهم أحد فقد نما إليهم ما اعتزمه الملك قبل حضـوره بدقائق ففروا فسـأل عنهم الرئيس فأنكر معرفته متى حضـروا ومتى انصرفوا، ونظر الملك إليه نظرة شديدة ثم خرج هادئ الخطى يعلن إلى حرسه أن قد (طارت الطيور الخمسة).

وتسـامعت لندن بما كان من أمر الملك فهبت المدينة التي لقيته بحفاوتها منذ قليل تدافع عن النواب، واشـــتدت حماســـة الناس، وصـــمموا على أن يعود الأعضـاء إلى مجلسـهم في مظاهرة كبرى وأعدت الزينات في الشـوارع وعلى صـفحة النهر في القوارب، وكان لا بد أن تمر المظاهرة بقصـر الملك فلم يطق الملك أن تقع عيناه عليها أو تسمع أذناه ضجيجها فترك المدينة.

وأخذ البرلمان يعد العدة للدفاع عن كيانه، وأعد الملك عدته ليســـحق بها البرلمان ومن يظاهره من الناس، واندلعت نيران للحرب الأهلية التي انتهت بهزيمة شارل بعد أن دارت رحاها لأكثر من أربع سنوات.

بعد أوبته من إيطاليا

آب ملتن إلى وطنه بعد أن غاب عنه سنة وثلاثة أشهر! وكانت الحرب بين إنجلترا واسكتلندة في أولى مراحلها؛ وكانت السياسة الداخلية دائبة في عصفها لا تكاد تجنح إلى السكون حتى تهب ريحها عاتية من كل جانب.

وكان يتوقع منه بادي الرأي وقد آثر العودة إلى بلاده على المضي في رحلته حياء منه، كما ذكر، أن يستمتع بالرحيل والأحرار في وطنه يعانون ضروب البلاء، أن يلقي بنفسه في غمار السياسة أنفة منه وحفاظا ودفاعا عن الحرية التي يعشقها والتي ركب في فطرته الميل إلى نصرتها؛ ولكنه ركن إلى الدرس ولاذ بالعزلة كما كان يفعل قبل رحيله.

وقد ملأ الحزن جوانب نفسه على صديقه ديوداتي، وآلمه ألا يجد مكانه من يستطيع أن يفضي إليه بأنباء رحلته، ويظهره على ما لقي أثنائها من حفاوة وما اكتسب من حسن السمعة وذهاب الصيت.

والتمس العزاء لنفسه في مرثية كتبها فأدى بها حق الوفاء لصديقه. وقد اختار لها اللغة اللاتينية كما اختار لها الجو القروي وصور الرعاة وحياتهم، والذين يعرفون اللاتينية ممن كتبوا حياة ملتن على اتفاق أنها من حيث الفن في ذاته لا تنزل عن مستوى مرثيته ليسيداس؛ وإنها من حيث العاطفة أعمق وأصدق من أختها لأن صلة ديوداتي بملتن كانت أوثق من صلة كينج به، فقد كانا ديودتي قرينه منذ صغره وقرب خلانه إلى قلبه وأشدهم محبة له؛ واخذ ملتن يذكر له في مرثيته ما كان يحب لولا أن طواه الموت أن يلقيه على سمعه؛ وجعل ملتن من نفسه ومن صاحبه راعيين كما فعل في ليسيداس، وأثنى على خلال صاحبه ولا سيما وفاءه وذكاءه ومرحه وتألم أن كان بعيداً عن وطنه في غير ضرورة ملجئة فلم ير نهاية صديقه. وأشار ملتن في هذه المدينة إلى أنه

سوف يجد العزاء في الشعر فيكتب إلياذة عن تاريخ قومه وأساطيرهم جاعلا الملك أرثر وفرسانه أبطال ملحمته متخذاً اللغة الإنجليزية أداته؛ ولكن هذه الملحمة التي وعد بها ظلت مجرد وعد فقد صرفته عنها شواغل السياسة والدين كما صرفته عن الشعر جميعاً اللهم إلا بضع مقطوعات قصيرة زهاء عشرين عاماً...

وكما أطلق ملتن على إدوارد كنج اسم ليسيداس أطلق هنا على ديوداتي اسم دامون؛ وكان دامون من مشاهير الفلاسفة ورجال الموسيقى بأثينا، وكان صديقاً وأستاذاً ابركليس؛ وقيل إنه كان كذلك أستاذاً لسقراط، وكان مضرب المثل في الوفاء، فقد اقترف أحد أصحابه جريمة كان قصاصها القتل، وعول ملك سيراكوز على قتله فاستأذنه أن ينصرف ليقوم على بعض شؤون أسرته ثم يعود لينفذ فيه القصاص. وتقدم دامون فرضي أن يكون رهينة عند الملك ليقتله بدل صاحبه إن لم يعد في موعده؛ وحل الموعد وهم الملك بقتل دامون فجاء صاحبه معجلا فأنقذه؛ وأثر وفاء الرجلين في نفس الملك فعدل عن قصاصه وطاب إليهما أن يكون ثالثهما في هذه الصحبة الوثيقة.

ونجد في اختيار ملتن هذه الاسم لصاحبه شاهداً من شواهد فنه، فهو يلمح كما ذكرنا من قبل إلى المعنى الواسع بالكلمة الواحدة...

واختتم ملتن مرثيته بإشارته إلى موت صاحبه ولم يتزوج، فذكر الحب وقال إن من حق الشباب أن يحب، وأن الذي يذوق طعم الحب وقد تقدمت به السن يذوق طعم الحسرة مضاعفا؛ ثم يبشر صاحبه بأنه سيلقى في الجنة خير العوض عما فاته في الدنيا فسيستمتع بزواج خالد في عرس بهيج من أعراس الفردوس.

ويجد بعض الكتاب في ذكره الحب وأنه من حق الشباب وفي تألمه على موت صاحبه ولم يتزوج تلميحا منه إلى حالته هو، وإن خفي هذا التلميح، ويقولون إن ملتن كان يفكر يومئذ في الزواج وإنه قد مل أن يعيش أعزب.

على أنه يعود إلى القراءة في إقبال لا يقل عن سالف إقباله عليها أثناء مقامه في هورتون؛ وقد اتخذ له بعد أوبته من إيطاليا مسكنا في لندن فلم يعد إلى القرية. ورضي أبوه الشيخ أن يمدد بما يطلب من المال وإن كان لا يزال يعجب ويتألم ألا يتخذ ابنه عملا إلا ما لا يبرح يردده من تثقيف نفسه أيكون أهلا لما يستشرف له في دنيا الأدب؛ وراض الرجل نفسه على سماع هذا وعلى الجود بما يطلب ابنه من المال. والحق أن ابنه لم يطلب منه كثيراً وحسبه من المال ما يشتري به قوته وما يلزم له من الكتب وما يدفع منه أحر مسكنه...

وضاق المسكن الجديد بكتبه ما اقتناه منها في هورتون وما اشتراه من إيطاليا، فاتخذ له مسكنا أوسع منه في أطراف المدينة. وهناك عكف على القراءة والدرس تاركا الشؤون العامة إلى (عناية الله أولا ثم إلى من وكل إليهم الناس القيام على هذه الشؤون).

وأشرف ملتن في مسكنه الجديد على تعليم ابني أخته وقد قبلها ليقيما عنده بعد موت أبيها وزواج أمها من غيره، وما لبث أن ضم إليها عددا من أبناء أصحابه الأقربين. وأقبل على تعليمهم جميعا في حماسة ولذة لا تقل عن شغفه بالقراءة والدرس ولقد عجب دكتور جونسون من عمله هذا وسخر منه فأشار إليه بقوله: (إنه ينظر بشيء من الفكاهة إلى ذلك الرجل الذي يبادر بالعودة إلى وطنه لأن قومه يكافحون في سبيل الحرية، ولكنه لا يلبث وقد ميدان العمل أن يدع وطنيته تتبخر في مدرسة يفتحها في بيته).

وأقبل ملتن على تعليم هؤلاء الصبية وعلى قراءة فلا يدع فيها ساعة من نهاره إلا ملأها بعمل حتى أيام الآحاد فلم يدع فيها كتبه وأوراقه إلا ريثما يؤدي واجب الدين. ونتبين مما كتبه أحد ابني أخته فيما بعد عن حياته وأخيه في بيت خالهما أنه كان يأخذهما بالجد في غير هوادة ومن كان معهما من أبناء أصحابه، ولكنا لا نتبين فيما كتب أن ملتن قد اهتدى إلى طريقة خاصة في

التعليم أو أنه جري على أسلوب اقتنع بسلامه وفائدته، فكل ما ذكر ابن أخيه لم يعد الكم؛ فهو يباهي بأنهم قرءوا كثيرا وتعلموا كثيرا...

بهذا الدأب وبهذه العزيمة أقبل ملتن على العمل بعد عودته من إيطاليا. على أن ابن أخته يذكر من أنباء تلك الأيام أن خاله كان ينصـــرف عن العمل كل ثلاثة أسـابيع أو كل شـهر مرة فيقضـي يوما بين نفر من صـحابته يسـتمتعون بالمرح واللهو البريء.

وماذا كان يقرأ ملتن بعد أوبته من إيطاليا؟ إنه اليوم شـــديد الولوع بالتاريخ وعلى الأخص تـاريخ قومـه، وإن الملحمـة التي داعبت خيـالـه في إيطـاليـا عن تاريخ قومه أو الآرتريادة ليعاوده حلمها اليوم ويلح عليه. ولقد أشـــار إليها كما ذكرنا في مرثيته عن صـديقه ديوداتي؛ كما أنه أثبت كثيرا مما يتصـل بها في كشـكوله الذي اتخذه منذ إقامته في هورتون ليكتب فيه كل ما يعن له من الآراء والملاحظات...

وأثبت ملتن في تلك الكراســة من الإشــارات ما يدل على دراســة شــؤون السـياسـة، كالمعضـلة المالية والضـرائب والملكية والجمهورية وحرية الرأي وحرية النشر والقوانين والاستبداد، وغيرهما مما يتصل بأحوال عصره.

ولن يزال يقرأ ويتدبر، ولن يزال يعتقد أنه لم يفرغ بعد من أهبته لما يجب أن ينهض له من عمل في دنيا الشـعر، تجد دليلا على ذلك في قوله إنه يسـاير (ذلك التلقين الباطني الذي يزداد يوما بعد يوم فيوحي إلى أنه بالجد والدراســة المقصودة وهو ما أعده حظي في هذه الحياة مضـافا إلى ذلك ميل فطري قوي، قد يتأتى لي أن أترك أثرا كتبته لمن يأتي بعدي من الأجيال فلا يدعونه إلى النسيان).

وما عســى أن يكون ذلك الأثر ومتى ينهض له؟ لعل الشــاعر لم يكن أكثر بينة من أمره فيما يتصــل بموضــوع ذلك الأثر الخالد منه فيما يتصــل بتاريخ البدء فيه، فأن كراسته تنطوي على نحو مائه موضوع غير الآرثريادة وكثرتها

تتصل بالدين ومسائله من عهد آدم وحواء والخروج من الجنة وما إلى ذلك مما يدل بكثرته وتنوعه على حيرة الشـاعر بين ما يأخذ وما يدع.. كذلك حار ملتن بين الصـور التي يختار واحدة منها لموضـوعه، أتخذله الملحمة على نحو ما فعل هوميروس ودانتي، أم يتخذ له الدراما؛ أم يترك هذه وتلك إلى سلسلة من الأناشيد مثل أناشيد بندار، فلكل من هذه الصور مميزاته ومحاسنه، ولعل مرد حيرته في اختيار الصـورة إلى أنه لم يحدد الموضـوع، إذ إن الموضـوع في الواقع هو الذي يعين الصورة التي يؤدي فيها.

ومهما يكن من أمر هذه الحيرة فقد على الشـاعر أن يدع قيثارته جانبا نحو عشرين سنه لم يكن له فيها أداة إلا النثر اللهم إلا مقطوعات قليلة نفس بها عن صدره في بعض المناسبات.

اجتمع البرلمان الطويل في نوفمبر سـنه ١٦٤٠، وقد إليه مقترح الأصـل والفرع، ذلك المقترح الذي شمر له البيوريتانز، وأرادوا به القضاء على النظام الأسقفي ومن المشفقين من التطرف في الدين والسياسة الذين آثروا الوقوف إلى جانب الملك ودب الخلاف على هذا النحو بين أعضاء البرلمان.

وانتقل الخلاف إلى خارج البرلمان فانقسم الناس فريقين: أنصـار النيوريتانز، وأشياع الملك وكبير الأساقفة

وظهر الجانب السياسي من تفكير البيوريتانز يومئذ في وضوح، وأخذوا يشيعون آراءهم في الناس؛ فالناس جميعا أمام الله سواء، ولا يكون الخوف إلا من الله وحده، والعدالة الاجتماعية وإقرار الحق في كل أمر هما دعامتا المجتمع الأساسيتان إلى غير ذلك من الآراء الحرة التي تناهض الاستبداد والطغيان.

وأما في الدين، فلم يبرح البيوريتانز يعلنون مقتهم لكنيسة روما وللنظام الأسقفي وازدراءهم لهما، وما يرجوا كذلك ينسبون إلى القساوسة أنهم هم الذين يوحون إلى الملك طغيانه وعلى الأخص كبيرهم وليم لود، وراحوا يذيعون أن

لا حاجة بالناس إلى أخذ الدين عن القساوسة، فلكل امرئ الحرية أن يتفقه في دينه مستعيناً بكلام الله، وإذا فلم لا يستغني الناس عن الأساقفة ولم يعد لهم ما سلف من خطر؟

وتمسك لود وحزبه بوجوب طاعة الملك، وأعلنوا أن لا غنى للدولة عن النظام الأسقفي، وأن الكنيسة هي دعامة الملك والمجتمع، فإذا قضى عليها شاعت الفوضى في كل شيء. وكان يعمل لود على العودة شيئاً فشيئاً إلى كنيسة روما في روحها ونظامها ومظهرها، وكان يحارب مبدأ كلفن في القدر المحتوم، ويعضد المبدأ القائل بالاختيار، ويضطهد من يدعوا إلى الاعتماد على الإنجيل وحده بغير رجوع إلى القس، وأمعن لود في الكيد للنيوريتانز، واستعان بسلطة الدولة فأذاقهم سوء العذاب!

على أن فريقاً من المعتدلين وقفوا بين هؤلاء وهؤلاء وإنْ كانوا قلة. ويرى هؤلاء المعتدلون أن المرء حر فيما يفكر فيه، أو فيما يأتي من عمل ما دام يطيع الملك والقس. وكان ملتن أقرب إلى هؤلاء المعتدلين منه إلى متطرفي البيوريتانز؛ فقد كان يجب التسامح ويدعو إليه. وخالف البيوريتانز في تزمتهم ومبالغتهم في الزهد والتقشف. وعنده أن المرء إذا وفي واجب الدين حقه، واستمسك بالفضيلة فلا تحرم عليه زينة الله التي أخرج لعباده. وللناس أن يستمتعوا أيام الآحاد بما يشيع البهجة والمرح في نفوسهم بدل أن يحشروا حشرا إلى الكنائس ويحملوا على البقاء فيها طويلا...

ولكن ملتن أنكر بكل ما في نفسه من حب للحرية على القساوسة تعصبهم واستبدادهم، وألقى بقيثارته من يده على رغمه وخرج من عزلته ليبدأ ضد القساوسة كفاحا ثائرا عنيفا تجلى فيه كل ما في طبعه من إنكار ومقت للتعصب، وكل ما في روحه من تمرد على الاستبداد وميل إلى نصرة الحرية.

حربه على القساوسة

اعتزل ملتن الشعر إلى حين لعله ظنه قريبا، فلم يدر بخلده أن هجران احب شيء إلى نفسه سوف يمتد عشرين عاماً. والحق أن اعتزال ملتن الشعر والأدب على ما كان من فرط تحمسه له وانكبابه على الأخذ بأسبابه، أمر يحمل المرء على العجب الشديد بادئ الرأي، ولكن دواعي العجب لا تلبث أن تزول إذا عدنا إلى خلق ملتن ونزعات وجدانه

خلق ملتن محاربا يحب النضال ويعشق بفطرته الحرية، فلن يستطيع إن يغمض العين عما يرى من خلل أو فساد، ولن يستطيع أن يظل جامداً تلقاء ما يراه ظلماً أو استبداداً بالرأي في غير حق ولو كان في ذلك هلاكه؛ كذلك رأيناه وهو بعد طالب بالجامعة، وكذلك رأيناه وهو يفصح عن عقيدته الدينية في إيطاليا، وكذلك نراه اليوم يوقد نار الحب على القساوسة أو خلق ملتن ديناً تقياً مخلصاً لعقيدته تواقاً إلى الإصلاح، لذلك ركن إلى البيوريتانز في كثير مما ذهبوا أليه، وإن خالفهم في إسرافهم في التزمت ومغالاتهم في النفور من الفنون ومن طيبات الحياة وكانت روح البيوريتانية يومئذ، أو ما يهجس في نفوس أشياعها من الرغبات هو إصلاح الكنيسة كما أصلحت الكنائس في القارة وتقرير مبدا الحرية الفكرية والسياسية، وقد استقرت هذه الرغبة في نفس ملتن وآمن بها أيمانا قوياً واعتقد ملتن كما اعتقد جمهرة البيوريتانز ان القساوسة في انجلترة بتعصبهم لنظام الكنيسة وبمظاهرتهم الملك في عناده وطغيانه هم العقبة الكؤود في سبيل الإصلاح وفي سبيل الحرية؛ لذلك أيقن طالبو الإصلاح أن لا أمل لهم في عمل مجد ألا أن يقضوا أولا على الأساقفة وسلطانهم، ولهذا اقدم ملتن فيمن اقدموا لمحاربة الأسقفية؛ ولهذا اعتزل الارثريادا أو الفردوس المفقود، أو سواها مما كان يملا خيالة من الشعر، وآثر أن يجيب داعي الله بالدفاع عن دين الله

بيد انه على الرغم من حماسته إذ يقدم على مناضلة القساوسة كان يحس في أعماق نفسه عظم تضحيته بهجرانه الشعر، فلقد انقطع له منذ حداثته، وتوفر على الاستعداد والدرس، وامتلأت نفسه طموحا إلى شيء يسلكه في الخالدين؛ وكان هذا الطموح عزاء قلبه وبهجة نفسه وأنس روحه في عزلته القاسية، وفي دراسته الطويلة الشاقة!

ولكن لم يك من هذا الهجران بد، فلم يك يسعه في مثل ذلك الوقت كما قال أن يقف بمعزل (وكنيسة الله تحت أقدام من يهينها من أعدائها)، ولم يك لينجو من عذاب ضميره لو لم يجعل ما اكتسب من ثقافة ومعرفة وقفاً على الدفاع عنها، وفي رأيه انه إذا لزم الصمت، فان الله يؤاخذ بصمته، فلن يغفر الله له أن يقبل الفراغ والقدرة على الدرس، وقد تهيأ له بعروق قوم آخرين، ولا ينفقهما ألا في أن يزين بهما موضوعات هي من فخر الحياة وغرورها، ولكن (إذا كانت قضية الله، وحقت إجابة داعي الله بنصرة كنيسته، فان الله سميع إليك إذ تطلق صوتك..

فان بقيت ابكم كالدابة، حق عليك منذ ذلك الوقت ما تصير أليه من أثم بصمتك الذي يشبه صمت البهائم!) ولئن كان همه أن يكتب موضوعاً يكسب به الفخر، فليس هذا وقته والجيل كله يشترك في صراع من اجل الحرية تتلظى ناره، إن يشهد على الأقل ذلك الصراع، وينتظر الناس وأنفاسهم عالقة ما إذ يكون من أمر هذه المعركة، أو كما قال ملتن (انه لمن الحمق أن تلقى بشيء كتبته جاهداً في نسق عال إلى قوم هم عنه ساهون، إذ يقطع إصغاءهم أليه ما يزخر به عصرهم من ضجيج وصخب). أضف إلى ذلك انه لم يكن يعتقد انه اخذ اهبته لذلك الشيء بعد، فانه يشير إلى ذلك حتى بعد بدء الحرب على القساوسة بنحو عام قائلا: (أني لم استكمل بعد في عقلي دائرة دراساتي الشخصية)!

لذلك يدع قيثارته إلى اجل لعله يكون قريبا يوم يرى وطنه على حد تعبيره: (وقد خلص نفســـه من ذلك الطغيان الذي لم يكن مثل هذا الزمن أوانه، ذلك الطغيان المســتند إلى مقام كبار القســاوســة، والذي لا يرجى لأي فكر حر أو ذكاء المعي أن ينمو ما دام له تجسسه واستبداده) وتمت دافع آخر لا يقل خطرا على هاتيك الدوافع يسوق ملتن إلى تلك الحرب، وذلك هو عظيم ثقته في نفسه وفي الشـعب الإنجليزي، فهو منذ صـغره - كما رأينا - يعتقد انه كفء لعظائم الأمور، - مهما كان خطره - أل ابلغ منه ما يريد: واليوم يخالجه شـــعور أن نفســـه تنطوي على قوة كامنة فيها أن هي أثيرت كانت ذات اثر عظيم في مســتقبل الكنيســة وفي مســتقبل وطنه. والحق أن وراء طموح ملتن أن وراء طموح ملتن نحو العظمة الأدبية طموحا آخر نحو العظمة في ذاتها في آية صورة من صورها، فلا ضير أن تواتيه في صورة الدفاع عن الحرية أو عن الكنيســة، أما ثقته في الشـــعب الإنجليزي فكان مردها إلى انه يرى بني قومه الشـعب الذي اصـطفاه الله على العالمين، وانه تجلى لخلقه من الإنجليز أول ما تجلى، وانهم ســـوف يقيمون على هذه الأرض مملكة الله التي ترى رأى العين ومع شدة حماسه لما هو مقبل عليه نراه ينطبق قبيل دخوله المعركة بما يشعرنا بتردده وإشفاقه، نجد شاهدا على ذلك في قوله بعد أن أشار إلى ما كان فيه من اســتغراق في الأدب والشــعر: (ما اقل ما يحفزني من ميل إلى أن اقطع ما أن اقطع ما أنا بسبيله من مثل هاتيك الآمال، وان اترك عزله هادئة ممتعة تكتنفها تأملات ســارة وثيقة لا قلع بسـفينتي في بحر مضـطرب تملاه والضـوضـاء والجدل الصـــاخب). وهو فضـــلا عن ذلك يحس انه ترك ما يحســن إلى ما لا يحسن مما يزيده شعورا بتضحيته، وانه نسي نفسه وما كان يتحرق أليه من مجد أدبي ليجيب داعي الله، تجد ذلك في قوله: (ما كانت لاختيار لنفسي أن هذا النهج من الكتابة، وأنا على علم باتي هنا على باني هنا دون حقيقتي، فقد أعدتني قوة طبيعية صادقة لعمل آخر: ولذلك فإني في هذا المتجهة الجديد أحس كأنما استعمل يدي اليسرى) ولكنه يسلم إلى الله، انظر إلى قوله: (إذا جاء آمر

الله بان نشـرع البوق وان ننفخ فيه نفخه شـاكية صـاخبة، فلن يدخل في إرادة الإنسـان بعد ذلك ماذا يقول ولا ماذا يخفي في نفسـه). وكلن يؤمن ملتن بان الله سـيثبه على فعله وسـيهبه القوة والأقدام، ويمد له في حياته ليكون بوق النصـر كما كان بوق المعركة، ولقد ظل أثناء المعركة يفكر فيما هو عائد آلية بعد أن تنهى الحرب. والحق أن ملتن قد أفاد من المعركـة مـا لم يخطر ببـالـه عنـد دخولها، ففي أثناء تلك المعركة ما لم يخطر بباله عند دخولها، ففي أثناء تلك المعركة الطويلة تكونت في نفســه ملحمته الكبرى الفردوس المفقود، فكانت كملحمة دانتي عملا ليس قوامه الفصـاحة والخيال والمقدرة الفنية فحسـب، بل أضـيف إلي ذلك تجربة الحياة ومعاناة خصـومتها والوقوف من كثب على عوامل الشـر والخير في النفس البشـرية وفي المجتمع، وتذوق طعم الأمل مرة والأخبية مرة، والنفاذ إلى أعماق العواطف والانفعالات ثم معرفة كيف يكون اليأس القاتم فلا عجب أن يتغنى الشـاعر بعد ذلك بالفردوس المفقود، وقد شـهد فقدان بني وطنه ما كان يرجوه لهم ويرجو معه المصـلحون من حياة في الدين والسـياسـة على الأرض كحياة الفردوس. وفي هذه المعركة تهيأت في نفسـه الملحمة فلم يبق إلا أن يغنيها وان يلبسـها لباس الشـعر: والحق أن المعركة أجدت علية أكثر مما أجدت قراءاته ودراسـاته، إذ اسـتطاع أن يضـيف خبرة الحياة إلى هبة الفن وان يترك أهذه الدنيا آثرا فذا من هاتيك الآثار الخوالد التي يغنيها كل عصـر وتأنس أليها كل بيئة. ومن الخطأ أن نعد ملتن تلك المعركة انتصارا منه لأصدقائه البيوريتا فحسب فان حبة الحرية وميله إلى نصرتها أبدا هو الشعور الحقيقي الذي دفع به إلى الحرب، وكانت غايته التي يصبو أليها أن يعيش الناس طلقاء في أفكارهم وأعمالهم بعد أن يذهب سلطان القساوسة القائم على التعصب والاستبداد بالرأي والاضطهاد، وكان ملتن بحميته وثورة نفسه يمثل في الواقع روح العصـر، ففي العصـر كله ثورة على الطغيان في أي صورة وما كانت فلسفة دينية ووثبة سياسية معا. ومهما يكن عنة من عبارات تشعرنا بترددده وإشفاقه فانه اقبل في حماسة عظيمة وشجاعة فذة بعد أن أبتدأ

النضـال ورأى نفسـه في غمار المعركة، وإنما كان ما خيل آلية أنة تردد أسـفاً منه على هجرانه الشعر والتهيؤ له...

وكيف بـدأت المعركـة؟ لم يكن ملتن البـادئ بهـا وإنمـا بـدأت في البرلمـان الطويل سـنة ١٦٤٠ إذ تقدم البيوريتانز من النواب بمقترح الأصـل والفرع فعندئذ نشـر أحد القسـاوسـة وكان يدعى هول كتيباً سماه (الإعلان المتواضـع) ورد فيـه على مـا اسـماه يم وزملاؤه الإعلان الأعظم كمـا ورد على مقترح الأصـل والفرع؛ وأجاب خمسـة من البيوريتانز سـموا أنفسـهم سـمكتمنس يدحضون فيه ما ذهب إليه هول؛ وكان توماس ينج أستاذ ملتن القديم أحد أفراد الجماعة، ولذلك ظن أن ملتن اشترك في وضـع هذا الكتيب؛ ثم توالت الكتيبات كالسهام من جانب البيوريتانز ومن جانب خصومهم. وشد ملتن قوسه فيمن شد وأطلق أول سهم من سهامه سنة ١٦٤١ في صورة كتيب له أول كتيباته جعل له عنواناً طويلاً هو (حول الإصـلاح الديني فيما يتصـل بنظام الكنيسـة في انجلترة والأسباب التي عاقته حتى اليوم).

كان هذا الكتيب الأول أقل كتيبات ملتن صـرامة في القول وعرامة في الخصومة، وإن كان ليبعد كل البعد عن أن يوصف بالهدوء إلا أن يقاس إلى ما سـيأتي بعده، وحسـب القارئ أن يقع على خاتمته التي يدعو الله فيها أن يجعل العار خاتمة حياة القسيسين على هذه الأرض، وأن يلقي بهم في الدرك الأسفل من النار ليخلدوا فيها وليكونوا في مواطئ غيرهم من أصـحاب الجحيم، وفي صـفحات الكتيب غير هذا من صـارم القول وقاذع الوصـف ما يدل على غل الخصومة واحتدم السخيمة.

أتى ملتن في كتيبه هذا بموجز لتاريخ الكنيسة منذ القدم فلم تعجبه في قديمها ولا في حديثها، وما قساوستها الحديثون إلا مقلدون يسيرون على نهج أسلافهم في مظاهر الصـوم والصـلاة والتظاهر بالزهد، وما كان أسـلافهم إلا ضـالين غاوين، فالقسـيسـون أنفسـهم خطأ في ذاتهم؛ وهؤلاء الحديثون منهم ليسـوا

قسيسين في شيء، ثم يشير إلى النهضة الإصلاحية في انجلترة ويذكر كيف تعثرت ووقفت بسبب تعصب القساوسة والملوك واستبدادهم بآرائهم، ويذكر الناس بهؤلاء الأحرار الذين هاجروا بعقيدتهم عن أوطانهم الحبيبة والذين (لم يكن لهم عاصم من غضب القساوسة إلا المحيط الفسيح وصحاري أمريكا الوحشية)، والرأي عنده أن يقضي على الأسقفية فتذهب إلى غير عودة وتحل البرسبتيرية محلها؛ ولئن تم ذلك أصبحت انجلترة (مدينة الله) وانتشرت الحياة الطيبة في أنحائها طولا وعرضاً، فأن هؤلاء القساوسة منذ حلوا بكنتربري قبل اليوم بنحو أثنى عشر قرناً وهم في جملتهم لم يكونوا في انجلترة لأرواحنا واسفاه إلا سلسلة من أئمة الهداية العميان الجهلاء، ولأموالنا وتجارتنا إلا عصبة متلفة من اللصوص ولدولتنا وحكومتنا إلا هيدرا الإساءة والعدوان).

ويتضمن هذا الكتيب ناحية من نواحي ملتن الدينية وهي ما تصوره عن ذات الله سبحانه، فعنده أن الله لا يحد ولا يوصف بصورة معينة ولا تدركه الأبصار، ولا يفوته هنا أن يتهم الكنيسة بأنها تحاول تحديد ذات الله وتصويره وذلك في رأيه أصل الخرافات جمعيا، يقول عن رجال الكنيسة (كما استطاعوا أن يجعلوا الله ينتمي إلى الأرض وأن يكون له مثل جسدنا، وذلك لأنهم لم يستطيعوا أن ينتموا إلى السماء ولا إلى عالم الروح).

وجاء في هذا الكتيب رأيه لأول مرة عن الشعب الإنجليزي، فهو الشعب الذي اصطفاه الله على العالمين، وخليق بهذا الشعب أن يبرهن على أنه جدير بهذا الاصطفاء، ويعلن ملتن رضاءه عن النظام الدستوري الإنجليزي في ذاته بل إنه ليغلو في امتداحه كل الغلو فيقول: (ليس فيما سلف من الحكومات المدنية نظام كنظام حكومتنا الإنجليزية، لا عند الإسبرطيين ولا عند أهل روما... حيث تجد أعظم الناس نبلا وأكثرهم جداً وأبعدهم نظراً ولهم بمحض إرادة الناس واختيارهم تحت سيادة ملك جر لا قيم عليه الكلمة العليا والرأي الفاضل في أعظم المسائل).

وينتهي الكتيب بابتهال إلى الله طويل حار ملؤه العاطفة الصـادقة أن يخلص كنيسته من هؤلاء القسيسين وأن ينزل عليهم لعناته، ثم يتنبأ بنبوءة فحواها أن فجراً بهيجاً يوشـــك أن ينهل نوره على انجلترة، ولن يعدم ذلك الفجر طائرة الصــداح، فلســوف يتمنى من بين هؤلاء القديســين الذين ينافحون عن دين الله شـاعر يأتي بلحن علوي جديد يشـكر به أنهم الله ويسـجل نصـر الله في مملكة تنعم بنعمة الحرية وقد تخلصت من القساوسة ومجدت شاعرها المختار..

وأردف ملتن هذا الكتيب بكتيب ثان في يوليو سنة ١٦٤١ رد به على (أشر) أحد كبار الأساقفة، وكان كتيبه الثاني صغيرا، وقد عد رده على هذا الأسقف جرأة عظيمة ومبالغة منه في الثقة بنفسه، وذلك أن أشر كان من أوسع الأساقفة أفقا في تاريخ الكنيسة ومسائلها؛ قضى نحو ثمانية عشر عاما من عمره في هذه الدراسة حتى أصبح من أفذاذ طائفته. وقد جادله ملتن جدالا عنيفا، ولجأ إلى المنطق في مجادلته. ومن أمثلة ذلك قوله (ترجع الأسقفية إما إلى اصل إنساني أو إلى اصل الهي، فإن كانت الأولى جاز القضاء أو الإبقاء عليها حسبما توحي المصلحة، وان كانت الثانية وجب أن يقوم الدليل على ذلك من الكتاب المقدس، فانه إن لم يقم هذا الدليل فلن يكون لأي تأكيد إنساني لها أية قيمة يعول عليها)، وبعد أن يعجز ملتن خصمه بمطالبته بهذا الدليل يستعرض ما اعتمد عليه من المراجع فيسفهها ويسخر منها في لغة هي أقرب إلى السباب منها إلى النقد، ولن يخشى ملتن أن يسجل في كتيبه احتقاره لآباء الكنيسة القدامى وزرايته عليهم وعلى كل من يخالفه سواهم فيما يذهب إليه مهما يكن من خطره أو سلطانه...

ولم يلبث أن أعقب في السنة نفسها كتيبه الثاني بثالث، وذلك أن (هول) رد على جماعة سمكتنسي بكتيب جديد يدافع به عن كتيبه الذي سماه الإعلان المتواضع. فانبرى له ملتن وراح يسخر منه ما وسعته السخرية، وجرى في ذلك على طريقة عجيبة، فهو يورد رأيا من آراء هول ويسوقه مساق التحدي في صيغة سؤال أو اعتراض ثم يجيب عليه متهكما ساخرا حتى لا يتورع أن يرد على أحد الاعتراضات بضحكات يثبت صورتها هكذا.. ها! ها! ها! على نحو ما يفعل الطلاب إذ يتجادلون في أمر من الأمور.

ولم يستطع ملتن أن يملك زمام قلمه إذ كان يرد على أحد المتحمسين من الفئة التي يبغضها ويحاربها في عنف بالغ، لذلك جاء من عبارات الهجاء

والفحش بما نعجب كيف يصـــدر مثله ممن كان له مثل ثقافته وأدبه ونفســـه الشاعرة وحسه المرهف، وتلك في الحق عجيبة من عجائب عقله وخلقه...

وفي مستهل سنة ١٦٤٢ نشر ملتن كتيبا رابعاً، وجمع في هذا الكتيب كل ما واتته به ثقافته ودراســـته من المعرفة وكل ما جادت به قريحته من الآراء وساقها جميعا حربا على خصومه القساوسة، وكان في هذا الكتيب أكثر عناية بالشرح والإقناع منه بالسخرية والإقذاع، لذلك جاء خلوا من الحشو بريئا من هجر القول وان لم تكن لهجته فيه اقل حماســة منها في ســالفيه، ولهذا الكتيب الرابع أهمية من ناحية أخرى، وذلك أن ملتن أبان فيه بعض آرائه في الدين والسياسة.

ففي الدين أعلن تمسكه بالبرسبيترية وأنها خير نظام لإدارة الكنيسة، فلا يصح أن يترك لهؤلاء القساوسة الإشراف على الكنيسة فيرتفع بعضهم فوق بعض درجات، ويتخذوا من مناصـــبهم الدينية ســـلاحا للعدوان والطغيان والجشع، وإنما يجب أن يكون المشرفون على إدارتها قوم يرضى عنهم الناس ويختارون بمشيئتهم ويكونون في مناصبهم سواء، وهو في ذلك إنما يشير باتباع نظام كلفن في حماسة وإخلاص.

وذكر أحد القساوسة في هذه المعركة أن آدم هو أول قس، فكان مما رد به ملتن على ذلك قوله: إنه إزاء ما يراه من شـــدة ولوعهم بالقديم في الدفاع عن قضيتهم يوافقهم فيما يزعمونه، بل انه يذهب في القدم إلى ابعد مما ذهبوا؛ فإذا كان آدم في البشـــر هو أول قس، فقد كان إبليس من قبل آدم هو في الملائكة القس الأول. ويخرج ملتن من ذلك بنتيجة وهي أن القساوسة في أصلهم ينتمون إلى الشيطان، فحسبنا من بغض هذا النظام أنه من عمل الشيطان.

ويؤمن ملتن بعقيدة الثالوث على الرغم من فكرته الســـامية التي تجلت في إنكاره تصوير الله وتحديده ويصلي مستعيذا بهذا الثالوث ككل من يؤمن بهذه العقيدة في أصلها.

ويميل ملتن إلى الاعتدال والتسامح في معاملة أهل المذاهب الأخرى من غير البيوريتانز، فوجود هؤلاء المخالفين أمر طبيعي لان هؤلاء يعدون قبل الإصلاح الجديد كالآلام الشديدة التي تسبق كل وضع؛ وما من شيء يتغير من حال إلى حال في عالم المادة إلا بعراكه مع العناصر الأخرى المضادة له، وفي المصنوعات لا بد من ذهاب بعض المادة في التسوية والتهذيب، وما من تمثال من المرمر يقام أو من صرح يبنى إلا إذا أزيل كذلك شيء مما علق به.

ولا يسع ملتن إلا الموافقة على عقوبة الطرد من الكنيسة ولكن على إلا يستعمل هذا الحق إلا بمنتهى الحذر وبعد التحري الدقيق وطول الأناة والوثوق من أن المذنب يستحق تلك العقوبة.

ولا يزال ملتن في كتيبه هذا مواليا للملكية، وغاية ما يسعى إليه أن يتلخص الملك وأن تتخلص انجلترة من طغيان القساوسة. وفي رأيه أن القساوسة هم الذين يوحون إلى الملك الطغيان والاستبداد، لأنهم بتعصبهم وحرصهم على مناصبهم ومغانمهم يكرهون كل رأي حر، ومتى لمحوا رأيا حرا رأوا فيه نذر الفتنة وخوفوا الناس من عواقبه وأشفقوا على النظام والهدوء من الفوضى المزعومة، هذا إلى دسائسهم وسوء مكرهم وافترائهم الكذب على من يخشونه من الناس؛ وانه ليرى فيهم بذلك وبغيره أصلح أداة للطغيان. ولقد اعتادت الكنيسة أن تتخذ من الكتاب المقدس سلاحا تشهره في وجه الحرية، ووسيلة إلى الجشع الذي لا يشبع والطموح الذي لا يقف عند حد.

وجاء في كتيبه هذا فيما جاء من آرائه طعن شديد على الجامعات؛ فما إن يزال ملتن حانقا على الجامعة وأسلوب التعليم بها بعد أن تركها بعشر سنوات، وجاء رأيه عن الجامعات عرضا فهو يعجب كيف أن أناسا علم من أمرهم أنهم أهل ثقافة وعلم يدافعون عن الكنيسة بكتاباتهم؛ ويرد ذلك إلى أنهم اكتسبوا ما يسمونه علما في الجامعات، فقد قصدوا إليها يبتغون المعرفة الصحيحة، ولكنهم لم يجدوا هناك إلا ألوانا من السفسطة وضروبا من تعاليم القساوسة سدت بها

حلوقهم فعاقت دخول الفلسفة الصحيحة، كما حنق أصواتهم إلى الأبد ما امتلأت به حناجرهم من لغو ميتافيزيقي...

وفي سنة ١٦٤٢ نشر القس هول وابنه كتيبا عنيف اللهجة قاسي العبارات وجها فيه إلى ملتن مطاعن شديدة تناولت فيما تناولت شخصه ومسلكه إبان طلبه العلم بالجامعة، وكأنما أراد أن يحارباه بسلاح من أسلحته لكي يذيقاه مرارة المطاعن الشخصية. والحق أنهما أوجعاه وملأ قلبه بكتيبهما هذا غيظا شديدا وحنقا ولا سيما أنهما افتريا عليه ما ليس من خلقه ونسبا إليه ما هو نقيض ما عرف عنه من استقامة وطهر وعفة حرص عليها أشد الحرص سرا وعلانية حتى باتت من أبرز صفاته وأخصها...

اتهمه هول وابنه أنه لسوء مسلكه في الجامعة قد لفظته كما تلفظ الحلوق القيء، فذهب إلى منعزل على مقربة من لندن حيث كان يقضي نهاره في الفسوق والفجور وليله في أماكن ومواخير الفساد، وحيث راح يغازل أرملة غنية بغية الزواج بها.

ورد ملتن بكتيب كان خامس هاتيك الكتيبات فذكر أنه ما كان ليعبأ بما يقولان لولا أنه لصلته بجماعة سمكتمنسي ولإخلاصه لواجبه في القضية التي هو بصددها يحرص على أن يطهر اسمه مما حاولا أن يلصقاه به، ومهد بهذا الحديث طويل عن نفسه يعد تاريخا لحياته حتى ذلك الوقت...

نفى عن نفسه أن الجامعة لفظته، فها هو ذا يجمل شهادة من أكبر شهاداتها، ولقد كان هناك كما يعرف أهلها جميعا موضع التوقير والمحبة، وكان يقضي أصباحه في قراءة أعظم المؤلفين وفي تقوية بدنه بالرياضة، أما أمساؤه فلم يعرف فيها فجورا ولا لهوا اللهم إلا ما كان يشاهده من تمثيل مسرحيات الكلية في كمبردج إن كان يعد هذا من الفجور.

ويشير ملتن إلى عزلته بعد أن ترك الكلية والى دراساته التي أخذ نفسه بها في غير رفق، هنالك حيث قرأ فيمن قرأ أفلاطون وندده زينوفون قراءة درس

وتمحيص و(حيث أعني إذا تكلمت عما علمته من الحكمة والحب الجانب الحق منهما، ذلك الجانب الذي ليس غير الفضيلة كأسه الساحرة التي يطاف بها على من يستحقونها فحسب. أما الذين لا يستحقونها فتطوف عليهم شيطانه نزلت باسم الحب وأهانته بكأس مزاجها شراب مسكر ثقيل؛ وتعلمت كيف تبدأ في النفس وكيف تنتهي فيها أولى غايات الحب وأهمها فتلد توأميها السعيدين: العلم والفضيلة.

ويعد ملتن قارئيه أنه سوف يتكلم عن الحب الصحيح أكثر مما تكلم وذلك (في وقت هادئ لا شتائم فيه، لا في هذه الجلبة القاتمة إذ ينبح الخصوم بالباب كما يتعلمون).

ويعود إلى حيث العفة فيقول: (أن من يحب إلا يغلق دونه الأمل في أن يكتب ما يعظم وقعه في النفس فعليه أن يكون هو نفسه قصيدة صحيحة، أعني مزيجا من أجمل الأشياء وأشرفها بهذه الفكرة يصحبها جمال في طبيعتي وكبرياء شريفة في نفسي ونظرة منى سامية إلى ذاتي سواء فيما سلف من حياتي وفيما استقبل منها؛ بهذا كله لا أزال أعلو على ذلك التدهور العقلي الذي لا بد أن ينحط إلى اسفل منه من تقر نفسه الفسوق والفحشاء).

ويقول إنه قد تعلم كمسيحي أن فقدان العفة في الرجل وهو أكمل الزوجين جنسا وهو صورة الله ومجده، أكثر عيبا منه في المرأة التي هي مجد الرجل فحسب؛ وأن في الجنة ألحانا قدسية لن يفهمها إلا من لم يدنس بالنساء بدنه. وتطرق من هذا إلى قوله انه ككل عاقل يفضل أن يتزوج بعذراء فقيرة على أن يتزوج بأرملة غنية.

وينتقل ملتن بعد الدفاع إلى الهجوم، فيعود إلى التنديد بالأساقفة وجمود عواطفهم وتعصبهم وجهلهم وحماقاتهم على نحو لا يسهل معه أن نقول أيهما كان أقذع لفظا وأفحش هجوا: ملتن أم خصمه هول.

بهذا الكتيب الخامس تنتهي الحرب بين ملتن والقساوسة، وهي جانب من جوانب دفاعه عن الحرية، وهو هنا إنما يدافع عنها أمام التعصب الفكري الذي هو من أشد أعدائها خطرا عليها.

ولا بد من نظرة إجمالية في هذه الكتيبات الخمسة بعد أن بينا موضوع كل كتيب منها والدافع الذي حمل ملتن على كتابته.

يخطئ من ينظر إلى هذه الكتيبات على أنها عمل أدبي، فما كانت في الواقع إلا حربا قوامها الحماسة والعنف، لا يعني صاحبها إلا أن يصيب فيصمى فيهزم، وشتان بين هذا وبين العمل الأدبي الذي يقيمه صاحبه على أساس من الفن وتكون قوامه فكرة إيجابية فيبنى كما يهدم ويتبين ما يأخذ مما يدع، ويتفنن في إبداع الصورة وفي اختيار اللفظ وإحكام النسج لكي يجمع بين وضوح الفكرة وجمال الأداء.

لهذا كان يجمع ملتن في كتيباته هذه بين السمو والإسفاف والبلاغة والركاكة والجودة والغثاثة، والحجة الناصعة والشتائم المقذعة، والفلسفة الرصينة والتفاهة المشينة، والغرض النبيل والطعن الشخصي الوبيل، لا يعنيه إلا أن يؤلم ويوجع ويشفى سخيمة صدره، وأن يكون من وراء كتيباته أثر عميق في أهان الناس ونفوسهم وضجيج شديد يتجاوب العصر صداه. ولقد نجح فيما أراد نجاحا كبيرا فهز نفوس قومه هزا قويا وزلزل القساوسة زلزالا شديدا.

وكان الأسلوب ملتن في الجملة أسلوب الشاعر العظيم إذا كتب على غير أصالة منه في النثر، لذلك كان يأتي بكثير من الصور والآيلة الشعرية في مجازاته وتشبيهاته واستعاراته ويستغرق في المحسنات اللفظية ما وسعه الاستغراق، كما كان يعمد إلى الميثولوجيا أحيانا فيخيل إليك من بعض فقراته أنك تلقاء شعر لا ينقصه إلا الوزن والقافية، على أنك تقع بين الفينة والفينة على صفحات له يشرف بها على الغاية من بلاغة العبارة وإشراق اللفظ ومتانة السياق وبراعة الاتزان بين الجمل والاتساق.

أما آراؤه التي أوردها فيها وإن لم يقصـــد إلى ذلك فترينا أنه كان حتى ذلك الوقت مؤمنا بعقيدة الثالوث في أصـــالتها وإن كان برســـبتيريا من حيث دارة الكنيســـة، بيوريتانياً من حيث المذهب مع شـــيء غير قليل من الاعتدال، ملكيا من حيث الســياســـة، كما ترينا أن أقوى عواطفه يومئذ كانت عاطفة الدفاع عن الحرية وشدة محبته إياها...

على أن حبه الشـــديد للحرية ســـينتهي به فيما ســـنرى من تطور فكره إلى انطلاقه من تلك الآراء جميعا، فينفر من عقيدة الثالوث ومن مثيلاتها من العقائد لأنهـا تســـتنـد إلى العقل ولا تتفق مع مـا يحـب من حريـة الفكر، وينفر من البرســبتيرية لأنها نظام جامد لا تســلم له أن يعيش ويفكر كما يرى، وينفر من الملكية لأنها ســوف تقيم الدليل في الســنوات المقبلة على تمســكها بالاســتبداد وكراهتها روح الحرية.

ولقد كانت هذه الكتيبات آخر ما كتب وقلبه عامر بالأمن ونفســه متطلعة إلى النصــر، فلســوف تنهار الآمال واحدا بعد واحد، فيتزوج بعذراء فيجد الصــدمة الأولى لآرائه وكبريائه في هذا الزواج ويكون من أشــد ما يعكر عليه مســتقبل حياته؛ وتظهر له البرسبتيرية وليست أقل تعصبا وحماقة من الأسقفية؛ ويلتفت باحثا عن الحرية فلا تنزل من الســماء كما أمل واســتبشــر لتجعل من انجلترة مدينة الله على الارض، ويقلب الشـــاعر كفيه في حســـرة ويبتئس قلبه الكبير وتنكدر روحه العظيمة فيفقد الثقة في الأرض ومن عليها ويتجه ببصره صوب السماء، ويلتمس في التغني بألحان فردوسه العزاء.

الزواج والصدمة الأولى

لم يكن زواج هذا الشاعر الفيلسوف أمرا من أمور حياته الشخصية فحسب، يتدبر قصته من يريد أن يستكمل فهم شخصيته ويحيط به من أقطاره، وإنما كان الزواج وما وقع له فيه إلى جانب ذلك حادثا اثر في تفكيره وفلسفته، فعمد إلى توضيح فكره في كتيبات جديدة جرت عليه مخالفة من دافع عنهم من البرسبتيرينز إياه، وأدت به إلى مخاصمتهم ومحاربتهم، ثم استقر اثر ذلك الزواج في نفسه حتى كان ناحية من نواحي فلسفته في قصيدته الكبرى فيما بعد...

في أواخر ربيع سنة ١٦٤٢، ذهب ملتن إلى الريف في غير غرض معلوم اللهم إلا ما ظن أصحابه من طلبه الاستجمام، وقضى ملتن زهاء شهر في قرية فورست هل، وتقع على نحو خمسة أميال من اكسفورد، وهي المقاطعة التي نبتت فيها أرومته فقد كان جده لأبيه أحد الموظفين في الغابات الملكية هناك.

ونزل ملتن ضيفا على ريتشارد بوول، وكانت بين أسرة بوول وأسرة ملتن صلة معرفة ومودة.

وعاد ملتن إلى لندن فما كان اعظم دهشة أصحابه إذ رأوه يأتي ومعه ماري بوول زوجا له، وكانت فتاة في السابعة عشرة من عمرها، وكان هو يومئذ يتشرف على الخامسة والثلاثين؛ ولطالما رأوه عزوفا عن الزواج منصرفا عنه إلى كتبه وشعره، يسرف أحيانا خياله الشاعر ويغلو في وصف العفة حتى ليجعلها في أن يعيش الإنسان أعزب أبدا!

وجاء مع العروس سيدات وفتيات من أهلها فاقمن في بيت ملتن أياما نعمن فيها بما أقامه من زينات ومباهج وأفراح أحاط بها هذا العرس حفاوة منه

بعروسه، وشوقا منه إلى المسرة وقد تحمل سام العيش وقسوته زمنا طويلا في حرب القساوسة ومكابدة الدرس ومعاناة التعليم.

وانصـرف أهل العرس وتركنها في كنف زوجها الشـاعر الفذ والفيلسـوف المرموق المكانة، ولكنها ما لبثت أن لحقت بهن ولم يكد ينتهي شـهر العسـل، الأمر الذي دهش له أصحابه أكثر مما دهشوا لزواجه المفاجئ.

وكانت العروس قد أرسلت إلى أمها تسألها أن تكتب إليها لنحضر إلى بيت أبيها لتقضي هناك بقية الصيف، وما كان أبواها ليجيباها إلى ما طلبت ولم يكد يمضـي عليا شـهر في بيت بعلها، لولا أنهما ظنا أن وراء طلبها سـرا حملها عليه؛ وكان ملتن يعلم ذلك السر فوافق على رحيلها لأنه أيقن أن لا شيء اجدر من نصيحة أمها بان يصلح شأنها ويبث في قلبها شعور الواجب نحو زوجها؛ فرحلت عنه عذراء كما جاءته عذراء...

وحل الموعد الذي حددته لعودتها ولكنها لم تعد، فكتب إليها ملتن فلم تجبه، فأرسل إليها رسولا بكتاب منه فأصرت على صمتها وأهانت الرسول، فوقع في وهمه أنها لن تعود أبدا، وابتأست نفسـه بما فعلت وامتلأ قلبه منها غيضـا وحنقا

وحار أصـحابه في أمرها كما حار من كتبوا حياته من بعد إلى أي شـيء يردون مسـلكها أكان ذلك منها لأن زوجها بيوريتاني من أنصـار البرلمان في حين كان أبوها من اتباع الملك وأنصاره وقد اشتعلت نار الحرب بين الجانبين؟ أم كان ذلك لأنها كانت من قبل في موطن يعج بالحياة والإنس حيث كان يغشى جند الملك بيت أبيها بين الفينة والفينة فتقع عيناها هناك على وجوه جديدة وتسمع أنباء جديدة، فانتقلت منه إلى بيت شاعر عاكف على كتبه وأوراقه تشيع في أنحائه الوحشـة ويسـد السـكون ولا تسـمع فيه من الأصـوات إلا بكاء من يضـربهم ملتن منى طلابه؟ أم نال من كبريائها أن أباها كان مدينا لأسـرة ملتن بمبلغ من المال عجز عن أدائه، فإن دخله من أرضـه ومن مال زوجته لم يكف

نفقات عيشه إلا بجهد نظرا لكثرة عياله ولما كان يهبط داره من الجند وغيرهم من أنصار الملك؟ أم خيل إليها وهي ابنة سبعة عشر عاما لم تحس بين يدي زوجها وقد كان عمره ضعف عمرها ما كانت تحس به لو أنها كانت بين يدي شاب في مثل سنها؟ أم إن ما بينها وبين زوجها من تفاوت عظيم في الثقافة ومن اختلاف في النظر إلى الحياة نتيجة لهذا التفاوت قد جعلاها تخجل من نفسها وتحس ضآلة شخصيتها إلى جانبه وتشعر أنها غير حقيقة بان تدخل على نفسه من السرور ما يطمع فيه رجل من زوجته؟

كل أولئك في الواقع كان خليقا أن يلحق الفشل بهذا الزواج. ما أهل العروس فقد عولوا ألا يردوا هذا الفشل إلا إلى الخلاف في السياسة والدين بينهم وبين ملتن البيوريتاني البرسبتيري الذي يميل إلى جانب الرؤوس المستديرة كما كان يسمي جند البرلمان بينما هم ينحازون إلى جانب الفرسان كما كان يسمي جند الملك في هذه الحرب الأهلية الدائرة الرحى على أنهم يحسون بينهم وبين أنفسهم إن ذلك لا يكفي وحده للمباعدة بين الزوج وبين عروسه على صورة لا تكون إلا لنفور أحدهما من الآخر نفورا لا تجدي معه حيلة، ولا تفسره إلا تلك الأسباب التي ذكرناها مجتمعة، فقد انقضي شهر العسل ولم يقضي منها وطرا، وكان النفور من جانب العروس لأن الزوج ظل يدعوها بكتب متلاحقة لتعود إليه فلم يجد منها إلا إعراضا وإصراراً.....

وحق اللوم على ملتن فهو الذي اختارها زوجة له، وكان جديرا أن يتدبر ما كان بينها وبين أبيها من فوارق وما بينه وبينها من تفاوت؛ على أن عين الحب عمياء كما يقول شكسبير، وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما يقول أبو الطيب، وقد كان ملتن كما رأينا في سالف مواقفه سريع التأثر بسر المرأة يتهافت على ما يصوره له خياله الشاعر من الجمال تهافت الفراشة على الضوء، فقد احب كما علمنا من أمره وهو في صدر شبابه فتاة وقعت عليها عيناه لأول نضرة في زحمة لندن ولم يراها بعد ذلك أبدا، حتى لقد عول على

الهرب من لندن مخافة أن تصـيده سـهام كيوبيد. ولقد تعرض لهذه السـهام في إيطاليا كما رأينا، وما زال يتحاماها وهو الحريص على عفته حتى وقعت عيناه على هذه الفتاة الريفية وكانت تهجس أحاديث الزواج في نفســـه كما تبين في رثائه صـــديقه ديوداتي، فاقبل على الفتاة وقطع أمره في غير روية، فما به خوف اليوم من كيوبيد والمسالة مسالة زواج - وهكذا تصيده السهام ويملك قلبه الحب

واختلف مؤرخو حياة الشـــاعر في هذه الفتاة أكانت جميلة ســـاحرة أم كان حظها من الجمال بحيث لا يصـل إلى حد الفتنة؟ فمنهم من يؤكد سـحر جمالها، وحجته أنها لو لم تك كذلك ما بلغت من نفس الشـاعر بمثل السـرعة وهو الذي لا تخطيء الجمال عيناه. ومنهم من يؤيد الرأي الآخر وحجته أنه لم ترد فيما ذكر الشـــاعر عنها إشـــارة إلى ســـحرها، وما افتن ملتن منها إلا بما رآه من وداعتها وخفرها ونظرة الريف في محياها وجسدها، والشاعر خليق أن يضيف بخياله إلى محاسنها جمالا فترى عيناه فيها ما لا يرى غيره من الناس. على أن هؤلاء وهؤلاء لا يتجاوز كلامهم الاســـتنتاج فلم يقع أحد منهم على دليل لما يقول؛ ومهما يكن من شـيء فإن عين الحب عمياء وعين الرضـا عن كل عيب كليلة، ولقد كان ملتن تلقاء فتاة قروية في السـابعة عشرة إلا تكن فارهة الجمال فقد كانت في روعة الشـباب، وقد جمع للزواج عزمه، فما اسـهل أن تريه عيناه فيها من معاني الجمال والطهر والعفة في بيت أبيها الريفي ما يتغلب في خياله الشاعر على كل عقبة...

ولقد اقض الألم مضجعه لهذا الفشل وقد كان يطمع أن يسكن إليها ويجد بين يديها مودة ورحمة، كما ملأ الحنق نفســه لما أصــاب كبرياءه برفضــها العودة إليه وإهانتها رسـوله، وقد كان يظن أن نصـيحة أمها وحزم أبيها سـيعودان بها إلى الصواب...

ولا ريب أن ملتن كلن يستشعر في نفسه الخجل والندم كما استشر الألم، وذلك أن اختياره ماري بوول متأثرا بمظهرها على هذه الصورة العاجلة إن هو إلا اندفاع العاطفة في فورة من فوراتها، وإلا فماذا دفعها إلى هذا الاختيار ولم يك يعرف ماري بوول من قبل حتى يظن أنه انس فيها من الصفات ما يهتم به شاعر مثله كالذكاء والثقافة وبراعة الحديث وما يتصل بها؛ وكان خليقا وهو الذي طالما افتخر بامتلاكه زمام نفسه وطالما اعتقد أنه قادر على كبح جماح عاطفته أبدا، أن يندم ويألم فقد سيطرت عليه عاطفته، وتغلب الجسد في نزوعه الشديد نحو رغبة له اتقدت، وليهت حقق بالزواج تلك الرغبة؛ فلئن تزوج فما هو بمتزوج إذا صح هذا التعبير، ثم أنه أخذ يطفئ في نفسه جذوة جسده ووقدة عاطفته مستعينا بالصبر والصوم؛ ولقد اثر انقياده لعاطفته على هذا النحو على ما كان فيه من كبرياء أثرا عميقا في حياته وفكره سوف يظهر في فلسفته وفنه.

ومما زاده غما وألما أنه كان بعد أن هجرته زوجه لا يستطيع بالضرورة أن يتزوج غيرها، وهذا في ذاته قيد ظن؛ وهل كان يستطيع أن يحمل نفسه على قبول هذا القيد لأن الدين أو لأن الكنيسة تحول بينه وبين الطلاق إلا وفق شروط معينة؟ ومتى خضع إلا ملا يهديه إليه فكره، وقد نزع إليه وجدانه وتعلق به إيمانه؟ وإذا كان هو نصير الحرية الذي دافع عنها أمام تعصب القساوسة فكيف يتخاذل عن نصرتها الآن؟ ألا يستطيع أن يدع الجانب الشخصي من فشله في زواجه فلا يتعرض له ثم يخلق من الحادثة في ذاتها موضوعا عاما؛ فيكتب دفاعا عن الحرية في ناحية من نواحيها واعني بها الناحية الشخصية؟ بلى أنه لقادر على ذلك وأنه لفاعله، وأنه لنصير الحرية الشخصية اليوم.

ويمكننا أن نتصور حالته النفسية في هذا الموقف، فهذا رجل ذو كبرياء وأنفة، طالما افتخر بتغلبه على شهوات نفسه، وقد عاش حتى الخامسة

والثلاثين من عمره عيشة الطهر والعفة مستعينا بعزم المصمم على قهر وساوس الشباب، يسمو في طهره على الناس ليكون أهلا لرسالته التي يستشرف لها، ويقبل على دراساته ليتهيأ إلى ما يتطلع إليه، ثم إذا به يجد نفسه، وقد ارتطم في ورطة بسبب انقياده لعاطفته بعد طول امتنع، ولئن كلن ما وقع فيه لم يعد كونه أمرا مشروعا هو الزواج، إلا إن فشله في اختيار زوجته كان نتيجة تسلط عاطفته على عقله أو تغلب جسده على روحه، وان ذلك ليشعره بينه وبين نفسه أنه لم يعد إنسانا كسائر الناس؛ ولكم نال ذلك من كبريائه وادخل الغم على نفسه، فضلا عن أن ما انتهى إليه إنما هو حد من حريته.

على أن كبرياءه تأبى عليه إلا أن يلتمس مخرجا لنفسه فما يطيق أن يذعن، ويجد ذلك المخرج في تقريره إن العاطفة في ذاتها من الأمور المشروعة التي وضعها الله في الإنسان، وما لم تنطوي على جريمة فلن يضير المرء أن تقوده إلى خطا؛ ويستنكف أن يشير إلى مسألته الشخصية، فيعمد إلى فلسفة عامة في الزواج والطلاق ينفس بها عن نفسه ويراب بها ما تصدع من كبره، فإذا كانت العاطفة أمرا مشروعا فوجب أن تكون العلاقة بين الزوجين على أساسها، فيكون الزواج اتفاق عاطفتين أو التقاء روحين، فإن كانت العلاقة على غير هذا الأساس، وكانت مجرد التقاء جسدين، أو كانت العاطفة لا تقابلها مثلها في الناحية الأخرى بطل الزواج ووجب الطلاق؛ وهو إنما يبتكر بذلك سببا للطلاق لم يتجه إليه أحد من قبله، ومرده إلى المنطق لا إلى شريعة سماوية أو قانون بشري؛ على إن كلامه هذا في الوقت نفسه ينطوي على تأنيب منه وزجر لنفسه، وإلا فهل فكر قبل اختياره مالي هل كانت عاطفتها تجاوب عاطفته، أم كان الأمر أمر افتتان بها لم يتمالك عندها نفسه؟ وإذا فهو الملوم وحده.

ولكنه يقدر وقوع الخطأ، فقد يخدع الإنسان فيمن يخطبها لتكون زوجه، ويحس أنها تبادله عاطفة بعاطفة؛ فإذا وقع الخطأ فعلا فما السبيل إلى تجنب ما

يجره ذلك الخطأ من عواقب هي شر منه فلا سبيل في رأيه غير الطلاق، وإلا فكيف يتباعد الزوجان ولا يستطيع كلاهما أن يتزوج غير الآخر؟

بهذه الآراء البالغة الجرأة والخطر في أمر له أهميته وخطورته في المجتمع قذف ملتن الناس في كتيب نشره في أغسطس سنة ١٦٤٣ وسماه (قانون الطلاق ونظامه)، ولم يك غافلا عما كانت مثل هاتيك الآراء خليقة أن تثيره من سخط وغضب ودهشة تشبه الجزع في الأوساط جميعا، ذلك أنه كان يدرك أنه كان طلعة في تناول الموضوع على هذا النحو، ولكنه كما يقول الإنجليز احرق القوارب كلها من ورائه وليس يبالي أيبلغ ما يريد أم يهلك دونه.

ويزخر هذا الكتيب بحماسة شاعر عظيم تدفعه للكلام روح قوية نبيلة وألم يمنح جوانحه لما لحق كبرياءه، وغضب عاصف كما هاج البحر ثائر كما تأججت النار، ولذلك تقع فيه على مظاهر الحماسة قوية رائعة، فيرسم الشاعر طائفة من المثل العليا للحياة الزوجية، ويصور الألم والخيبة التي تعقب الزواج الفاشل، ويبدع إذ يستند إلى العقل والمنطق في براهينه، وإذ يسوق الأدلة التي تؤيد رأيه من الإنجيل، وإذ ينقض ما ينهض فيه حجة عليه، ويبلغ ذروة الإقناع والفصاحة إذ يدعو إلى تحرير العقل من حرفية القانون، وهو في ذلك كله يصل من البلاغة إلى ما لم يصل إليه في كل ما كتب قبله، والحق انك تجد في هذا الكتيب ملتن الرجل وملتن الفيلسوف وملتن الشاعر على خير ما يكون من حالاته في ذلك جميعا وإنْ كان النثر وسيلته وأداته.

وكان يعتقد ملتن أنه خرج من الشؤم الذي لحقه بخير يسوقه للناس جميعا، فهو يخيل إليه أن ما انتهى إليه من رأي في الطلاق إنما هو خلاص للبشر من قيد بغيض ظالم يوبق أرواحهم ويريهم مثل حياة الجحيم في هذه الدنيا، وذلك هو معيشة الزوجين معا على رغمهما لأنهما ارتبطا برباط الزواج.

وكانت تحف عنه آلام نفسه كلما ذكر أنه إنما يكتب ما يكتب ليخفف عن الناس آلامهم، فلا ضير أن يتحمل الألم ما دام الناس سيفيدون مما حاق به من

سـوء المصـير، على أنه أنفة منه وتكبرا حريصـا على ألا يشـير بشـيء إلى مسألته الشخصية

وفي فبراير سنة ١٦٤٤ أعاد ملتن طبع الكتيب ورتبه. فقد عاب الناس طبعته الأولى، وقدم ملتن لطبعته الثانية بمقدمة فزعه فيها إلى البرلمان أن يؤيد آراءه فيصدر بها قانونا مدنيا للطلاق، وإلى مجمع البرسبتيرنز أن ينظر بما يقول نظرة العطف فيسدى إلى المسيحية صنيعا يبقى على الدهر... ولا يفوته إذ يلجأ إلى البرلمان أن يشير إلى رسالة انجلترة في هذا العالم، فلئن اعتنقت انجلترة ما يذهب إليه من رأى ذاع هذا الرأي حتى يملأ الدنيا، ويهيب بالنواب قائلا بعد أن يسرد الأمثلة على سبق انجلترة في العلم والدين (لا تدعوا انجلترة تنسى سوابقها في تعليم الأمم كيف تعيش)، ولا يفوته كذلك أن يلجأ إلى الاسبتيرنيز أن يمتدح ما اجتمع في مجلسهم من تقوى وعلم وحصافة.

كانت الفكرة الأساسية في كتيبه (قانون الطلاق ونظامه) هي أن الزواج والحب يجب أن يكون أساسهما التوافق والانسجام العقلي والروحي بين المرأة والرجل، فإذا لم يتحقق هذا التوافق في الشعور والفكر بطل الزواج، وكان الطلاق من حق الرجل متى طلبه.

وللدفاع عن هذه الفكرة الموجزة بسط ملتن القول فنظر في الزواج قديما وحديثا، وأستعرض أراء الأقدمين، وأراء آباء الكنيسة الأولين، وراجع ما جاء في الإنجيل ليأتي بما يؤيد رأيه، ثم عمد إلى المنطق بعد الدليل النقلي فدافع عن رأيه في قوة وإيمان، وأتى بطائفة من الآراء استقر بعضها في نفسه حتى ظهر كجانب من فلسفته في قصيدته الكبرى فيما بعد.

اشتدت ثورة ملتن على الجسد وفتنته وما في سيطرته من شر وضلال؛ ولكنه أكد أن قهره في استطاعة أولى العزم من العقلاء الذين يغلبون الحكمة على العاطفة، وما يسلم ملتن بغلبة الجسد أبداً وتسلطه على العقل والحكمة وهو الذي تسلط جسده مرة في فورة من فوراته على حكمته الوثيقة وعزمه الطويل، وإنما يعبر بهذا الإنكار عن ثورته الكامنة في نفسه على الجسد وقد بقي هذا

المعنى في حســـه حتى كان حديث غواية آدم في (الفردوس المفقود) وما كان لسحر المرأة من أثر في هذه الغواية.

وساق ملتن هذا المعنى إلى معنى آخر، وذلك أن الشر هو أن تتغلب العاطفة على العقل وأن يضـــل الوجدان البصـــيرة، أما العاطفة في ذاتها والوجدان في ذاته فلا ضـــير منهما، ولا يحق اعتراض ســـبيلهما إلا أن يطغيا على الحكمة؛ فإن لم يفعلا فليتخذا جمراهما طليقين...، وما كانت قصـــة هبوط آدم من الجنة إلا قصة تسلط العاطفة على العقل.

ويطبق ملتن ذلك على الزواج فيقول إنـه إذا لم يتم التوافق العـاطفي بين الزوجين، فإن الاتصال الجسدي ضرب من انحطاط البهيمية حتى مع الزواج؛ وعلى ذلك فإن الإحســـاس بفقدان الميل بين الزوجين أو بالقصـــور العقلي من أحدهما تلقاء الآخر، أو بتنافر العقلين، تلك العلل التي يكون مردها إلى أسـباب في طبيعة النفس لا يمكن تغييرها، إنما هي مبررات للطلاق أوجه من الجمود وأحق، فالطلاق أمر يرد من حيث مشـروعيته إلى ضـمير الإنسـان، ولا وجه عنده لأن يخضع الإنسان لعبودية قانون الكنيسة الذي يجعل الإثم المادي أعظم من الآثم العقلي والروحي وأشد خطرا.

ولا يسع من يقرأ هذا الكتيب إلا العطف على الشاعر إذ يعبر عن مقدار ما يحيق بالنفس من عذاب إذا مني المرء بالفشـــل في زواجه ولم يتح له ما يتطلع إليه من وراء الزواج (من حديث طيب ملؤه السرور بين الرجل والمرأة يريحه وينعش نفسـه بعد ما ذاقه من مسـاوئ العزلة) وما أشـد ألمه وأقسـى خيبته (إذا كان نصـيبه زوجة خرســاء لا روح لها فانه يظل أكثر من عزلة من ذي قبل، ويبقى في تحرق وشوق أشد على طاقة المرء من التحرق الجسدي وأدعى منه إلى التفكير فيه والاهتمام به)، ويصف الشاعر هذا التحرق وصفا شعريا بقوله (أن المـاء الغزير لن يطفئـه لا ولا الفيض يغرقـه)، وفي التطلع إلى مثل تلك السعادة الزوجية وإلى مثل ذلك الحب الصحيح (يقضـى المرء أيام شبابه وليس

فيها ما يلام عليه)، ويجهل بذلك كثيرا مما كان خليقا أن يرشـده متى شـاء أن يختار زوجة فيدع هذه ويأخذ تلك عن بينة كما يفعل عند الزواج من قضـوا صدر شبابهم فيما لا يخلو من اللوم ثم إذا به يجد نفسه (مقيدا قيدا وثيقا إلى من لا تجاوب بينها وبينه ولا تواؤم بين طبعها وطبعه، أو كما يحدث غالبا إلى صـورة من الطين تطلع من قبل ليكون شـريكها في اجتماع حلو ملؤه الفرح، ويجد في النهاية أن قيده لا انعتاق منه؛ ومثل هذا حتى لو كان أقوى مسـيحي فانه لا مناص على أهبة أن ييأس من الفضـيلة ويقنط من رحمة الله، وهذا بلا ريب سـبب ذلك الفشـل، وذلك اليأس الحزين الذي نراه في طائفة كثيرة ممن يتزوجون)، ويصـور ملتن بخيال الشـاعر مقدار ما يكون بين زوجين في مثل تلك الحالة من خلاف بقوله: (حين تتنافر أفكارهما وروحاهما وتتباعدان كلاهما عن الآخر كبعد ما بين الجنة والجحيم).

ويتسـاءل ملتن كيف يتسـنى الاختلاط الجسـدي الوثيق بين زوجين يكره أحدهما الآخر كرهاً شـديداً فعالاً، ويود لو يعتزله اعتزالا ثم هو يعيش معه أبداً؟)؛ وينزه ملتن الله عن أن يكون ذلك قصده من الزواج فيقول: (هل فتح الله لنا ذلك الباب الذي يكون منه الخطر والمباغتة، باب الزواج ليغلقه من دوننا كما يغلق باب الموت فلا تراجع ولا أوبة؟)، ويعود إلى تصـوير ما يؤول إليه مثل ذلك الزواج الفاشل فيقول (لا بد أن يفضي ما لم تقع معجزة من معجزات الصبر في كلا الجانبين، لا إلى ألم مرير، وحنق شديد فحسب، وهما مما يوبق الإذعان لله، بل إلى استهتار يائس فاجر، إذ يجد المرء نفسه في غير ذنب من جانبه قد جرته نوبة من الخداع إلى فخ من فخاخ الشقاء).

وماذا عسى أن يصنع من مني بمثل هذا الجد العاثر؟... أيتسلل إلى سرير جاره كما يتبع عادة في مثل هذه الخيبة؟ أم يدع حياته النافعة تذهب هباء فيما لا يجدى؟ كلا؛ إن الأقرب إلى الرجولة أن يقضى على شقائه بالطلاق، فانه إن بقي على ما هو عليه ولم يستطع أن يحسب جلب على نفسه جديدا من الضر،

ولذلك فإن من يعمل على فصـــم تلك العروة إنما هو ذلك يعلي قدر الحياة الزوجية ولا يقبل أن يشينها.

ويرى من يقرأ كتيبه هذا أن الناحية العاطفية أقوى فيه من ناحية المنطق، ومرد ذلك إلى أن الشـاعر إنما يصـف ما عانى من ألم نتيجة لما رزئ به من خيبة، فهو يتحدث حديث الخبير، كما أن حديثه هو إلى الشكوى أقرب منه إلى الدرس وفي ذلك سحره وقوته.

ولئن أبت عليه كبرياؤه أن يشير إلى ذلك، فإن من يقرأ عباراته وليس يعلم قضـــية زواجه خليق أن يحس تلقاء ما تزخر به من حياة وحرارة أنها متنفس نفس متألمة، وشكاة قلب معذب. وكذلك ينم عنه في كتيبه هذا تلمسه العلل لمثل ما وقع فيه من خطأ، فكل امرئ عرضـة لأن تخدعه المظاهر فتجره إلى ما لا يحب (وإن أكثر الناس عقلا وأقواهم تمكنا من أزمة نفوســـهم هم أقل الناس تجربة في مثل هذه الأمور وأجدرهم ألا يعرفوا أن ما تقع عليه أعينهم في عذراء من صمت خجول إنما يخفى وراءه ذلك الجمود وذلك الكسل الطبيعي الذي لا يصلح قط لحوار) وتكاد تلخص هذه العبارة قصة زواج ملتن بماري يوول فإنه كما ذكرنا لم يك يعرفها من قبل ورأى في صـــمتها وقد مال إليها عذراء فحسب...

ومما يتعلل به ملتن من طرف خفي إشـــارته إلى عقيدة القدر المحتوم فهو يؤمن بها اليوم وإن أنكرها غدا؛ فلن يفر المرء مما قدر عليه وينطبق ذلك الزواج بالضرورة كما ينطبق على غيره.

ويجد ملتن في هذه القضية فرصة لتجديد طعنه على القساوسة فيقول إن ما يدعيه البابا ورجال الدين من اختصـــاص في أمور الزواج إنما يقوم على الاغتصاب، فإن الزواج والطلاق من اختصاص رب الأسرة كما قضى بذلك الله، وكما تقضـى طبيعة الأشياء وكما ارتضـى المسيح، ولكن بابوات روما اغتصبوا ذلك الاختصاص (وقد رأوا ما يصيبون من مغانم ومن سلطة تفوق

سلطة الأمراء أنفسهم من وراء قضائهم في هذه الأمور وإبرامها) وينتهي ملتن إلى قاعدة سوف تنمو في ذهنه وتسع مداها في فكره ومؤداها أن لا قانون يتقيد به الرجل الحكيم.

ويبين ملتن مبلغ ما يسديه المشرعون من خير إلى الإنسانية إذا أخذوا بآرائه في الطلاق. فيقول: (إنهم بذلك يرفعون كثيرين ممن لا حول لهم من المسيحيين من أعماق الأسى والحزن حيث لا قبل لهم قط بأداء أية خدمة لله ولا لأحد من عباده، ويخلصون كثيرين من نفوذ الطوائف المظلمة المضطربة، وينقذون كثيرين من الإباحية البهيمية الجامحة وكثيرين من الشقاء الموئس ويعيدون الإنسان إلى كرامته الصحيحة وإلى حقه الطبيعي؛ ويعودون بالزواج من وضعه الحالي كفخ من الفخاخ ومسألة من مسائل الحظ يأتي منها الخطر إلى حالته المرجوة إذ يكون المرفأ الأمين والملجأ الاجتماعي السعيد.

وفي يوليو سنة ١٦٤٤ نشر ملتن مقالاً مطولاً جعل عنوانه (رأي مارثن بنسر في الطلاق)؛ ورد بهذا المقال على مخالفي آرائه التي تضمنها كتيبه (قانون الطلاق ونظامه)؛ وقد أخذ هذا الكتيب يثير عليه سخط البرسبتيرينز حتى أنهم شدوا عليه النكير في كنائسهم، ووضع مجمع وستنسر اسم كتيبه في قائمة الكتب التي لا يصح أن تقرأ واعتبر مؤلفه من الخوارج أو (المستقلين)؛ وطلبوا إلى نقابة الطابعين أن ينظروا في أمره ليلقى جزاء طبعه كتيبه بغير تصريح مخالفا بذلك قانون الطبع؛ ولكن التجاءهم إلى قانون الطبع ورغبتهم في مصادرة كتيبه لم يجدهم شيئا فقد أوشكت أن تقع مقاليد السلطة في انجلترة في يد كرمويل وأحس الناس أن فجر الحرية يوشك أن ينهل على البلاد نوره.

وستتسع مسافة الخلف بينه وبين البرسبتيرنز فيكون هذا الخلف هو الصدمة الثانية لنفسه بعد الصدمة الأولى وهي فشله في زواجه؛ ويرى بعض المؤرخين أن غضب البرسبتيرنز عليه، ونعتهم إياه بنعوت سوف نذكرها في حينها كان آلم وقعاً في نفسه من هجران زوجته إياه...

ونشـر ملتن في مارس سـنة ١٦٤٥ كتيبا أخر بعنوان (تتراكوردون)، وفيه تعرض للفقرات الأربع الشهيرة المتصلة بالطلاق في الإنجيل، وراح يفسراها أو يؤلها حسـبما يذهب إليه من رأي في الطلاق، وقد تعسـف في ذلك ولقي عسـرا شـديدا، ففي نفسـه من الآراء ما يخالف كثيرا مما ذهب إليه مفسـرو الإنجيل الأقدمون ومن أخذ أخذهم من المحدثين، وهو في الوقت نفسـه يريد أن يستند إلى الإنجيل ويتخذ منه سلاحه.

ويجمع هذا الكتيب كما يجمع سـالفه (قانون الطلاق ونظامه بين العبارات المنطقية الجافة العسـيرة، وبين الفقرات العاطفية البليغة التي يصـل فيها ملتن إلى ذروة الجمال الفني في النثر حتى ليجعل التي ناقدا فذا مثل مكولي يقرر أنه يصـل من البلاغة في كثير من نثره هذا إلى ما لا يتقاصـر عن مستوى شـعره في أعلى نسق آه. والحق أنه ملك ناصية البيان، إذ عاد يصور في هذا الكتيب حال الزوجين منيا بالفشـل في زواجهما. تجد ذلك في مثل هذا القول: (انهما يعيشان كما لو كانا ميتين، أو كما لو كان بينهما عداء قاتل، وهما بعد في قفص معا)؛ وفي مثل قوله: (أن العقل الذي لا يوافق عقولنا أبدا، والذي هو دائما على نقيض ما نذهب إليه، إنما يسلمنا إلى حالة هي أسوا من العزلة في اشد وحشتها) وفي عبارة كهذه: (هذا الحارس المخيف القائم على الباب لا يلبث وقد جر الرجال واعقل من في الرجال، وانتظمهم بخداعه القاهر في سـلك الزواج الفاشـل، أن يغلق أبواب الجب عليهم، فلا رجعة منه كما لا رجعة من القبر). وفي مثل هذه الفقرة إذ يقول: (تعلق بزوجة، ولكن على أن تكون زوجة، لا أن تكون عدما أو عدوا أو هاجرة تعتزلك، أيمكن أن يبلغ قانون من البعد عن العقل كأن يدعوك لتتعلق بالكارثة والدمار والفناء؟)

وكما عرض ملتن طائفة من آرائه الفلسـفية في كتيبه السـابق، نراه يعرض هنا كثيرا من تلك الآراء، وبعضها تكرار لما سلف والبعض جديد، ومن إهمال

رأيه في المرأة، وفي فكرة الزواج الأولى كما أرادها الله، وفي مبلغ قدرة القانون على منع الإثم، وفي نصوص الكتاب المقدس كمرجع يتقيد الباحث به.

أما عن المرأة فقد كان البيوريتانز كما كان أتباع كلفن في أو ربا يرون فيها مخلوقا دون الرجل كل شيء، وأن الرجل هو سبب ما خلق الله من خلق، وما خلقت المرأة إلا معينا له، فهو أنبل منها وأكرم؛ وكانت منزلة المرأة سامية في عهد الفروسية، إذ كان من أشهر ما يتحلى به الفرس احترام المرأة والأخذ بيدها وإفساح مكان الصدارة لها في كل اجتماع، ومخاطبتها بألقاب التبجيل، وإظهار كل ما يشعرها بالعزلة ورفعة الشأن، وكانت تقاس من لباقة الفارس وفروسيته بقدر ما من النجاح في هذا كله؛ ولكن البيوريتانز كرهوا الفروسية، لأنها في رأيهم من صنع البابوية ومن مخلفات الكاثوليكية، وكرهوا كل ما كان منها بسبب، ومن ذلك مكانة المرأة في تقاليدها، ولم يقتصر ما كان بين أصحاب الرؤوس المستديرة وبين الفرسان من خلاف على عداء الأولين للملك، وولاء الآخرين له، وتنابذ الفريقين لما يتصل بالدين من سبب، وإنما كان الخلاف كذلك شديدا بسبب نظرة كل منهم إلى الحياة الاجتماعية، وعلى الأخص مركز المرأة، فقد ظل الفرسان الكاثوليك على ولائهم للمرأة والسمو بمكانتها، بينما عمل البيوريتانز على العودة بها إلى ما قبل عهد الفروسية، والنظر إليها كمخلوقة تخضع للرجل وليس لها إلا أن تعينه فيما يقوم عليه من شؤون الأسرة، وأن توفر له أسباب الراحة، وتكون له متعة، وله دونها الرأي والقوامة...

وحار ملتن بين المذهبين، وتنازع عقله ووجدانه، فلئن كان بيوريتاني المذهب يكره الكاثوليكية والقساوسة كرها شديدا، فهو كذلك الشاعر الحر النظرة الواسع الأفق، الذي عشقت روحه الحياة في ربيع العصر الالزابيثي، أو هو أخر الأليزابيثيين كما أحب أن يسميه بعض النقاد، وما يستطيع أن ينظر إلى المرأة تلك النظرة الجافة المعبرة عن التزمت وضيق الأفق!

وهدته حيرته ببعد طول النظر إلى أن يوافق بين منطق عقله ومنزع وجدانه، فجعل للرجل المكان الأول في الأسرة والمجتمع، ووضع المرأة في موضع دون موضعه، ولكنه لم يقصر وظيفة المرأة على عونه والعمل على راحته، وإنما جعل العلاقة بينهما علاقة مشاركة عقلية وروحية قوامها المشاركة بين العاطفتين مما يوثق أواصر المودة ويمكن أسباب السعادة بين الزوجين، ولقد جعل مثل هذه العلاقة كما رأينا أساس الزواج، وإلا كان الطلاق أمرا مقضيا...

ويرى ملتن أن الغرض الأول من الزواج حاجة الرجل إلى صلته بالمرأة صلة جسدية وعقلية وخلقية، فما يبلغا كمال إنسانيتهما إلا بهذه الصلة، وما يتم إحداهما إلا بالأخر، وما يكتمل بأس الزوجين إلا متصلين، ولن يزال الرجل في عزلة موحشة مهما يحط به من الناس حتى يتزوج.

ويرجع إلى آدم فيفسر وصف الله سبحانه إياه بالوحدة في الإنجيل بحاجة إلى المرأة، أو إلى الزوجة على الأصح، يقول في ذلك: (يراد بقول الله (وحده) هنا أنه وحده بغير امرأة، وإلا فإن (أدم) كان يحظى بجوار الله ذاته، وكان يحيط به من الملائكة رهط يكلمهم ويكلمونه، والخلائق جميعا تبهج نفسه بما تجد وما تلهو، والله قادر على أن يخلق له مما خلقه منه ألف صاحب، وألف أدم له اخوة يصحبونه، ومع ذلك كله دعاء الله حتى وهبه حواء وحيدا)

وإذا كان الرجل لا يستغني عن المرأة، ولا المرأة عن الرجل، فلا رباط بينهما إلا الحب، أي لا زواج إلا على أساس المحبة والمودة : (فالحب في ناحية إن لم يجد ما يشاركه في الناحية الأخرى، ووجد نفسه يذهب أدراج الرياح، إذ أنه لا محالة ذاهب في مثل تلك الحالة، قد تبقى بعده الصلة الجسدية، ولكنها لن تكون صلة مقدسة ولا طاهرة ولا مشاكل لرباط الزواج، إذ هي في خير حالاتها بعد ذلك لن تعدو أن تكون عملا حيوانيا بحتا، بل إنها أرذل في

الحق وأحط مما يرى من ترفق أخرس بين قطعان الدواب والأغنام الإنسانية، وليس للجسم في ذلك أثر يذكر)

ويرى ملتن أن الفسق والشهوة الحيوانية إلى فقدان الحب والتعاطف وقصر العلاقة بين الرجل والمرأة على الجسد ونزعاته، فإذا كانت العلاقة ببن روحية قوامها الحب، فلا فجور ولا فسوق في الحب؛ ولذلك فالمثل الأعلى عنده لحياة الزوجين هو في تلك الأيام التي عاشها أدم وحواء قبل هبوطهما من الجنة، فقد توشجت روحاهما وجسدهما، فلا محل لاثم ولا داعي لطلاق، فانه متى وجد الحب فلا مكان لشهوة، كما أنه إذا سيطرت الحكمة، فلا داعي لقانون...

ويتشكك ملتن في مقدرة القانون على أن يمنع الشر منعا تاما، فما لم يسد العقل فلا فائدة ترجى من القانون، وإنما يضيق القانون نطاق الشر نوعا ما ويخفف ضراوته.

وتعظم جرأة ملتن إذ يتعرض للكتاب المقدس، والى أي مدى يؤخذ بأحكامه فعنده أنه يجب ألا نأخذ بحرفية ما جاء فيه، لأنه كثيرا ما حسب مقتضيات الظروف والأزمان، وتطرق إلى نصوصه الفساد؛ وكان لا بد أن يذهب ملتن هذا المذهب، وإلا فكيف كان يتخلص من قول كهذا ينسبه الإنجيل للمسيح: (أن يقطع الصلة بينه وبين زوجته لسبب غير الخيانة ثم يتزوج غيرها، فإنما يقترف خطيئة الزنا)

ويختتم ملتن كتيبه خاتمة هذا شاكية صاخبة، فقد ساءه لقاء أهل عصره إياه، وعلى الأخص البرسبتيرينز، وهم من البيوريتانز الذين طالما وصل حبالهم بحباله، وعلق في الإصلاح عليهم كثيرا من أماله...

ونشر ملتن في نفس الشهر الذي نشر فيه كتيبه السالف كتيبا أخر سماه (كولاستيريون) وقد جعله للهجوم، أو الأصح لمدافعة تهجم بمثله، واتخذ شعاره فيه قوله: (أحب الأحمق بما يشاكل حماقته، وإلا صدق أنه فيما يتخيل من خيال)

وعاد ملتن إلى ســـهامه، وإنها ليريشـــها الحنق واليأس من عقلية مخالفيه، فرمى أحدهم بـأنـه من غير المتعلمين، وأنـه أقل من أن يعرف الإغريقيـة أو العبرية، وأنه خنزير لم يقرأ شـيئا من الفلسـفة، وأنه جاء بآرائه عن الغاية من الزواج من حظيرة خنازير، وأنه أحمق ما جن يحاول أن يحملنا على الضـحك بلغوه، وأنه حمار بلغ أقصـى حماريته، فما يبالي بشـيء... إلى غير مما لا يقل عنه سوءا أو هجرا...!

ولم يخرج ملتن من وراء صـــيحاته هذه بطائل، فلا أجابه البرلمان إلى ما طلب، ولا تركـه البرســـبتيرينز يدعو دعوتـه دون أن ينعتوه ويحرجوه من زمرتهم، وهكذا بقي موضـوع طلاقه مارى بوول رغبة فحسـب، لم تجد سـندا من قـانون ولا عرف؛ ولقـد هـدد ملتن بـالخروج على القـانون في كتيبـه (تتراكوردون) بقولـه: (إذا لم يتح أي القـانون مـا أريـد، فعلى القـانون - كمـا يقضى العقل - أن يتحمل لي وزر ما يترتب على رفضه من عواقب!)

وكان ملتن يتردد على سيدة تدعى (مرجريت لي)، وكان يجد بين يديها مثل ما كان يتوق إليه من حديث عذب ومن ذكاء ولباقة لم تعرف زوجه شيئا منها، ولكنها كانت متزوجة، وكان زوجها هو (كابتن هوبســون) أحد أصـــدقائه من أنصـــار البرلمان، فهل حاول ملتن أن ينشـــئ علاقة روحية قوامها المحبة والمودة بينـه وبين هذه المرأة؟ ولكن مـا غـايتـه من مثل هذه العلاقة وهو لا يسـتطيع بالضـرورة أن يتزوجها طالما أنها زوج لغيره؟ لقد ظلت صـلته بهذه السـيدة مبهمة الغرض، ولقد اختصـها بمقطوعة من تلك المقطوعات الشـعرية التي كان ينظمها الفينة بعد الفينة، والتي كانت على قلتها وصـــغرها قصـــاراه يومئذ من الشـــعر؛ وجعل عنوان هذه المقطوعة وهي الخامســة بين مقطوعاته والثانية منذ هجر الشعر (إلى السيدة مرجريت لي)؛ وليس فيها ما ينم عن شيء في علاقته بهذه السـيدة، وإنما اقتصـر الشـاعر على امتداح أبيها والثناء على

صفاتها، ذاكرا أن ما عرف عن أبيها من الشرف والنزاهة والإباء ورثته ابنته، فهو واضح جلي في خلقها!

ويتحدث ابن أخته فلبس فيما ذكر من أبناء حياته أنه تحبب إلى سيدة أخرى، ورغب في أن يتزوجها، متحديا بذلك القانون - كما توعد من قبل ويقول (فيلبس) إنها كانت في أول شبابها، فكانت رائعة الجمال، حلوة الحديث، على قدر من الذكاء عظيم؛ ولكنها لم تجرؤ أن تتحدى الناس كما حاول ملتن أن يصنع، وما كانت لتقبل أن تضع نفسها حيث لا تكون زوجة لا في عرف الناس ولا في قانون الكنيسة، وإنما في شرع ملتن وحده؛ ولعل هذه السيدة كما يظن المؤرخون هي موضوع مقطوعته الرابعة التي جعل عنوانها (إلى السيدة صغيرة فضلى)، وقد أثنى فيها على طهر هذه العذراء وعفتها ونبل شمائلها ورجاحة عقلها، وليس يعرف عن هذه العذراء وقد كان يطلق إذ ذاك لقب السيدة على العذراء، إلا إنها كانت ابنة شخص يدعى الدكتور ديفز، كما أنه لم يعلم عن علاقة ملتن بها أكثر مما ذكره ابن أخته!

على أن صلته بالسيدة مرجريت لي وصلته بهذه المجهولة الاسم قد انقطعت كلتاهما بإذعان ماري على غير توقع من أحد وقبولها العودة إلى زوجها!

وتمت عودة ماري على صورة أشبه بالقصة، ولكنا قبل أن نأتي بهذه القصة على سردها نحب أن نتبين سبب عودتها، وقد غابت عن زوجها منذ هجرته نحو عامين!

وماذا عسى أن يكون ذلك السبب؟ أهو كما يقرر ابن أخته قلق أهلها وقلقها مما نما إليهم من نبأ اعتزامه. الزواج بغيرها؟ أم هو أفول نجم الملك بعد هزيمة جيشه في معركة نسبي سنة ١٦٤٥ على يد المستقلين من أنصار كرمول مما يهيئ لرجل مثل ملتن نفوذا وجاها بحيث تطلب الحماية عنده؟ أم يرجع ذلك إلى عسر أل بوول وقد أشرف على العدم مالهم؟ ذلك كله كان خليقا أن يجنح بأهل ماري إلى طلب الصلح!

ولم يعدم آل بوول أصدقاء يوطئون السبيل لهذا الصلح، ولا عدم ملتن كذلك أصحابا أسفوا لما آل إليه حاله أخذتهم به رأفة شديدة!

وكانت ثمة قصة طريفة، فقد أحضر بعض الصحاب من الجانبين ماري إلى منزل لأحدهم تعود ملتن أن يغشاه، وخبئوها في حجرة حتى قدم فدخل حجرة مجاورة، ولم يلبث إلا قليلا حتى دخلت عليه زوجته فألقت نفسها على قدميه باكية تسأله الصفح والمغفرة، وهو لا يكاد يصدق عينيه من الدهشة ولا يدري من فرط حيرته ماذا يقول...!

وتوسلت إليه ماري متهمة أمها بما حدث، ملقية كل تبعة عليها، وكانت تتكلم كما لو تكلمت طفلة تبرئ نفسها مما نسب اليها، والدموع تتساتل من عينيها على خديها قد ألهبتهما حمرة الخجل، وفي جسدها كله رجفة شديدة رق لها قلب الشاعر؛ ولبث برهة ينظر إلى زوجته تستغفره وتتوب إليه في ضراعة ومسكنة، كما لو كانت تكفر عن خطيئة، وفي وجهها سذاجة لا أثر للتكلف فيها، فهي لم تزل من عمرها بعد في التاسعة عشرة...

وأبت عليه أريحيته إلا أن يصفح عنها وعن أهلها، فما تميل نفس كنفسه إلى التشفي من قوم حطهم الدهر من عل، وأذلتهم الأيام بعد عزة كما تأبى على الفارس فروسيته أن يضرب خصما له هوى أو كبابه فرسه؛ ولم يقتصر على الصفح كرمه ونبل عاطفته، بل لقد أوي أل بوول في بيته جميعا ومن بينهم أم زوجته التي ألقت بنتها على كاهلها كل تبعة؛ وأسدى إليهم بذلك صنيعا لا ينسى، فقد سقطت فورست هلي في يد أنصار البرلمان، وطورد أنصار الملك ومنهم أل بوول فضلا عما حاق بهؤلاء من فاقة شديدة...!

ولم يكن صفحة دليلا على نبله فحسب، بل إن فيه شاهدا كذلك على شجاعته الأدبية، فقد كان خليقا أن يسخر منه الناس بعد أن أذاع فيهم من آرائه ما أذاع، وبعد أن ادعى إنقاذ البشر جميعا بما كتب، وبعد أن اتبعه فريق من المعجبين

به المتحمسين له، ولكنه وقد تعود ألا يبالي بشيء في سبيل ما يؤمن أنه الحق صفح عن زوجته غير عابئ بما أن يقول الناس!

ولقد ترك لقاء زوجته إياه على هذه الصورة أثرا عميقا في نفسه، فلا تكاد تقع عين القارئ على المنظر آلاتي من مناظر (الفردوس المفقود)، وقد كتبه ملتن بعد ذلك بعشرين عاما، حتى يمسي قوة الشبه بين الصورتين. قال ملتن يصف لقاء بين أدم وحواء: (وجاءت حواء ودموعها لا تني تتساقط، وشعرها تشعث كله، فألقت نفسها متضرعة على قدميه واحتضنتهما سائلة إياه الصلح؛ وظل هيكلها الساجي لا حراك به، حتى أحدث أثره في نفس أدم ذلك الصلح ولده الاعتراف والندم؛ وسرعان ما رق قلبه لها، إذ ألفى بهجة حياته التي لا بهجة له بعد طول الوحدة غيرها عند قدميه في حزنها مذعنة خاضعة)!

واستأجر ملتن منزلا كبيرا غير الذي كان يعيش فيه، يتسع لمن لا يزال يعلم من تلاميذه ولزوجته وأسرتها؛ وقنع الشاعر بحظه، وعاشر زوجه، لا كما طالما تاقت نفسه إليه من مثل، ولكن كما شاء له القدر؛ وفي يوليو ١٦٤٦ صارت ماري أما وصار ملتن أبا...!

البرسبيزينز والصدمة الثانية

قلت قيمة المرأة في نظر ملتن، وانحط مستوى الطبيعة البشرية عما قدر لها من قبل في خياله وفكره، وساءه أن يعرض معاصروه عن آرائه في الطلاق، وما جاهد جهاده إلا لخيرهم؛ وآلمه وكدره أن يخاصمه بعض الناس وأن يناصبوه العداء؛ وجاءت مخالفة البرسبتيرينز إياه بعد ذلك، فكانت هي الطامة الكبرى.

قدر ملتن أن سوف ينظر إليه أهل عصره لما أذاع فيهم من رأي في الطلاق نظرتهم إلى مصلح عظيم، وكان يرى في تطلع ذلك العصر إلى الإصلاح وشد ميله إلى تغيير كل شيء وعلى الأخص في السياسة والدين حافزا يحفزه ويزيده استبشارا وأملا، كما كان يدفعه إلى الجد ويوحي إلى نفسه أنه يعمل عمل أفذاذ المصلحين، شدة ثقته في نفسه وكثرة الذهاب بها ويقينه من تمكنه وضلاعته واتساع أفقه، وما يرى من إكبار أصحابه اياه؛ ومن كان هذا شانه كان خليقا أن يستشعر مرارة الخيبة مضاعفة وان يبلغ من نفسه الألم مبلغا عظيما إذا لقيه الناس لا بمجافاته وأعراضهم عنه فحسب، بل بمدافعة آرائه كذلك ومجاهرته بالسوء من القول؛ وكان كذلك خليقا أن يغضب وأن يرد عمل أهل عصره إلى الغباء والجهل والجمود، وإنه ليوقن أن ما بينهم وبينه من فرق في الثقافة والمعرفة كمثل ما بين الظلمات والنور.

ولقد أفصح عن مبلغ ما كان يضطرم في نفسه من حنق على قومه، وعن مبلغ ازدرائه إياهم وسخره منهم في مقطوعتين نظمهما سنة ١٦٤٥؛ ففي الأولى راح يتهكم ويسخر من جهل خصومه قائلا أن كتابه أسمه (تتراكوردون) أذيع في الناس من وقت قريب فبلغ من جهل بعضهم أنهم

نظروا حيارى إلى عنوانه قائلين ما هذه الكلمة التي اتخذت له عنوانا، وقرأ بعضهم فأخطأ النطق وعجز عن الهجاء؛ ثم يعجب الشاعر من هؤلاء ويستعرض بعض أسماء ألفوها ويتساءل قائلا: لم يكون عنوان كتابه أعسر منها في أفواه هؤلاء السادة، وقد الفت أفواههم العسير الجافي من الكلم، ثم يذكر أول أستاذ للغة الإغريقية في كمبردك في القرن السادس عشر، ومعلم الملك إدوارد السادس وهو سيرجون تشيك، فيناجي روحه قائلا: (إيه يا روح سيرجون تشيك! أن عصرك لم ينفر من المعرفة إذ كنت تعلم كمبردك وتعلم الملك الإغريقية كما ينفر من العلم عصرنا الذي نعيش فيه).

وفي المقطوعة الثانية كان ملتن اشد حنقا وأوجع هجوا منه في سابقتها وحسبك منه قوله: (إنما جهدت أن أحمل أهل هذا العصر على أن يتخلصوا من قيودهم، وذلك بالرجوع إلى قواعد الحرية القديمة المعروفة، وبينما اعمل عملي إذ أحاطت بي جوقة من البوم والحمير والقردة والكلاب، ففعلوا بي كما فعل أولئك القرويون الذين أحيلوا إلى ضفادع جزاء بما أجرموا إذ هوشوا على نسل لأتونا التوأمين اللذين صار لهما بعد ذلك ملك الشمس والقمر؛ وذلك الذي نالني إنما هو كل ما يناله الرجل من جزاء إذ يلقى باللآلئ إلى فصائل من العجماوات تجهد في غبائها المجرد من كل حس في طلب الحرية، حتى إذا جاءها الحق الذي يكسبها الحرية ثارت ضده وتألبت عليه؛ وهؤلاء إنما يعنون الفوضى إذ يهتفون بالحرية؛ فأن من يعشق الحرية ينبغي أولا أن يكون خيرا عاقلا؛ وأنا نستطيع أن نرى إلى أي مدى يبعد هؤلاء عن الهدف على الرغم مما ينفق من مال وما يبذل من دم.

ولئن بلغ الحنق هذا المبلغ على أهل عصره بوجه عام، فقد كان حذقه على البرسبتيرينز أشد من ذلك درجات، وكان أسفه لما كان من موقفهم حياله اعظم وأقوى، فمن أوهى الأمور وأقبحها أن تأتي الخيبة من حيث يلتمس الرجاء، وان تقع البلوى على يد عند من يطلب عنده العزاء...

آلم ملتن وزاده غما على غم أن يعلم أن البرسبتيرينز على منصاتهم وفي كتاباتهم يصفونه بالطيش، ويقررون انه يذيع مبادئ إباحية، وانه بما نشر يمثل الإلحاد والفسوق عن أمر الله أتم تمثيل؛ ولكن روحه القوية لم تهن وان أصابها الحزن، ونفسه الأبية لم تذل وان اجتمعت عليه المحن، وأقبل يهاجم البسبتيرينز كما هاجم القساوسة من قبل، يأبى ألا أن يدافع أبدا عن الحرية في أي صورة من صورها، والمجال اليوم مجال حرية الرأي فما أجراه أن يناصر حرية الرأي.

اعتزم ملتن أن يعيد النظر فيما كان يرى من رأي في الإصلاح الديني، وأحس في نفسه الميل إلى مقاومة تشدد البيوريتانز وتزمتهم فيما يتصل بالدين وحياة المجتمع، ذلك التزمت الذي بلغ منتهاه عند جماعة البرسبتيرينز، والذي جعل ملتن يؤمن اليوم أن هؤلاء ليسوا أقل تعصبا ولا جمودا من القساوسة، وليسوا أوسع منهم أفقا ولا أخف حمقا.

ولم يكن غضب البرسبتيرينز على ملتن بسبب ما جاء به من آراء حول الطلاق فحسب، وإنما أغضبهم كذلك جرأته في الدعوة إلى الاعتماد على العقل في تفسير الإنجيل، وعدم التقيد بأقوال من سبق من رجال الكنيسة في تفسيره وتأويله ما لم يتمش ذلك مع المعقول ويوافق طبائع الأشياء

فالمعركة اليوم إذا معركة الرأي وحريته، والعقل وكرامته، وشخصية الفرد وكيانها، وحسب ملتن من الفخر أن يكون في ذلك طلعة بين أهل عصره كما كان طلعة في حربه على القساوسة وفي آرائه حول الطلاق...

وحدث بين جماعات البيوريتانز خلاف سنة ١٦٤٣ جعل لخروج ملتن على البرسبتيرينز صدى أشد وأبعد مما كان يقدر له لو لم يقع هذا الخلاف، وبيان ذلك أن مجمعا من البيوريتانز انعقد في وستنمستر في تلك السنة للنظر في النظام الذي تخضع له الكنيسة في انجلترة، أي طريقة أدارتها، وقد قضى هذا المجمع بإحلال البرسبتيرية محل الأسقفية نهائيا، وتغيير كتاب الصلاة المتبع،

ووافق البرلمان على ذلك، وكانت أغلبية أعضاءه يومئذ من البيوريتانز المؤيدين للبرسبتيرية، ولكن جماعة من المستقلين خالفوا أعضاء مجلس وستمنستر في بعض الأمور إذ أحسوا فيها تزمتا وشدة وطالبوا بشيء من الاعتدال، ونشر خمسة منهم كتابا يحتكمون فيه لا إلى البرلمان وحده بل الرأي العام في المملكة كلها؛ فلما خرج ملتن على البرسبتيرينز سنة ١٦٤٤، وأخذ يطعن فيهم وهو الذي عرف بانتصاره للحرية أيد ذلك قضية المستقلين، وأحاط البرسبتيرينز بشبهة التعصب ومجافاة حرية الرأي.

وقد بدأ الخلاف بين ملتن والبرسبتيرينز كما قدمنا في أواخر سنة ١٦٤٤ وذلك بعد أن ذاع كتيبه (قانون الطلاق ونظامه) وبعد أن نشر مقاله الذي جعل عنوانه (رأي مارتن بوسر في الطلاق)، فقد طالبوا بمصادرة كتيبه لأنه طبعه بغير تصريح مخالفنا بذلك قانون الطبع الذي هو من صنع أيديهم والذي أرادوا به حماية نظامهم الكنيسي، فرأى ملتن إذ ذاك أن أصدقاءه يعملون على خنق الحرية كما يعمل الأساقفة، ومن ثم دب بينه وبينهم الخلاف؛ وهل يظل صامتا حيال صيحتهم؟ ذلك مالا تطيقه نفسه وما لا تتطامن له كبرياؤه؛ وذلك ما لا يتفق مع حبه للحرية حبا درج معه منذ نشأته، وإذا فلا بد من رد ولا بد من صيحة يكربها عليهم ويدفع بها عن الحرية؛ ولكن البحث في الطلاق يملك عليه وقته وفكره فليدعه إلى حين، وليجعل همه إلى كتيب يناصر به حرية الرأي، ويهاجم فيه الرقابة على هذه الحرية هجوما عنيفا.

ويفرغ ملتن من كتيبه هذا وينشره في نوفمبر سنة ١٦٤٤ أي قبل نشر كتيبه (تراكوردون) بنحو أربعة أشهر ويعرف هذا الكتيب باسم (ايروباجيتيكا)، وفيه يحتكم إلى البرلمان والى كل ذي رأي حر.

وبلغ من جرأة ملتن وكبرياء نفسه وتحمسه للحرية أنه نشر هذا الكتيب كذلك بغير أذن، فكان عمله هذا تحديا للبرسبتيرينز من ناحيتين، فهو يهمل قانون الطبع الذي وضعوه وقرروه، وهو في الوقت نفسه ينكر بكتيبه هذا

الرقابة على الكتب كما تتمثل في ذلك القانون ويراها قيدا بغيضـا لحرية الرأي فعنده أنه يحب القضـاء على هذه الرقابة (حتى لا يكون الحكم على ما يجوز طبعه وما لا يجوز لفئة قليلة أكثرهم لا يعدون في العلماء إذ إن كفايتهم عادية شائعة).

وكان الكتيب في صـورة خطبة مكتوبة موجهة إلى البرلمان وقد جعل ملتن شعاره عبارة مقتبسة من كلام يوربيد أثبتها بنصها الإغريقي؛ وهو بعد خطبة فليسر فيه درس وفق منهج معين أو تمحيص لما يعرض له من آراء، أو تقص للأفكار التي يؤيد بها رأيا أو يخالف رأيا؛ ولكنه على الرغم من ذلك لعله بسبب ذلك كان من أحسن ما نشر ملتن من هاتيك الكتيبات، فهو فيض نفس نبيلة حرة، تفهق صفحاته بكلام من خير ما كتب في الحرية فحاجة لفظ وبلاغة عبارة ورقة شعور ونبل حس وشجاعة رأي وحرية قول...

وكان الأمل والحماسـة ملء كتيبه هذا، فلئن خاب أمله في البرسـبتيرينز فليسوا هم كل شيء، بل أنهم وقد نصبوا أنفسهم أعداء للحرية لم يعد لهم من الأمر شيء، وان انجلترة لتتجه نحو أمل جديد تراه في شخص كرومول وهو زعيم المستقلين ولجنده الظفر كما تنبئ حوادث الحرب، وان المستقلين جميعا وطلاب الحرية ليلتفون حوله، فهو في غده أمل إنجلترا ونصـير الحرية وبطلها؛ ذلك ما كان يتحدث به ملتن إلى نفسه وذلك ما بث في كتيبه الرجاء.

وزاد الأمل تمكنا من نفسـه انه وقد اسـتعدى عليه الرقباء في البرلمان لم يمسسه شيء مما أرادوا به من سوء، إذ لم يرض مجلس اللوردات أن يشايع البرسـبتيرينز فيما يذهبون إليه من رغبة في التضـييق على حرية النشـر؛ واغتبط ملتن أيما اغتباط وأرتاح أيما ارتياح إلى هذه المعاملة التي زادته ثقة في نفسه، ويقينا من علو مكانته في قومه.

ويحس المرء لذة قوية إذ يقرا هذا الكتيب، فليس فيه مثل ما في كتيباته التي أرسلها على القساوسة من غل الخصومة وعنف الهجاء، وإنما يسوده الهدوء

وحسن السياق؛ وهو فضلا عن ذلك قريب إلى العقليات الحديثة بما حواه من أفكار حول حرية الرأي وحرية النشر، وحسبك منه بعض ما كتبه ملتن عن قيمة الكتب مثل قوله: (إن من يقتل كتابا طيبا كمن يقتل رجلا؛ بل إن من يقتل رجلا إنما يقتل مخلوقا عاقلا، في حين أن من يقضي على كتاب قيم فقد قتل العقل نفسه؛ وان كثير من الناس يعيشون عالة على هذه الأرض، أما الكتاب الجيد فهو دم الحياة الغالي، دم كاتبه، ذلك الروح العبقري، وقد حنط ذلك الدم واختزن ككنز ثمين ليبقى ذخر الحياة بعد حياة).

ويقع المرء فيه على كثير من العبارات المتينة الجميلة جمعت بين الإيجاز والشمول كقوله: (يظل الأحمق أحمق أوتي كتابا جيدا أو لم يؤت كتابا قط). وكقوله: (يجد المطهرون كل شيء مطهر، وليس ذلك في طعامهم وشرابهم فحسب، ولكن في كل صنوف المعرفة الطيب منها والخبيث فلا يمكن أن تفسد المعرفة كما لا يمكن تبعا لذلك أن يفسد الكتب ما دامت الإرادة والضمير لا يتطرق أليهما الفساد).

ويأتي ملتن بطائفة من الآراء تنم عما كان يجول في خاطره بعد القطيعة بينه وبين البرسبتيرينز، فهو ينكر اليوم عقيدة القدر المحتوم التي اعتنقها البيوريتانز عن كلفن ويأخذ بعقيدة الإرادة الحرة التي نادى بها أرمينيتس ويصف هذا الأخير بقوله (أرمينيسي الواضح البين) وينر ملتن من تزمت البيوريتانز وتشددهم في كل شيء، وبعد أن كان من قبل وهو الشاعر الذي يعشق الجمال ويحسن الحياة إحساسا قويا في حيرة بين ما تقتضيه الطبيعة وما تقوم به الروح، نراه اليوم يعلن أنه في وسع المرء أن يجمع بين الاثنين في غير حرج، وقد كان ما تقوم به الروح عنده قبل ذلك في المحل الأول، تجد ذلك واضحا في قوله (لماذا خلق الله العواطف وبثها فينا، ولماذا خلق مسرات الحياة وأحاطنا بها، وليس معنى ذلك انه يبيح الاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده في غير قيد، ولكنه يريد ألا يتشدد فيرى في كل زينة وفي كل متعة ما

يوبق الروح كما يفعل الغالبون من البرسبتيرينز، ولقد باتوا عنه كالقساوسة حماقة وضيق عقل وسوء تعصب كما يتضح في قوله إذ يشير إلى خنقهم حرية الرأي (إنما تخرج أفانين القساوسة براعمها من جديد).

ويعد ملتن في الواقع بعد اختلافه مع البرسبتيرينز من المستقلين، بل لقد كان أكثر من مستقل، فسوف لا يؤيد بعد اليوم نظاما كنسيا ما أو يأخذ برأي من الآراء لا يتحول عنه أو لا يقلب النظر فيه؛ أو يغشى كنيسة من الكنائس غشيانا رتيبا، وإنما تسيطر عليه روح دينية توحي إليه تقواه وطهره. وإن كان مستقل الرأي لا يقبل شيئا لا يطمئن إليه عقله ولا يتقيد بمذهب لا ينسى كراهته للقساوسة من أشياع روما والكاثوليكية بوجه عام، كما لا ينسى غضبه على البرسبتيرينز ولا اتهامه إياهم بأنهم أعداء الحرية، وانهم لذلك كالقساوسة عقبة في سبيل الإصلاح الحق، وأنهم يبالغون في تزمتهم وتشددهم مبالغة تفضي حتما إلى النفور من مذهبهم.

يضرب ملتن لقومه مثلا لما يقع من الضر إذا اختنقت حرية الرأي فيستعيد ذكرياته عن رحلته في إيطاليا ويذكر كيف عدة المثقفون هناك سعيداً بمولده في إنجلترا موطن الفلسفة الحرة إذ كانوا يظهرونه على تألمهم وحسرتهم لما تعاني المعرفة عندهم من تعسف وإعنات وقيد؛ ويقول ملتن إن ما يعانيه طلاب المعرفة هناك من قيود هو سبب ما أكتنف مجد أولي الذكاء من الإيطاليين من ضباب، وإلى تلك القيود يعزى مَلَقُ الإيطاليين وادعاءاتهم وهما خلتان بارزتان في أكثر ما يكتبون...

ويشير ملتن في فقرة قوية بالغة الأثر في النفوس إلى ضحية من ضحايا الحرية وذلك هو جليليو الذي جاهد طويلاً ليكشف عن الأبصار ما حجب عنها النور من غشاوة، ويزيح عن القلوب ما طمس عليها من خرافة وجهل، فكان جزاءه السجن والمهانة وقد تحطم هيكله الذي آده العبء كما آدته السنون وذهب بصره فأحاطت به الظلمة وهو الذي طالما صبر على أذى قومه وصابرهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

ولن يزالا ملتن عظيم الثقة في انجلترة، يقدرها حق قدرها ويراها خير أمة منذ قام العالم، فهي أمة ذكية بصيرة حازمة، ذات روح وثابة سريعة إلى ما تريد، لن تتخاذل عن أقصى ما تصل إليه المقدرة البشرية، عريقة في المعرفة على اختلاف فروعها حتى ليمكن القول إن مدرسة فيثاغورس والحكمة الفارسية القديمة إنما استمدتا بدايتهما من انجلترة؛ ولها في الدين وما هو من بابه من المعرفة، باع طويلة وقدم راسخة، فلولا ما كان من مقاومة بعض القساوسة لو كليف ونظرتهم إليه كصاحب بدعة وداعية شقاق لما سمع أحد عن لوثر أو كلفن نفسيهما، ولن تزال انجلترة مبعث كلُّ دعوة إلى الإصلاح ومنار كلُّ نهضة تقوم في القارة، وسيبقى لها فخر إصلاح جيرانها غير منتقص ذلك الفخر أبداً... وقد تأذن الله لكنيستها بعصر جديد عظيم سوف

تصلح فيه الإصلاح نفسه، وكان أن تجلى الله لعباده وبدأ كما هو شأنه بالإنجليز منهم...

ولئن عظم أمله في انجلترة وما يرجى فيها من خير، فإنه يوجس خيفة من التنكر للحرية كما فعل البرسبتيرينز، ولذلك فإنه يراهم شراً أي شر، فما يحجب نور هذا الأمل عن البلاد إلا عنادهم واجتراؤهم على فعل ما كرهوه من قبل مما فعل القساوسة.

ويغلظ ملتن لهم القول ويعنف عليهم كما صنع بالقساوسة فيرميهم بالنفاق والجشع، فما يتأتى الإخلاص لقوم يكرهون الحرية ويعترضون لها وما عبادته إلا حرفة احترفوها وتجارة يخشون كسادها ثم يتنبأ في آخر كتيبه بأن سوف يلقي الباطشون من يبطش بهم، ولعله بذلك يستخرج من مجرى الحوادث السياسية أن المستعلين سوف يعملون على سحق سلطة البرسبتيرينز بعد أن يفرغوا من محاربة الملك ولقد جاءت الحوادث بعد ذلك محققة ما لمح به.

وكرهت رجعة البرسبتيرينز كما يزعم إليه كلُّ القائمين على شؤون الدين، ولا عبرة بالمذهب، وقر في نفسه أن حرية الفكر والرأي مستحيلة ما دام هؤلاء قوامون على الناس، وعنده أن تعصب القساوسة إنما يظهر في صور وأشكال جديدة؛ وما دام الأمر كذلك فلا إصلاح يرتجي؛ إذ كيف يتحقق الإصلاح بغير الوصول إلى الحق، ولا سبيل إلى الحق إلا الحرية ويريد بها تحرير العقل من الجهالات والضلالات ليفكر طليقاً ويتدبر فيما جاء به المسيح غير مقيد بقيد مهما كان نوعه أو كان مبلغه من الشدة أو العنف؛ وإذاً فالفكر الحر والرأي هما سبيلا الإصلاح الحق ولا سبيل غيرهما.

لقد جاء المسيح بالهدى والحق إلى هذه الدنيا، وذلك مبين في الإنجيل، ولكن الناس بعيدون عما بين لهم من الهدى لأنهم أخذوا أخطاء المفسرين على أنها الحق المقدس وفي ذلك أبلغ الضرر؛ ولا مخرج لهم إلا أن يناقشوا المسائل التي يحيط بها الشك مناقشة لا قيد فيها حتى يهتدوا إلى الصواب، ولن

يســـتطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا أن تتاح لهم الحرية، فكأن الذين يخنقون الحرية إنما يحولون بين الناس وبين ما آتاهم المســـيح من الهدى وأي إثم هو أكبر من هذا الإثم؛ وكيف يطمع المصـــلحون في الإصـــلاح إلا أن يكفوا أيدي هؤلاء البرسبتيرينز الذين يصدونهم عن سبيله ويزعمون أنهم هم المصلحون...

بهذا المنطق القوي أزعج ملتن البرســبتيرينز، فمثل هذا الكلام يكون أشــد وقعاً وأعظم أثراً من الهجاء مهما أقذع، ولذلك كانت هذه الحرب أقوى من حربه على القساوسة وإن بدت أقل منها ضجيجاً لأن سلاحه فيها كان أمضى ولأنه يقاتل في سبيل مبدأ تميل إليه بطبعها النفوس...

تلك هي خلاصة الأيروباجيتيكا؛ ويزعم بعض النقاد وأحسبهم على حق فيما يزعمون أنه لو لم يكن ملتن صـــاحب الفردوس المفقود وصـــاحب كومس والفردوس المستعاد وغيرها من الشعر لذهبت كتاباته النثرية مع الزمن إلا هذا الكتيب الذي جعله للدفاع عن مبدأ من أجل المبادئ في حياة بني الدنيا منذ أقدم عصـــورها ألا وهو حرية العقل لا في تفكيره فحســـب فإن ذلك طوع كلُّ فرد ذكي بل في إعلان ما يرى من رأي.

ويحبب هذا الكتيب إلى النفوس فضـلاً عما يدافع عنه من مبدأ فيه، ما سـاقه ملتن من أمثلة وما لجأ إليه من الإشـــارات والتلميحات كما يفعل في شـــعره، وكان التاريخ هنا هو الكنز الذي استخراج منه أصدافه ولآلئه، وحسبك أن يلمح إلى ســـقراط واســـتشـــهاده وإلى جليليو وما لاقى من كوارث وإلى أفلاطون وبيكون وإرزس وســـبنســـر الذي وصـــفه بقوله (شـــاعرنا الحكيم الوقور)، وأضـــربهم ممن اهتدوا بنور العقل في ظلمات الجهل فكانوا على طريق الإنسـانية مصـابيح تنطوي القرون ونورهم أبلج وكلما اشـتدت الظلمة ازدادوا ظهوراً ككواكب السـماء ونوراً... وحسـبك أن يشـير إلى أثينا وأن يمتدح فيها النشاط العقلي وأن يشيد بما كان يعلم آباء المسيحة الأولون من علوم الأقدمين؛ إلى كثير من أمثال ذلك مما يسـوقه براهين على فضـل العقل، ففي العقل وحده

الخلاص من نير الجهل مع شرف القصد والإخلاص في استجلاء الحق لا في الخضوع لكل منقول والتسليم به في غير تدبر فيه...

وهو فيما يسوقه من هذه الأمثلة إنما يعرض بالبرسبتيرينز الذين أنكروا منه ما اهتدى إليه بعقله في أمر الطلاق والذين هالهم منه تأويل ما أول من عبارات الإنجيل لتتمشى مع ما ذهب إليه من رأى أو الذين رموه بالفسوق لأنه طلب تحكيم الضمير والاستعانة بالعقل فيما يلتبس فيه الأمر من أحكام الإنجيل ولا يتفق في ظاهره مع طبائع الأشياء.

والحق ملتن خليق بأن يثير إعجاب الناس به جيلاً بعد جيل، فقد كان لشخصه من الجلال ولروحه من القوة ولنفسه من العزة ما لا يتوفر مثله إلا للأفذاذ القليلين على فترات من الزمن؛ ولا نجد فيما تحث عنه المؤرخون خيراً من حديث مكولي عن خلقه فلنأت به على سرده. قال مكولي (وبقي بعد ذلك أن نتحدث عن المعين الذي استمد منه خلق ملتن العام عظمته وروعته الخاصة به، فلئن كان قد أتعب نفسه ليقضي على ملك حانث أو سلطة كهنوتية ظالمة، فإنما فعل ذلك مشتركاً مع غيره من الناس.

ولكن مجد لمعركة التي خاض غمارها من أجل ذلك الضرب من الحرية الذي هو أعظم ضروبها قيمة، وإن كان أقلها حظاً يومئذ من إدراك الناس، وأعني به حرية العقل البشري كان بأجمعه مجده وحده...

لقد رفع الألوف من معاصريه وعشرات الألوف منهم أصواتهم ساخطين على ضرائب السفن وعلى محكمة غرفة النجم، ولكن لم يفطن إلا قليل منهم إلى ما يعد شره أعظم من ذلك هولاً ألا وهو الرق العقلي والخلقي، ولا إلى ما عسى أن يعود من خير على الإنسانية من وراء حرية النشر، ومن وراء الحكم الشخصي على الأشياء يجري به الرأي غير مقيد بقيد؛ هذه هي الأغراض التي رأى ملتن أنها بحق أعظم الأغراض خطراً، وكان تواقاً إلى أن يرى الناس يفكرون لأنفسهم كما أنهم يشرعون الضرائب لأنفسهم، وأن يتحرروا من

سلطان الهوى، كما قد تحرروا من سلطان (شارل)، وكان يعلم أن الذين اعتلوا صنوف الإصلاح هذه ونفوسهم تنطوي على أحسن المقاصد، وقنعوا بإسقاط الملك وإلقاء الملكيين الطاغيين في السجن، إنما سلكوا مسلك الأخوين الغافلين في قصيدته اللذين ألهاهما فرط حرصهما على تفريق الساحر وقبيله فأهملا وسائل تحرير أسيره، لقد فكروا في هزيمته فقط في حين كان ينبغي أن يفكرا في حل ما عقد من طلاسم السحر: (لقد أخطأتما، فإنه كان ينبغي أن تختطفا عصاه وتشدا وثاقه، وذلك أننا وقد فاتنا أن نقلب العصا رأساً إلى عقب ونقرأ في اتجاه عكسي كلمات الساحر ذات القوة التي تفكك الأوصال، لن نستطيع أن نطلق سراح هذه السيدة التي تجلس هنا مغلولة بأغلال شديدة، فهي في مكانها ثابتة لا تتحرك).

وكان العمل على أن تقلب العصا، وأن تقرأ كلمات السحر في عكس اتجاهها، وأن تفكك القيود التي تشد الشعب الأبله إلى مقعد السحر، كل أولئك كان ما يسعى إليه ملتن من غرض نبيل، وإلى هذا الغرض وجه مسلكه فيما يتصل بالناس كله، فمن أجله انضم إلى البرسبتيرينز ومن أجله اعتزلهم، ولقد خاض معركتهم المحفوفة بالمخاطر، ولكنه نأى بجانبه عنهم مشمئزاً ساعة انتصارهم الوقح، ورأى أنهم كانوا كمن هزموهم لحرية الرأي أعداء، ومن ثم فقد انضم إلى المستقلين ودعا كرمول أن يحطم ما نسب إلى الدين من عل وأن يخلص الضمير الحر من مخلبي الذئب البرسبتيري؛ وهاجم ملتن وهذا الغرض النبيل نصب عينيه قانون الطبع والرقابة في مقال رفيع الطراز يجدر بكل سياسي أن يلبسه كشعار فوق يده وكذؤابة بين عينيه؛ وكانت لا توجه هجماته بوجه عام إلى المساوئ الخاصة بقدر ما كانت توجه إلى تلك الأخطاء المتأصلة التي تكاد تبني على أساسها جميع الأخطاء ألا وهي العبارة الخانعة لذوي المكانة من الناس، والخوف الذي هو ليس من العقل في شيء من كلُّ تجديد.

ولكي يزلزل أســس هذه النوازع المذلة زلزالاً أشــد وأوفى بالغرض، كان يختار ملتن نفســه دائماً مما يبذل من الخدمات الأدبية ادعاها إلى الشــجاعة والجرأة ولم يكن يـأتي قط في المؤخرة بعـد أن تنقص الأيـدي من الجهود الخارجية وتنفذ الجنود من الثغرة، وإنما كان يدفع بنفسه المقدمة إلى ما تتخاذل دونه الآمال.

ففي بداية ما حدث من أوجه التغير، أخذ يكتب بكل ما في وسـعه من نشـاط وفصـاحة لا يجاريه أحد فيهما منددا بالقسـاوسـة، فلما بدا له أن آراءه قد تم لها الغلبة تجاوزها موضوعات أخرى، وترك القساوسة إلى طائفة كبيرة العدد من الكتاب أسرعت بعده إلى التهجم على تلك الفئة التي تهوى...

وليس ثمة من عمل أشــد خطراً من الاضــطلاع بحمل مشــعل الحقيقة إلى المجاهل الموبوءة التي لم يضئ فيها نور قط ولكن ملتن كان يختار لنفسه دائماً أن يقتحم ذلك الضباب الصاخب، وكان يسره ذلك الاختيار كما كان يسره أن يركب الأخطار في ذلك الاكتشاف الذي يبعث الرعب؛ ويجب على أشد الناس إنكاراً لآرائه أن يحيطوا بالتوقير ما لاقاه في سـبيل اسـتمسـاكه بها من عنت وشــدة، ولقد ترك لغيره في الجملة العمل على شــرح الجوانب المقبولة من عقيدته الدينية والسـياسـية والدفاع عنها؛ أما هو فقد جعل من نصـيبه أن يؤيد العقائد التي ســخروا منها لأنهم زعموا أنها متناقضــة، فقد ذاد عن حق إباحة الطلاق وأيد إعدام الملك وهاجم نظام التعليم السـائد في أيامه وإن عمل الخير الذي يشع النور ليشبه في آلهة الخرافة عمل إله الضوء والخصب)

والحق أن الدفاع عن الحرية كان هدفه في معظم ما كتب، فقد دافع عن الحرية الدينية بحربه على القســاوســة وعن حرية النشــر بحملته على الرقابة، وعن حرية الضــمير بالطعن على البرسـبتيرينز وعن حرية الأسـرة بإنكار ما ينطوي عليه قانون الزواج من استبداد أو عن الحرية المدنية كما سنفصله في حينه بإعلانه السخط على طغيان التاج...

ولكن بعض النقاد يردون ذلك إلى دوافع شخصية محاولين بذلك أن يبخسوه أعماله، فيقولون إنه هاجم القساوسة لأنهم أبعدوه عن الكنيسة، ويدافع عن حق إباحة الطلاق لما صادف في زواجه من خيبة، ويغضب على البرسبتيرينز وينعتهم بضيق العقل لأنهم لم يقروه على ما ذهب إليه في أمر الطلاق ويدعو إلى حرية النشر لأنهم أرادوا أن يخنقوا كتبه...

وليس في وسعنا أن ننكر تلك الدوافع الشخصية التي يشير إليها هؤلاء النقاد، فإن شدة شعور ملتن بذاته من أبرز مقومات شخصيته منذ نشأته وأكثر تصرفاته إنما تتم بدافع من ذلك الشعور، ما في ذلك ريب، ولكنا لا نفهم كيف ينتقص ذلك من قدره وكيف يعد عليه ولا يعد له؟

هذا رجل يرى حياته وحياة غيره بالضرورة محفوفة بقيود من القانون والعرف، فيأبى على القيد ويثور لا يريد أن يهدأ حتى يقضي على ما استرق الناس من عباداتهم ومما جري به العرف بينهم ومما وضعت القوانين من الأغلال في أعناقهم، فماذا يدل عليه ذلك إن لم يدل على شخصية قوية ونفس أبية وضمير حر؟

وهل جاهد ما جاهد في غير عدو؟ ألم يكن على حق فيما أنكر من عيوب عصره؟ إن كانت تلك العيوب قائمة حقاً فلا يمكن أن يقال إن أهواءه ومطالب نفسه هي التي سيطرت على فكره؛ فلا يبقى إلا أن دوافع شخصية حركته وهذا إنما يدل على أنه أحس قبل أن يحس غيره بضرورة الإصلاح، وأن الوضع الاجتماعي في كماله المنشود إنما يقاس مبلغ كماله بمقدار ما فيه مما يشاكل كمال نفسه وتلك تتخاذل دونها الغايات.

وهل كان يستطيع أن يغمض العين غير مساوئ عصره لو لم تحركه دوافع شخصية إلى استنكارها؟ ذلك ما لا يستطيع أحد أن يقوله، ولا هو مما يجوز في عقل عاقل إلا على أوزاع الناس والهمج منهم، ولقد كان ذلك الشاعر القوي الروح العظيم الثقافة مطبوعا على حب الحرية وعلى الجهر بما يؤمن أنه

الحق، ومن أجل ذلك كانت نفسه ثورة متصلة الحلقات منذ أن عصى أباه وهو صغير إذ أراد يسلكه في سلك الدين بإلحاقه بالكنيسة وأبى إلا أن يهب للشعر نفسه، ومنذ أن كان يتأبى على قيود عرفية في الجامعة وينكر على الجامدين فيها جمودهم، إلى أن جاهر الإيطاليين بمخالفته إياهم في فطرتهم الدينية على الرغم مما حذِّر به وليسوا قومه، إلى أن أذن القساوسة في وطنه بحرب منه، كلُّ أولئك لأن نفسه تأبى إقرار الباطل ولا ترضى بغير الحق...

ولا يسع كلُّ منصف إلا القول بأن ما يشير إليه بعض الناس من دوافع شخصية إنما هو دليل على سلامة عنصره ونبل نفسه وسمو روحه.

أربع سنوات بغير حرب

نشــر ملتن كما أســلفنا كتيبه الأخيرين في دفاعه عن حق إباحة الطلاق بعد كتيبه الذي ناضـل فيه حرية الرأي، ثم سكت منذ شـهر مارس سنة ١٦٤٥، فلم يكتب مجادلاً أو مخاصـماً إلا ما ندر من الشـعر حتى سـنة ١٦٤٩، فكانت هذه السنوات الأربع فترة سكون أعقبها وثبه قوية في ميدان آخر هو ميدان السياسة

وقبل أن ننظر فيما كان من أمره في هذه الســنوات الأربع نشــير إلى مقال أثبت فيه رأيه في التعليم، وقد نشره قبل ذلك ببضـعة أشهر، أي في صيف سنة ١٦٤٤

كتب ملتن هذا المقال الذي لا يزيد عن ثمان صـــفحات بإيحاء صـــديق له يدعى (صـمويل هارتلب)، وهو ينتمي في أصـله إلى دنزج، وقد أقام في لندن منذ سنة ١٦٢٨، وكان مهتماً بفلسفة التعليم وتجديد أسلوبه على نحو قريب مما دعا إليه بيكون في انجلترة وكومنيس في أوربا من قبل...

وينصـــب رأي ملتن على التلاميذ من ســـن الثانية عشـــرة إلى الحادية والعشـرين، وتلمح في المقال على صـغره خصـائص أسـلوبه ونوازع وجدانه، ففيه مثلما يحســه المرء في كتيباته من الســمو بالغرض في كلُّ ما ينهض له، وفيه النظرات الحرة التي لا تتقيد بقيد، والتي تنفر من كلُّ متواضــع متعارف، وفيه كذلك الاعتزاز بالرأي والتحمس له والاستناد إلى مصـادره هو وإنكار ما عداها!

وعنده أن التلاميذ في هذه السن يجب أن يفرغوا في وقت قصير من القواعد اللاتينية والإغريقية، وأن يطالعوا بعد ذلك بعض الكتب الإغريقية الســهلة؛ ويجب أن يتخلل هذه الفترة من دراستهم محاضرات تذكى في أنفسهم حب العلم والفضيلة، ومتى اكتمل شعورهم بأداء الواجب (صـعدوا في سفح المعرفة غير

معجلين ولا وانين)؛ وعليهم أن يتقنوا دراسة الكتب الإغريقية واللاتينية في كلُّ فروع العلم، ولتخصص ساعة للسان العبري، ولكيلا يسأموا ينبغي أن يعلموا المصارعة والملاكمة وإضرابهما من فنون الرياضة، وأن يقلدوا بعض المعارك ليفهموا أساليب القتال، وأن يسمعوا الموسيقى لتنعشهم وتهذب نفوسهم...

وواضح من منهاجه هذا أنه يقيس على نفسه فيقترح هذا العبء الثقيل للتلاميذ، لأنه نهض بما هو أثقل منه في غير عناء، وكأنما تأبى عليه شدة ذهابه بنفسه إلا أن يجعل من كلُّ ما يعمل وما يرى من رأى مثالا ينبغي أن يحتذيه الغير... وهو في منهاجه كذلك يخرج على البيوريتانز، إذ يوجب تعلم الإغريقية واللاتينية وشتى فنون المعرفة...

وألقى ملتن قلمه منذ أوائل سنة ١٦٤٥، وظل يترقب في هدوء أبناء الحرب الأهلية التي مالت معركة نسبي بكفتها نحو أعداء الملك في يونيو من تلك السنة، وكانت آثار الجهد بادية عليه لفرط ما جادل وناضل منذ أن ألقي بقيثارته على رغمه وشرع قلمه في سنة ١٦٤١ ليبدأ حربه على قساوسة، ولكنه استشعر بعض الغراء في عودة زوجته إليه بعد معركة نسبي بقليل...

وكان منزله الجديد في حي باربيكان الذي استأجره بعد عودة زوجته يكاد على سعته يضيق بمن فيه، لذلك كانت المعيشة فيه ينقصها الراحة والهدوء، الأمر الذي ضاق به صدره أحياناً، ففيه لا يزال يتلقى العلم على ملتن عدد من أبناء أصحابه لا تخفت أصواتهم في أكثر ساعات النهار، وفيه يقيم ابنا أخته، ويقيم معه كذلك في منزله أبوه وهو اليوم شيخ كبير، كما حضر ليقيم معه مستر بوول وزوجته ونفر من أسرتهما سنة ١٦٤٦ بعد أن سقطت اكسفورد وفورست هل في يد أنصار البرلمان. وجاء ليعيش أخوه كرستوفر على مقربة منه، وكان لا ينفك يضايق ملتن بعسره وبمشكلاته القضائية التي جاءت في وقت واحد مع مثيلاتها من مشكلات آل بوول...

ولم يعدم الأدب نصيراً في تلك السنين العاصفة، وكان هذا النصير هو ناشر يدعى موزلي على جانب ملحوظ من الثقافة، وكان مما نشره موزلي في خريف سنة ١٦٤٥ كتاب كتب على غلافه: (قصائد مستر جون ملتن الإنجليزية واللاتينية، نظمها في أوقات متفرقة).

وكان هذا الكتاب ينتظم شعر ملتن كله من أول عهده بالقريض حتى ذلك اليوم؛ وفي الصفحة الأولى أثبت ملتن عبارة مقتبسة من فرجيل مؤداها أن للشعر هواه ومتجهة لا للكتيبات، وأنه لا يحب أن يعرف بشيء إلا بالشعر، وأثبت كذلك في تصدير ديوانه ما تسني لشعره من تقريظ الأجانب إياه وثنائهم على صاحبه!

ولا ريب أن خصومه من المتزمتين قد وقعوا كما صورت لهم عقولهم ونوازعهم على أكثر من غميزة في هذا الشعر الذي يزخر بصور الجمال والفتنة وخرافات الإغريق والرومان، وفي تلك الأغنيات التي لحنها على أوتاره الملحن (لو) الذي ينتمي إلى حزب الملك، وأنهم لذلك تغامزوا فيما بينهم ونعتوا باللاتينية أو ما يقرب منها ذلك الشاعر، وسخروا من ذلك الذي طالت بإباحة الطلاق، وثار على الرقابة وخاصم البرسبتبريز، فما يطلب في رأيهم إلا الإباحية وإن زعم أنه يدافع عن الحرية...

ولكن كثيراً من المثقفين تقبلوه بقبول حسن، وأشربوا في قلوبهم محبته، ومن هؤلاء صديق له مرموق المكانة في الأدب والثقافة هو الدكتور روس الذي كتب إليه يسأله نسخة ثانية من كتابه، فأرسلها إليه الشاعر مشفوعة بمقطوعة يثني فيها على هذا الصديق ويتواضع على غير عادته إذ يشير إلى مبلغه من الشعر في صدر شبابه، ويحن إلى تلك الأيام التي أقبل فيها على النظم أول ما أقبل حين كان حدثاً لا تكاد تبلغ الأرض قدماه إذ يكتب، ويأسف إذ يرى اليوم ربات الشعر تروعها الحرب القائمة وتطيرها...

والحق أن للمرء عذره بادئ إذ أحس التناقض بين أن يكون ملتن بيوريتانياً، وأن ينطق لسانه بهذا الشعر، ويفيض قلبه بهذا الإحساس الغامر بالحياة ومسراتها ولذاذاتها وكل جميل فيها، ولكنه لا يكاد يتذكر مولده بين ربيع الأليزا ببيثين وصيف البيوريتانز حتى يدرك ما ذكرناه عنه من قبل أنه كالطائر المتخلف الذي يغني في هجير الصيف ألحان الربيع.

ولقد أشار مكولي إلى هذه الناحية من حياة ملتن فجاء بوصف بديع يحملنا لفرط قوته على أن نثبته هنا غير منقوص. قال بعد أن تحدث عن الملكيين والبيوريتانز (لم يكُ ملتن منتمياً بمعنى الانتماء الحق إلى طائفة مما ذكرنا، فلم يكُ بيوريتانيا ولا من ذوي التفكير المطلق من قيود الدين ولا ملكياً، فقد اجتمعت في أخلاقه وائتلفت من صفات كلُّ طائفة أكثرها نبلا، فمن البرلمان والبلاط، ومن مجتمع المنشقين على الكنيسة والغناء القوطي للكتدرائية، ومن حلقات البيوريتانز الكئيبة الموحشة كالقبور ومباهج عيد الميلاد عند ذوي الجود من الفرسان، من كلُّ أولئك انتقت طبيعته واجتذبت لنفسها كل ما كان عظيماً صالحاً بينما نبذت كلُّ ما من شأنه أن يشوه تلك العناصر الخلقية من الخلال السافلة البغيضة... فعاش كالبيوريتاز عيشة من يمسي أبداً أنه تحت عين البارئ الأعلى، وكان مثلهم لا ينقطع تفكيره في المهيمن العدل؛ وفي الجزاء السرمدي؛ ومن ثم فقد أخذ عنهم احتقارهم للعليل الظاهرية، وقوة بأسهم وطمأنينتهم وعزمهم الذي لا يلين؛ ولكن أعظم الناس شكاً في الدين وأكثرهم استهزاء به لم يكن أكثر منه انطلاقاً من عدوى أوهامهم الجامحة، ومن عاداتهم الوحشية ورطانتهم المضحكة، وازدرائهم العلوم ومعاداتهم متع الحياة؛ ولئن كان يكره الطغيان أشد الكره فإنه كان على الرغم من ذلك يتصف بتلك الصفات الغالية القمة التي يتحلى بها من يكتسبها، والتي كادت تكون وقفاً على أنصار الطاغية فلم يك في الناس من هو أكثر منه إحساساً بقيمة الأدب، ولا أرق منه استساغة لكل متعة مهذبة، ولا أكثر منه شبهاً بسجايا الفروسية فيما يتصل بالشرف والحب، ولو أنه كان ديموقراطياً في آرائه إلا أن أذواقه

وصلاته أكثر كانت مشاكله للملكية والأرستقراطية؛ ولقد كانت تحيط به كافة المؤثرات التي أضلت ذوي الأناقة والشجاعة من الفرسان، ولكنه لو يك عبداً لتلك المؤثرات بل كان سيدها المسيطر فكان كبطل هوميروس الذي استمتع بلذاذات السحر جميعاً ولكنه لم يعتقله السحر، فقد أصغى إلى أنشودة (السبرينز) ولكنه اتخذ سبيله في البحر بقربهن فلم تمسه منهن غواية تجنح به إلى شاطئهن المخوف. وشرب من كأس ميرسْ ولكنه كان يستحوذ على ترياق أكيد يبطل أثر حلاوتها الساحرة، وكذلك كان ملتن، فلم يك ما تملك خياله من الأوهام ليوهن من قوة حكمه على الأشياء فكان له من رجل السياسة في شخصه دريئة تدرأ عنه ما يسحر الشاعر فيه من أسباب الروعة والجلال والخيال؛ ويدرك ما نعنيه بقولنا هذا كلُّ من يتبين مبلغ ما هنالك من تضاد بين ما أفصح عنه من عواطفه فيما كتبه من مقالات عن القساوسة وبين تلك الأبيات الرصينة الجميلة عن العمارة الكنيسة والموسيقى الكنيسية في قصيدته البسبروزو التي نشرت حوالي ذلك الوقت الذي نشرت فيه المقالات، وتلك من المتناقضات التي تسمو بأخلاقه في نظرنا أكثر من كلُّ شيء غيرها لأنها ترينا كم ضحى ملتن من أذواقه واحساساته الخاصة لينجز ما يعتقد أنه واجبه نحو الإنسانية؛ وإن كفاحه لهو بعينه كفاح عطيل النبيل، ذلك الذي يرق قلبه ولكن يده ثابتة، والذي لم يأت عملا قط عن كراهة يل فعل ما فعله كله بدافع الشرف فهو يقبل خادعته الحسناء قبل أن يهلكها).

ويخيل إلينا أنه وقد رأى شعره في كتاب يلقاه منشوراً يتداوله الناس قد عاود نفسه الحنين إلى النظم، وتمنى لو ترك ضجيج الحرب وأنبائها وعاد إلى محراب الفن، ومن ثم كانت مقطوعته عن الساحرة التي نظمها سنة ١٦٤٥ والتي جعل عنوانها (إلى صديقي هنري لو)؛ وكان لو هو الذي لحن له بعض أغاني أركادس وكومسي كما أسلفنا ومثل دور الروح الحارس في الغنائية الثانية وبين الشاعر والملحن من صدر شبابهما محبة ومودة توثقت عراها ولو أن لو كان ملكياً، ولكن فنه كان أعز على صاحبه من أن يتجافاه بسبب

الاختلاف المذهبي بينهما مهما اشتد كما أنه كان لشخصه عند ملتن مكانة لا تدانيها لأحد غيره مكانة. وفي هذه المقطوعة يرفع ملتن قدر لو ويعزو إليه فضل تهذيب الموسيقى في قومه. ذلك الفضل الذي لن تنساه العصور المقبلة، كما أنها لن تنسى عظيم صيته، ويقول لصاحبه في ختامها (لقد مجدت الشعر، وعلى الشعر أن يحلق كيما يمجدك... ولسوف يأذن دانتي للصيت أن يرفعك مكانا أعلى من مكان مغنيه كازلاً الذي لاطفة كيما يني له إذ لقيه في المطهر في غبش الجحيم)

ولكن الشاعر لا يكاد يلمس بكفه هذه الأوتار الهادئة الساحرة التي طال به عهد هجرانه إياها وعاوده الحنين إليها حتى يدعها إلى أوتار صاخبة ترن رنيناً مزعجاً مثل ضوضاء المعركة، فقد مس أذنيه طنين هو بقية سخط البرسبتيرينز على آرائه في الطلاق، فنظم سنة ١٦٤٦ مقطوعة عاوده فيها عنفه وصرامة هجائه ونشرها تحت هذا العنوان (إلى مستكرهي الضمائر الجدد في عهد البرلمان الطويل) وفيها يرمي البرسبتيرينز بتهم قاسية. فيقول إنهم ذلك إلا ليكرهوهم بمبادئهم ضمائر الناس التي حررها المسيح، وأنهم لم يكونوا خيراً من القساوسة الذين قوضوا سلطانهم لا بدافع النقمة على آثامهم بل بدافع حسدهم إياهم على تلك الآثام، ثم يتوعدهم الشاعر بكشف الستار عن ألاعبهم ومكرهم ويستعدى عليهم البرلمان، ويذكر أسماء بعض رجالهم فيسخر منهم ويتجاهلهم، ويختتم مقطوعته بتلاعب لفظي يفهم منه أن البرسبيتر ما هو إلا قسيس كتب اسمه غير مختصر.

وبعد هذه المقطوعة آثر ملتن أن ينفض يديه من الخصومات ولعله سئم طول القتال، أو لعل ذلك لأنه في الواقع لم يجد ما يثيره ويسخطه، أو لعله يئس من بني قومه جميعاً ورآهم لا يستحقون منه ما يلقي من أجلهم من عنت الخصومات وغل الحزازات.

ولكنه وقد ركن إلى الراحة لم يظفر بها في بيته فقد ازدادت في البيت دواعي متاعبه وضيقه، فأضيف إلى ما فيه من جلبة صراخ بنتين ولدا له تباعا في سنتي ١٦٤٦ وما بعدها، وما زال جيرانه وأنسباؤه يضايقونه بمشكلاتهم وأحاديثهم التافهة التي يتجرعها ولا يسيغها، لقد شكا من هؤلاء الناس فيما كتبه إلى صديق له بإيطاليا سنة ١٦٤٧ يصف حاله فقال: (هؤلاء الذين لا يربطني بهم إلا مجرد الجوار يحرضون لمجالستي كلُّ يوم فيضجروني بل يكادون من فرط ما أحس به من ثقلهم يدفعون بي إلى الموت).

وفي سنة ١٦٤٧ مات حموه مستر بوول، ولم يمض غير قليل حتى مات أبوه فحزن الشاعر عليه حزناً عميقاً، فقد كان يجله ويذكر دائماً ما له عليه من فضل، وترك له أبوه مالا تحسنت به حاله، فصرف تلاميذه لأنه استغنى عما كان يناله منهم من أجر نظير تعليمهم، ولأنه كانت تغمز على قلبه الرغبة في أن يعود إلى قيثارته، واستأجر ملتن منزلا جديداً أكثر سعة وأحسن موقعاً، وأمل أن يجد فيه ما ينشده من هدوء

ولكن شيئاً جديداً يقلقه ويخيفه وتتكدر له جوانب نفسه، وذلك أنه يوقن من تضائل بصره، ولقد بدأ ذلك الإحساس في نفسه منذ مستهل سنة ١٦٤٥، فظنه يومئذ وهماً من الوهم، ولكنه اليوم تلقاء حقيقة راهنة، فإنه إذا قرأ في صباح تألمت عيناه وأحس بظلمة تغشى الجانب الأيسر من عيناه، حتى لتحجب عنه ما يكون في هذا الجانب من أشياء... فإذا أضيفت هذه الظلمة إلى ما يكتنفه من ظلمة اليأس مما ابتغى من إصلاح أمكننا أن نتبين مبلغ ما كان يعانيه يومئذ من عذاب...

فكر ملتن أن يعود إلى الشعر، ولكن الفجر الذي بشر به في نهاية كتيبه الأول سنة ١٦٤١، والذي لمح إلى طائره الصداح لم ينبثق نوره بعد، بل لقد ازدادت حلكة الغسق من جزاء هذا الاختلاف الشديد في الدين والسياسة الذي

فرق الناس شـيعاً وأحزاباً وطوائف متباغية، ومن جزاء هذه الحرب المسـتعرة التي تزلزل الملكة، وهيهات أن يتغنى شاعر في ليل كهذا الليل...

واتجه ملتن إلى التاريخ، فأخذ يكتب كتاباً في تاريخ قومه، وتبين المرء من مقارنته بين الأقدمين منهم الأنجاد الأذكياء وبين المحدثين الأدعياء الأغبياء مبلغ ما كان في نفسه يومئذ من سخط وازدراء لأهل عصره، ومبلغ ما ساوره من هم وسـأم من هؤلاء الذين طالما امتدحهم فأطنب في مدحهم وتوقع على أيديهم كثيراً من الخير!

في ميدان السياسة

نفض ملتن يديه من الخصـــومات، ولبث يترقب أنباء الحرب، وإن الحنين إلى الشـــعر ليزداد في نفســـه يوما عن يوم، حتى ليكاد يجزم أنه عائد إليه عما قريب وجاعل همه كله إليه، كما كان أمره قبل أن ينصـــرف عنه ســـنة ١٦٤١ إلى الحرب التي أوقد نارها على القســـاوســـة معتقداً أنها كانت مما يقضـــي به عليه الواجب نحو وطنه في ذلك الوقت.

ولكن حديث السياسة يشغل باله ويستأثر بفكرة أحياناً على الرغم من حنينه إلى الشعر، حتى ليحسب أصحابها أنها هي اليوم كل همه، ولذلك يحاورون في أمره: أكان إلى الشعر يومئذ أم كان إلى السياسة ميله؟ ولقد نظم مقطوعة سنة ١٦٤٨ يمجد بها القائد الظافر فيرفاكس، ومنها يتبين القارئ شـــدة اهتمامه في ذلك الوقت بالسياســة والحرب، وقوة تحمســه لقضــية البرلمان. قال ملتن: (أي فيرفاكس، يا من يجلجل اســـمك كجندي في أنحاء أوربا جميعاً، فيملا كل فم بالحقد أو بالثناء عليك، ويملا الملوك الحاقدين جميعاً عجباً منك، ويرســـل الشـــائعات المدوية فتخفيف أقصـــى الملوك موطناً. إن بســـالتك الوطيدة التي لا تتزعزع لن تزال تأتي لوطنك بالنصـر، ولو أن ثائرين جددا يرفعون رؤوسـهم الشـــبيهـة برأس الهيـدرا، والتمثـال الخؤون يعلن مـا نقض من عهـد ليريش أجنحتهم الخـاتلـة، وان عملا أجل ممـا فعلـت لا يزال يرجى على يـديك حتى يتحرر الصـــدق والحق من ربقة العنف، ويتخلص الإيمان العام بالعدالة مما اتسـمت به الحياة من سـمة مخجلة هي التدليس العام، إلا أن الحمية لتنزف الدم عبثاً، بينما نرى الجشع والسطو يقتسمان الأرض).

الحق إنه لم يكن لملتن مندوحة على الســـياســـة وأنبائها، حتى لو أنه حاول بكل ما في وسعه أن يتجنبها ما استطاع، ومهما يكن من شدة حنينه إلى الشعر وعظم رغبته في أن يعود إليه، وقد حبس نفســه عليه ســنين من عمره، وتوفر

على دراسة وسائلة وأسباب النبوغ فيه؛ فما كان بقادر على أن يعتزل قضية الحرية، وهو نصيرها في كل وجه من وجوهها، وانه وقد استطاع أن ينتزع نفسه من الشعر انتزاعاً سنة ١٦٤١ ليوقد نار الحرب على القساوسة دفاعاً عن الحرية ليجد اليوم من اليسير عليه أن يرجئ العودة إليه، ولو إلى أجل قريب لينظر ماذا تكون عاقبة ذلك الصراع العظيم بين الملك والبرلمان، أو بين سلطة الفرد وسلطة الشعب.

وكان ذلك الصراع العنيف بين الملك والبرلمان صفحة مجيدة في تاريخ الحرية، أو فصلاً رائعاً من تاريخ الإنسانية في تمردها على الأغلال وأنفتها من الاستعباد، أو على حد تعبير مكولي في قوله: (لقد عاش ملتن في عصر من أبقى العصور ذكراً في تاريخ البشر، حيث كانت ساعة الفصل في ذلك النزال العظيم بين هورومازدو أهريمان بين الحرية والطغيان، بين العقل والهوى، ولم تكن هذه المعركة العظيمة من أجل جيل واحد ولا من أجل وطن واحد، وإنما ارتبطت مصائر الجنس البشري كله بما يكون من مصير الحرية لدى الشعب الإنجليزي، فها هنا أعلنت لأول مرة تلك المبادئ الغلابة التي اتخذت منذ ذلك الحين سبيلها إلى أعماق الغابات الأمريكية، والتي أثارت ثائرة اليونان على ما ضرب عليهم ألفى سنة من الذلّة والتدهور، والتي أوقدت في قلوب الشعوب المظلومة في أوربا من أحد طرفي القارة إلى طرفها الآخر ناراً لا تنطفئ جذوتها، وأرهكت مفاصل الطاغين بما لا قبل لهم به من خوف).

ونحسب بل تكاد في الحق نجزم أنه لولا ما كان فيه ملتن من شغل شاغل بمحاربة القساوسة، ثم بما مني به من خيبة في زواجه، وما جره ذلك عليه من خلاف شديد بينه وبين البرسبتيرينز وحرب منه أدارها عليهم، ما كان ليذر قضية البرلمان بضع سنين بغير دفاع منه في كتيبات كتلك التي نشرها سنة ١٦٤١، فإن رجلا له مثل روحه الحرة الوثابة، ومثل ثقافته الواسعة الممتازة، لخليق بأن يناضل بقلمه في تلك المعركة الدائرة في سبيل الحرية، وجدير إلا

يكون نضـاله بالقلم أقل بأسـاً من نضـال الشـاهرين سـيوفهم الباذلين في سـبيل النصر أرواحهم.

ونعتقد أن يأسه من الإصلاح وحنقه على بني قومه لعزوفهم عما دعاهم إليه لم يكن كما حسـب بعض الناس ليميل به عن السـياسـة يائسـاً منها كما يئس من غيرها، بل لقد كانت المعركة الدائرة هي أمله الباقي الذي ينبثق نوره فيما يكتنفه من الظلمات، ولذلك علق عليها من الرجاء مثلما يعلقه الغريق على آخر أمل له في النجاة!

ولملتن اهتمام بالسياسة من جهة أخرى، فهو خصيم البرسبتيرينز، ويود لو يذهب سـلطانهم. وهو منذ حملتهم عليه أقرب إلى المسـتعلين مذهباً، بل وأكثر منهم اسـتقلالاً، ولذلك فهو يتمنى نجاحهم ويتجه بقلبه إلى كرمول وجنوده، ويتضـح موقفه من الفريقين في مقطوعتيه اللتين ندد أولاهما بالبرسـبتيرينز مسـتكرهي الضـمائر سـنة ١٦٤٦، وامتدح في الثانية فيرفاكس أحد قواد جيش البرلمان سنة ١٦٤٨.

هكذا لبث ملتن يترقب ويجعل للسـياسـة همه، فلما تأكدت قوة كرمول والمسـتعلين بعد الحرب الأهلية الثانية، تبين أن الثورة توشـك أن تصـل إلى نهاية حاسـمة، ورأى ملتن أن الملك وقد ظل على شـديد اسـتمساكه بالأسـقفية، وأخذ يفاوض البرسـبتيرينز والاسـكتلنديين، إنما يتضـح أمره يوما عن يوم أنه العقبة الكئود في سـبيل التسـوية، فلما أراد زعماء المستقلين أن يخطوا الخطوة التي يقضى بها الموقف، وهي طرد البرسبتيرينز من البرلمان ومحاكمة الملك، تبين ملتن أن الله استجاب دعاءه، وأن مصير وطنه ومصيره بسبيل أن تقررا، وعاودته حماسه إلى الكتابة، ومن ثم شرع قلمه.

وأخذ ملتن يعد كتيباً جديداً، وقد بدأه أن تبدأ محاكمة الملك، وفرغ منه قبل إعدامه بأيام، فكان صـوته أول صـوت ارتفع، والناس عالقة أنفاسـهم دهشـة ورهباً، ونشره في يناير سنة ١٦٤٩ وجعل عنوانه (حق الملوك والحكام).

وقد ذاع اســـمه في أوربا بهذا الكتيب الذي برر فيه إعدام الملك، حتى إن زائري إنجلترا يومئذ كانوا يتطلعون إلى رؤية رجلين أحدهما أليفر كرمول رجل السيف، والثاني جون ملتن رجل القلم. وشاءت الظروف أن يشهر اسم صاحب الفردوس المفقود أول ما اشتهر في القارة بصلته بحادث إعدام الملك وجرأته في الدفاع عن هذا الفعل قبل أن يشتهر بالشعر، فلم يكن قد بدأ قصيدته الكبرى بعد، أما شعره الذي نشره قبل ذلك، فلم يقدره حتى قدره في إنجلترا إلا خاصة المثقفين، ولم يعرفه في القارة إلا قليلون.

ويعد هذا الكتيب من أكثر كتيبات ملتن متعة وأعظمها شـأناً، فقد بسط فيه طائفة من المبادئ العامة فيما يتصـــل بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبعض هذه المبادئ قديم يرجع عهده إلى أول المفكرين من الإغريق بالآراء الديمقراطية، ولكن ملتن يعرضها عرضاً جديداً، بينما يعينه على حسن بيانه إياها سعة ثقافته، وبعضها يظهر فيه ابتكاره أكثر مما يظهر اعتماده على ما خلف غيره من المفكرين.

والكتيب في جملته عليه طابع ملتن في سمو بلاغته وشدة حميته وروعة أدائه، وهو في روحه العامة صيحة على الطغاة، وتنديداً بالمستبدين ملوكاً وحكاما ورجال دين، وقد افتتحه ملتن بتبرير ما فعل الجيش جميعاً، وعدّ ما لحق الملك جزاء عادلا من الله على ما قدمت يداه، وجعل جانباً كبيراً منه لتأييد حق الناس في اختيار حكامهم وعزلهم، واختتمه بحملة نكراء على البرسبتيرينز والقساوسة إلا من كره منهم الاستبداد وحاد عن سبيله.

وكانت الفكرة التي بنى عليها ملتن تبريره إعدام الملك، هي أن الدولة إن هي إلا أداة لخير الناس وأمنهم، ولذلك فإن إعدام الملك يتمشى مع القانون القائل: (بأن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى سلامة المجموع إنما يعد عملاً قانونياً مشروعا).

ويتكئ ملتن على العقل والمنطق في الدفاع عن آرائه كما فعل في كتيباته عن الطلاق، فأساس العلاقة بين الملك وشعبه الوئام والرضى، فإذا فقد ذلك فقد بطلت شروط تلك العلاقة، ومن ثم فلا علاقة بينهما، وللناس من الخروج عن طاعة حاكم يعمل لصالحه دونهم، (لأن سلطته في الواقع مستمدة من الشعب وفق قانون، وعن قسم أداه ليؤدي بها حق الشعب في الإصلاح والخير لا لأي شيء خلاف ذلك).

ويقول ملتن إن الإنسان حر بطبيعته، وأن الرجل العادل لا حاجة به إلى القانون، فهو يسير على نهج من طبعه، وما جعل الحكومة أمرا ضروريا إلا فساد الإنسان، والحكومة مصدرها الناس الذين وصفوا السلطة في أيدي الملوك أو الحكام على أساس شروط معنية... ويعرف ملتن الطاغية بناء على ذلك بأنه الرجل الذي يعتقد أن السلطة سلطته هو، وأنها ما خلقت إلا لنفعه وخيره...!

ويعتقد ملتن أن مرد الفساد والشر في السياسة كما في غيرها إنما هو سيطرة العاطفة على العقل، وعلى ذلك فمصدرها الشر في الملك عاطفة، وعواطف الشر في نفسه يوسوس بها الشيطان الذي هو أصل كل عاطفة شريرة، وان الواجب ليقضى بمقاومة مثل هذا الملك الذي تتغلب في نفسه العاطفة على العقل!

ويضع ملتن القساوسة في موضع الشيطان، فانهم في رأيه أشد أعوان الملك على الطغيان، وأكبر سند له فيما يتمادى فيه من غي وظلم، ولا يعني بالقساوسة الكاثوليك منهم فحسب، وإنما يعني كل محب لنفسه شره تحركه الأطماع الدنيا، قيدين للطغيان، ويتخذ من الطاغية نصيراً، ويدافع عنه حتى ليكون حياله كعبدة الأصنام، ويعود فيوجه ملتن سهامه إلى البرسبتيررينز ويلقى على كواهلهم تبعة ما لاقته المملكة من شر على يد شارل، وينكر عليهم انتماءهم إلى الدين بأي وجه، أو صلتهم بالمسيح إلا ما يكون من مظهر لهم جري به العرف، وهم فيما عدا ذلك ذئاب جائعة لا تشبع بطونهم مهما كان

مبلغهم من الثروة، وكلما وصلت إلى الثراء العريض أيديهم الآثمة على حساب الفقراء والمساكين قالوا هل من مزيد، ولا وازع لهم من دين ولا من ضمير!

وكان حرياً أن يثير هذا الكتيب اهتمام القائمين على أمر الدولة، وأن يسرهم هذا الدفاع عنهم وقد جاء في أبانه، ورأوا أن رجل كمؤلفه علما واسع الثقافة شجاعاً لا يخاف في الحق شيئاً، فصيحاً لا يعي لسانه أمر مهما عظم، هو خليق بأن يعول عليه كدعامة من دعائم الحكم الجديد، ولذلك لم يلبث ملتن أن قلد وظيفة ذات خطر، فقد جعل قيما على ديوان الرسائل الأجنبية في مجلس الدولة... والواقع أن هذه الوظيفة لم تكن إلا ستاراً، فقد كان ملتن رجل القلم والفكر، والمدافع عن الجمهورية الوليدة، وظل في منصبة هذا يدافع عن الدولة ويرد على كل نقد أو تهجم، ويكتب ما يوحي به كرمول مما يريد أن يلقيه من إنجلترا وعلى أوربا من ضروب القول وأوجه الرأي.

ويتساءل المؤرخون عما دفعه إلى قبول ذلك المنصب، أكان ذلك رغبة منه في مظاهرة هذه الحكومة ومناصرتها لما توسم فيها من نصرة الحرية، أم كان الحاجة إلى المال، أم كان عن رغبة منه في مراسلو ذوي المكانة من الأجانب، أم أن كبرياءه وذهابه بنفسه وإحساسه بما قدره لشخصه من سمو المنزلة، جعله يطيب نفساً بمثوبة الحكومة إياه، إذ يحس في عملها هذا نوعاً من الاعتراف بقدرة وخطره؟

ومهما يكن من أمر منصبه الذي ارتضاه، فما أبعده عن ذلك الخيال الجميل الذي منى نفسه به قبل ذلك بثمانية أعوام حين تنبأ بفجر بهيج يوشك أن يهل على إنجلترا نوره، وبشر بشاعر إذ قال: (ولن يعدم ذلك الفجر طائره الصداح، فلسوف يتغنى من بين هؤلاء القديسين الذي ينافحون عن دين الله شاعر يأتي بلحن علوي جديد يشكر به أنعم الله، ويسجل نصر الله في مملكة تنعم بنعمة الحرية، وقد تخلصت من القساوسة ومجدت شاعرها المختار)!

وها هو ذا الفجر قد أهل نوره... فأين طائره الصـــداح؟ أين لشـــاعر وأين لحنه العلوي؟ كيف ارتضـى لنفسـه أن يكون عمله أن يكتب الرسـائل اللاتينية، وأن ينقل ما يرد منها إلى الإنجليزية، وان يرد على الشـــانئين والحاقدين على الدولة فيعود إلى عنت الخصومة وشغب الخلاف...

أجل، كيف آثر الشاعر على الخميلة قاعة الحكومة؟

ذلك ما لا يسعنا إلا أن نحس حياله من العجب قدراً كبيراً

وكان ملتن يحس كما أسلفنا تضـاؤل بصـره، ويشـعر أن عليه إزاء ذلك أن يقصد كل القصد في استعمال ناظريه، وكان ذلك وحده كافياً نرى لأن يرفض هذا المنصـب الذي يتطلب طول النظر في الرسـائل ما يكتب منها وما يترجم، وفي غيرها من الأوراق التي تحتاج فيها الحكومة إلى معونته ورأيه.

ولكنه كما رأينا قبل المنصـــب، ويرى بعض المؤرخين أن قبوله إياه على شـــدة حنينه إلى الشـــعر وكثرة ما يهجس في نفســـه منه، وحاجة ناظريه إلى الراحة، هو ضـرب جديد من التضـحية أشبه بتضـحية الأولى حين هجر الشعر على رغمه ســـنة ١٦٤١ اســـتجابة منه لداعي الحرية، فقد كان يعتقد ملتن أن مســـاهمته ولو بقد صـــغير في بناء صـــرح الحكومة الجديد عمل ينطوي على معنى الوطنية، وبخاصـــة أنه كان يؤمن يومئذ أن الحكومة الجديدة وقد جاءت نتيجة لذهاب الطغيان لا بد أن تظل نصـيرة للحرية، ولقد أشـار إلى هذا المعنى بعد ذلك بقليل في أحد كتيباتـه قـائلا: إنـه تقدم عن طيب خـاطر ليخدم بلاده، حينمـا طلـب إليـه ذلـك القـائمون على الأمر، وأنـه لم يطلـب على ذلـك أجراً، وحسبه من الأجر ارتياح ضـميره ورضـاؤه عن نفسـه، والحق أن المال لم يكن له دخل في قبوله ذلك المنصـــب، فإنه وإن كان ملتن فقيراً، فقد كان القليل من المال حســـبه لما تتطلبه أكلاف عيشـــه وهي يومئذ قليلة، وكان لا يعوزه هذا المال القليل.

ونعتقد أن ملتن على حق فيما يعتل به من علة، وليس يمنع هذا من أن نضيف إليها علة أخرى لها كما لهذه في طبعه من الشواهد ما يكاد يؤكدها، وتلك هي رغبته التي لازمته منذ صغره في أن يكون عالي القدر ممتاز المكانة، واختياره لهذا المنصب يحقق له تلك الرغبة، فضلا عما فيه من معنى الاعتراف له بالفضل وعلو المكانة في مجال الأدب والمعرفة، وكانت تطرب نفس كنفسه بلا ريب لأن يكون ذا صلة بتلك الشخصيات الكبيرة التي قضت بجهادها المرير على الاستبداد الذي يمقته اشد المقت، لا عن ملق أو افتتان بذوي الجاه والمكانة كما يفعل صغار النفوس، ولكن عن طموح وكبرياء ورغبة في السمو، وعن محبة وإعجاب بتلك الشخصيات لما تنطوي عليه محبته إياهم من معان، كما يفعل الأباة من أولي الفضل...

وثمة رأي لآخر يضاف إلى تلك الآراء، وهو رأي (مارك باتيسون) أحد من أجادوا الكتابة عن ملتن، ومؤداه أنه لا يبعد أن يكون ملتن قد رأي في المنصب مجالا جديداً للازدياد من المعرفة والحكمة، وهي ما يتطلبه الشعر من زاد، فقد طالما رأيناه من قبل يعد بأن يتوفر على الشعر متى استكمل منه عدته، وتم له ما يتوق إليه من نضج وخبرة بالحياة، وعلى ذلك فلن تذهب تضحية بوقته وبصره هباء، فلسوف تجدي عليه وثيق المعرفة بأحوال الناس وأمور الحياة!

وعاب خصـوم ملتن عليه قبوله منصـبا في حكومة مغتصـب جمع السـلطة كلها في يده، وقالوا كيف يفعل هذا نصـــير للحرية، واســـتخرجوا من ذلك أن دفاعه عن الحرية لم يكن إلا زعما فحسب؛ بل وذهبوا إلى أكثر من هذا فرموه بالتبجح أو بالغفلة إذ يحل لنفسـه من التعصـب ما يحرم مثله على غيره فهو في منصـــبه يرد على مخالفي الحكومة، ويعنفهم ويســـخر من آرائهم، وماذا يكون التعصـــب إن لم يكن فعله هذا تعصـــبا؟ ويزيدون على هذا انه إن جاز ذلك من ذي جهالة ضـيق الأفق فهو لا يليق من رجل يزعم انه يتحلى بالأدب وينتسـب إلى الفن...

وهذا كلام يشـــبه بادي الرأي أن يكون حقا، ولكنه لا يلبث عند رده إلى الواقع والاعتبار في أحكامه أن تتزايل عنه شبهة الحق؛ فأما عن التعصـب في ذاته عيبا، بل إن التعصـب للرأي محمدة ما دام يؤمن المرء بما يقول، ويشـعر انه يدافع عن حق، والمعول هنا على نيته لا على خطئه أو صـــوابه، فإن لم يتبين حقيقة ما ينتوى فمدار الحكم على القضـــية المتنازع فيها، ويســـتحيل أن يخفى وجه الحق في قضـية يتناولها متخاصـمان يبذل كلاهما أقصـى جهده في إثبات ما يحاول الأخر نفيه، أو نفي ما يعمل خصـــمه على إثباته. طالما إن الوقائع غير خافية، وكان الأمر أمر اعتبار وتدبر ورد إلى قواعد مقررة؛ فإن جهل الخصـمان بعض الوقائع أو جهلاها كلها انتفى التدليس عنهما جميعا، وان غابت عن أحدهما كان الثاني هو المدلس، وان لم يمكن اتهامه بالتعصـب حتى يتبين تدليسـه؛ وإنما يكون التعصـب مذمة إذا أصـر المرء على رأيه وهو يعلم كما يعلم خصـــمه انه باطل. أو إذا تبين له وجه الحق فكبر عليه أن يرجع أليه وتمادى فيما انساق فيه أول الأمر بجهالة.

وكان ملتن يؤمن أن حكومة كرمول تنصر الحق والحرية فالدفاع عنها دفاع عنهما، ولا عبرة عنده بشـكل الحكومة الاسـتبدادي، وقد تحقق له ما كن يتمناه من نتيجة، وطالما كان يؤمن ملتن دون أن يعميه غرض خاص بعدالة كرمول،

وبعده عن المطامع الذاتية، وإباحته الحرية للناس فليس يعيبه أن يتعصب له، وإنما يلحقه العيب إذا تبين له تحرف كرمول عن الصواب في أمر وتحيزه لرأيه وظل على ولائه له؛ وما فعل ملتن شيئا من ذلك. بل لقد عارض كرمول، وأنكر من تصرفاته ما سيأتي بيانه في موضعه...

واتخذ ملتن أهبته للدفاع عن الحكومة في كل موقف تحتاج فيه إلى الدفاع، وكانت أول خطوة له في هذا المضمار الطويل ذي المسالك الوعرة ما كتبه بعنوان (ملاحظات) في صدد صلح كِلْكِنِي الذي عقده كرمول مع الأيرلنديين، فاخذ يمن عليهم ملتن بما يلقون من عدالة وتسامح ما كانوا ليظفروا بمثلها على يد شارل، وقد حسن وقع هذه الملاحظات في نفس كرمول، ونفوس أعضاء حكومته وأنصاره.

وكانت حكومة كرمول في اشد الحاجة إلى مثل هذا الثناء فهي في الواقع تستند إلى أقلية الشعب، وتعتمد في بقائها على الجيش المنتصر، وعلى شخصية كرمول الذي لقب حامي الجمهورية وإنْ كان ملكا في حقيقة الأمر ينقصه التاج؛ وكانت أغلبية الشعب قد أسخطها القضاء على الملكية، وبات الناس يتوجسون خيفة من انفراد كرمول بالسلطة على هذا النحو دون البرلمان، واخذ البرسبتيرينز في داخل البلاد يكرهون هذه الحكومة إلى الناس خفيه، بينما كان الرأي العام في أوربا يعلن استنكاره وسخطه عليها...

وفي شهر أغسطس سنة ١٦٤٩ نشر في الناس كتاب غفل من اسم مؤلفة عنوانه (أيكون باسِلَيكْ - صورة جلالته المقدسة في عزلته وآلامه)؛ وتلقفت الأيدي هذا الكتاب، وكان الناس قد أحزنهم وآلمهم إعدام الملك على الرغم مما كان من طغيانه وعقد ألسنتهم الرعب والدهشة؛ وسرعان ما نفدت طبعته فأعيد طبعه وأعيد حتى لقد بلغ خمسين مرة في تلك السنة، وذهبت الظنون بالناس كل مذهب من يكون مؤلف هذا الكتاب، وشاع فيهم انه من وضع الملك نفسه كتبه قبيل إعدامه؛ وقد ادعى تأليفه فيما بعد أحد رجال الدين واسمه دكتور

جودن وتقرب به إلى الملكية العائدة، وزعم انه اعتمد في تأليفه على مذكرات كتبها شارل بخطه في أخريات أيامه؛ وخلاصة الكتاب إن الملك ذهب ضحية العدوان والبطش وقد ظل مؤمنا بربه صابرا حتى قتل مظلوما.

ومهما يكن من أمر تأليفه فقد ذاع الكتاب في الأمة على نحو لم يعرف الناس له شبيها من قبل، وهال الحكومة الأمر فتلفتت تبحث عمن يرد عنها هذه الموجة العاتية، وفكرت في أول الأمر في سِلْدِن وكان من اشهر رجال عصره مهارة وعلما، ولكنها اتجهت أخيرا إلى ملتن.

وما أهل أكتوبر حتى كان ملتن على الرغم مما كان يعاني من ضعف بصره قد رد بكتاب بلغ نيفا ومائتين وأربعين صفحة، سماه (أيكون اوكلاستسي) أي محطم الأيقون؛ وفيه استعراض ما جاء في ذلك الكتاب فصلا واخذ يفند كل رأي فيه ويسفه كل حجة في بلاغة وتحمس وتدفق على نحو ما فعل في خصوما ته وردوده السالفة...

وقد افتتح ملتن كتابه بقوله انه مما يجمل بالمرء أن يتعقب مساوئ رجل هوى من مثل تلك المنزلة العليا التي تبوأها شارل وبخاصة بعد أن دفع ثمن ما اقترف، ولكن كتابه على الرغم من هذه الفاتحة لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما فعل شارل إلا أحصاها، ثم راح يعيب على هؤلاء الذين يمجدون ذكرى هذا الملك الذي صنع بحرية بلاده ما لم يصنعه في إنجلترا ملك قبله، ورأى إن الذين يفعلون ذلك إنما يبرهنون به على انهم غير جديرين بالحرية التي حاربوا من اجلها واخلق بهم أن يعودوا إلى الأغلال فمثلهم كمثل عدد من الوحوش الثائرة المقتتلة لا تسكن حتى تكبل أرجلها وتغل أعناقها، وتنم هذه اللهجة القاسية عن مقدار حنقه على من أحزنهم إعدام شارل، والكتاب في جملته وفي روحه العامة لا يعدو عن كونه مجادلة حزبية وخصومة جامحة لا كما تكون الخصومات في الرأي بين العلماء ولذلك فهو لا يشرف رجلا مثل ملتن إن لم يك كفيلا بان ينتقص من قدره...

من أجل هذا لا يسع المرء ألا أن يحس آسفا عميقا لانصرافه عن الشعر والفن فذلك ما خلق له، إما هذه الخصومات السياسية وما ينفق فيها من جهد ويحتمل من عناء فما اقلها عودا إلا على الذين طلبوها ليحتموا بها، وما أثقلها وأرذلها وقعا في نفوس الذين يقدرون ملتن حق قدره كشاعر، والذين تهفو قلوبهم إلى أمثال ما غنى من قبل من الحان بلغ بها ذروة الإجادة، وتجاوز بها أقصى ما بلغه شاعر من سحر الفن.

ويحلوا الخصوم ملتن أن يأخذوا عليه مأخذين يتصلان بالآداب والفن في كتاب أيكون اوكلاستسي، فأما أولهما فقد نسبوا أليه انه تهكم على شارل أن جعل وليم شكسبير قرينه المقرب في عزلته آخر حياته، وأما ثاني المأخذين فقريب من الأول وخلاصته إن ملتن تزمت البيوريتانز خصوم الفن إذ يعيب على الملك انه اخذ فقرة من قصيدة اركاديا لسير فيليب سدني فجعل هذه الفقرة صلاته، ويرى انه مما يشين الملك أن يتخذ صلاته من قصيدة كهذه وان كانت لها في ذاتها قيمتها وبراعتها في ساعة عصيبة كالتي كان فيها، ويصف ملتن تلك القصيدة كأثر فني بأنها من قصائد الحب العابثة.

ويرى مارك باتيسون أن المأخذ الأول لا أساس له وإنما جرده إلى سوء الفهم، فما سخر ملتن من شارل وإنما كان يقتبس ملتن فقرة من مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير يوضح بها معنى يريده. فذكر في صدد ذلك انه لا يقتبس من كاتب ممن لا يحسن الملك مصاحبتهم، وإنما يقتبس ممن يعرف الجميع انه كان رفيقه المقرب في عزلته ألا وهو وليم شكسبير.

ولكن باتيسون لا يعفى ملتن من المآخذ الثاني، ويقول إن فيه شاهدا على أن مؤلف الأليجروا قد تأثرت الناحية الفنية فيه تأثرا غير قليل بما اندفع فيه من الخصومات الدينية والسياسية وألا فكيف يحقر قصيدة كهذه فينسبها إلى العبث واللهو.

وما كاد يستريح ملتن من عناء رده حتى وجد نفسه كما وجدت الحكومة نفسها تلقاء هجوم آخر لا يقل عنفا عن سالفة ويزيد عليه في سعة انتشاره، وما احدث في أوربا وفي إنجلترا من قوة الأثر وشدة الدوي، وقد انبعثت هذه الصيحة من هولندا هذه المرة في كتاب ألفه باللاتينية علم من أعلام الأدب الأفذاذ هو الأستاذ سلامسيس أحد رجال جامعة ليدن وجعل عنوانه: (دفاع عن الملك شارل الأول).

وبيان ذلك أن شارل الثاني كان يعيش في مدينة هيج، وكان على مقربة منه سلامسيس في جامعة ليدن، وكان هذا الأستاذ اقدر معاصريه على الكتابة باللاتينية لغة العالم يومئذ كما هو الحال في الفرنسية اليوم، فاستعانة شارل ليدافع عن أبيه، وقبل سلامسيس ذلك عن طيب خاطر لأنه كره إعدام الملك في إنجلترا كرها شديدا.

وكان الأدباء القادرون على الكتابة، وعلى الأخص كتابة اللاتينية عدة الملوك والأمراء وذوي المكانة في ذلك القرن، وكان لبضاعتهم سوق يعظم فيه الربح، وكان لهم قدرهم وعظيم خطرهم لا عند الجمهور ولكن عند الحكام. فبهم يجتذب الرأي العام ولأقلامهم المشروعة مثل ما للسيوف من اثر أو كانت ابعد من ذلك شانا، وكان المتبع أن يستأجر الحكام هؤلاء الكتاب ليصنعوا ما تصنع الصحافة اليوم من دفاع وتهيئة للأذهان، ونشر لما يراد نشره من الآراء.

وكان سلامسيس قمة من القمم الشوامخ تتنازعه الجامعات والعواصم ويحب البابا أن يستأثر به فيبقيه عنده في روما، بينما يعمل الملوك على إغرائه بزيارتهم والإقامة عندهم، وكان هذا الرجل واسع الأفق، قلما وجد ند له فيما قرأ ودرس من الكتب؛ لذلك كانت استجابته لشارل الثاني كسبا عظيما لهذا الذي يهمه الدفاع عن أبيه، وقد كتب دفاعه ولم يأخذ عليه أجرا كما يرجح أكثر المؤرخين، ونستطيع أن نتصور مبلغ ما أحدثه كتاب مثل كتابه من أثر في

إنجلترا وفي أوربا، كما نستطيع أن نتصور فداحة العبء الذي ألقي على عاتق ملتن وان المرض ليخترم جسمه يومئذ وإن العمى ليتهدد ناظريه.

وصل كتاب سلامسيس إنجلترا في أواخر سنة ١٦٤٩، وسرعان ما اصدر مجلس الدولة قرارا يحرم تداوله، وفي يناير سنة ١٦٥٠ انتدب ملتن ليكتب ردا على هذا الكتاب فما أهل شهر مارس حتى نشر ملتن، وهو لا يقوى على فتح عينيه كتابا عنوانه (دفاع عن الشعب الإنجليزي)، وقد ازدادت بهذا الكتاب شهرة ملتن في أوربا جميعا وعظم قدره في الأوساط الأدبية كلها، وكانت دهشة الناس من شجاعته أكثر من إعجابهم بوطنيته فانه لم يحجم عن منازلة ذلك المارد الأوربي سلامسيس، وان يجعل عدته اللاتينية، وقد حسب خصمه إن لن يقدر عليه أحد، فإذا به حيال قوة لا ريب فيها، وفصاحة لا يستطيع أن ينكرها إلا الجاحدون.

احتشد ملتن لكتابه وبذل قصارى جهده على الرغم من إلحاح العلة عليه وطغيان الغشاوة على ناظريه، ليظهر لأوربا انه أعلى من سلامسيس في اللاتينية كعبا وأطول منه باعا؛ ولقد بلغ في كثير من مواضع الكتاب غاية ما تمنى، ولكنه كان في مواضع أخرى كالمغنى الذي يكلف نفسه ما لا تطيق ليأتي بخير ما عنده، فما يعود من ذلك الجهد إلا بانقطاع نفسه واحتباس صوته؛ ولقد وجد ملتن في الرد على سلامسيس العظيم فرصة يلفت فيها أوربا إلى مقدرته ويقنعها بضلاعته وتمكنه واتساع أفق ثقافته، لذلك أسرف في التحمس وبالغ في سوق العبارات الضخمة وتأنق وتعمق وتعالى وحلق، وكان في بعض المواطن إلى الخطيب الذي نسي نفسه أقرب منه إلى الكاتب الذي حذق فنه.

على أن ما بذل من طاقة في هذا السبيل قد سبب له كثيرا من الضعف في نواحي القياس والبرهان والاستيعاب والشمول والإحاطة بموضوع الدفاع وحسن ترتيبه وتسلسل سياقه؛ هذا إلى أن اهتمامه بأطهار عيوب سلامسيس وتصيد أخطائه وتعقب متناقضاته والسخرية منه قد صرفه كثيراً عن غايته، ثم

إن توجيه المطاعن الشـــخصـــية إلى خصـــمه وإســـرافه في ذلك إلى مدى من الفحش بعيد البس كتابه كثيرا من السخف والحق به غير قليل من الفسولة.

ولم يعف ملتن شـــارل الأول في هذا الكتاب كذلك من التحقير والإهانة وهو في لحده، فشبهه بنيرون طاغية روما، ونسب إليه كثيرا من الفجور والفسوق واتهمه بتهمة نكراء هي دســه الســم لأبيه، إلى غير ذلك مما يبعد كل البعد عن اللياقة...

وأنكر ملتن ما ادعاه الملوك لأنفسهم من حق الهي، فليس يستند هذا الزعم إلى أســـاس معقول، ولا هو مما يتفق مع ما يتصـــف به الله من عدالة وحكمة، فالله عدو الظلم ونصـير الحرية، وهو يحب الأحرار من عباده ويرفع منزلتهم؛ وقد جاء المسيح لنصرة الحرية، وإلا فهل يرضى الله أن تقوم الحكومات لتكون كل منها أداة للطغيان، وكيف يقبل أن يفرض على الناس طاعة هذه الحكومات ويقر خضـــوعهم للظلم والبطش؟ وما فعل الشـــعب الإنجليزي أكثر من ثورته على الطغيان وتقريره مبادئ الحرية ليعيش الناس في كنف هذه المبادئ آمنين مطمئنين لا يأتيهم الخوف من أي مكان..

ويمجد ملتن حكومة كرمول وما فعلت في ســبيل الحرية وما ظفرت به من نصر لن يظفر بمثله إلا الأنجاد الميامين أولو العزم والبطولة، ولكنه يصارحها انه لا يزال أمامها ما يقتضـيها جهودا وبطولة ليسـت اقل مما بذلت، فعليها أن تقضـي على ما يتهدد كيان البلاد من المساوئ الداخلية كالجشع والطمع وأنانية ذوي الثراء وبغيهم، حتى يتمتع بالســـلام والأمن في كنف الحرية؛ وتنطوي عباراته هذه على شـيء من الوعيد يتهدد به خصـوم الحكومة من طرف خفي، فقد كان ملتن ضـــيق العطن بهؤلاء الخصـــوم شـــديدا عليهم يتمنى لو ابتلعتهم الأرض وسعيهم وما يمكرون!

وسخر ملتن من شارل الثاني وسماه شارل الصغير وبالغ في تحقير دعوته سلامسيس للدفاع عن أبيه ونعت من التفوا حوله بأنهم حفنة من الصعاليك يتصايحون ولاهم لهم إلا التصايح والعواء.

إما ما قذف به سلامسيس من مطاعن، فقد تجاوز في ذلك كل حد، فلم يتورع عن شيء مما يمس العرض والشرف، ونال بسهامه زوجته وسخر منها كما سخر من زوجها ووصفه بأنه مطية لهذه الزوجة التي تملك زمامه فلا يملك لنفسه بين يديها ضرا ولا نفعا؛ هذا إلى ما رماه به من الجهل والغباء والغرور والادعاء والحمق والعبودية وما أليها من ألفاظ السباب ومرادفاتها مما نعجب كيف تسنى أن يصدر مثله من رجل كملتن فضلا عن أن يعد هذا دفاعا عن قضيته، ولكنها فيما يبدو طريقة ذلك العصر وأسلوبه في الجدل والخصام...

وبلغ الغضب كل مبلغ بسلامسيس، ونال من نفسه فرح حاسديه لما أصابه أكثر مما نالت مطاعن ملتن، فقد اشمت ملتن به الأعداء وأضحكهم منه، وكان يبالغ هؤلاء الحاسدون في إعناته فيثنون على ملتن ويعجبون بعبقريته وضلاعته في اللاتينية وآدابها، وانبرى فريق من محبيه يسفهون هؤلاء ويوجهون المطاعن إلى ملتن؛ وبرز لهؤلاء أنصار ملتن فكالوهم صاعا بصاع، وهكذا تشعبت المعركة إلى معارك حتى كاد ينسى الدفاع عن شارل والدفاع عن الشعب الإنجليزي.

ونفّس سلامسيس عن نفسه بكتاب ثان بلغ ثلاثمائة صفحة ولكنه مات سنة ١٦٥٤، ولم ينشر كتابه إلا سنة ١٦٦٠ بعد عودة الملكية إلى إنجلترا، وقد نسي الناس هذا الموضوع، ومن شاء إن يقف على مبلغ حنق سلامسيس على خصمه، فليقرأ ما جاء في هذا الكتاب من مطاعن، فقد كال لملتن بنفس كيله فهو عنده الأحمق المفتون الذي يظن في نفسه الملاحة، وما هو إلا وحش قذر، وان خير ما يجب أن يصنع به هو أن يشنق على أعلى مشنقة ثم يوضع رأسه

فوق برج لندن، وأباح سلامسيس لنفسه أن يعير ملتن بما أصابه من عمي كأنما هو أمر يدخل في مسئوليته، ومما قاله في هذا الصدد نعته ملتن بأنه الرجل الذي لم تكن له بصيرة، حتى فقد بصره كذلك، وان من اقبح الأمور وأرذلها أن يعيب المرء على خصمه عاهة لحقته ولا يد له فيها وليس وراء ذلك سخف فيما نعتقد، وما نظن إلا أن سلامسيس قد مسه الخبل من فرط ما ملأه من غيظ فطوعت له نفسه أن يقول هذا الكلام، وهكذا احتدمت الخصومة بين الرجلين حتى قال هوبز: انه عاجز عن أن يقطع أيهما كان احسن لغة وأيهما كان أسوأ جدلا؛ ويرى دكتور جونسون على الرغم من شدة وطأته، إذ ينقد ملتن انه كان ابلغ من سلامسيس. ويرى مثل هذا الرأي مارك باتيسون، ويزيد عليه أن ملتن كان أقوى فهما وارجح عقلا من خصمه وإنْ كان على سعة اطلاعه اقل منه قراءة ومعرفة بالكتب...

وقد مات سلامسيس بعد رد ملتن عليه بنحو ثلاث سنوات، ومع ذلك فقد أذاع أنصار ملتن ومنهم ابن أخته انه مات كمدا، ومن اعجب الأمور وادعاها إلى الأسف أن يقر ملتن هذا الزعم ويجعله من دواعي فخره، وأنها لسقطة تحسب على الشاعر العظيم، وكم نود لو أن تاريخه قد خلا منها، فهي لا تقل عن سقطة خصمه، إذ عيره بفقد ناظريه...

ورضـــيت حكومة كرمول عن ملتن أعظم الرضـــاء وأصـــبح لديها المكين الأمين، ورفع كتابه ذكره في أنحاء أوربا، ومما ســـاعد على ذلك أن كثيرين كانوا يضـيقون بترفع سـلامسـيس وصـلفه ونظرته إلى الكتاب والأدباء جميعاً نظرة الزعيم الذي لا يرضـــي منهم بغير الإذعان له، وســـاعد عليه كذلك أن الناس عادة ينجذبون إلى الكاتب الجديد الذي يظهره موقف كهذا الموقف. هذا إلى أن ملتن كان يتغنى بالحرية ويدافع عن حق الشـــعب فتشـــيع في عبارته حرارة الوطنية، وهو إنجليزي يناضـــل عن بني جنســـه، بينما يرى الناس سلامسيس يعمل لحساب غيره في قضية لا يربطه بها رباط إلا استجابة لشارل الثاني، وشتان بين موقفه وموقف خصمه...

وأصبح مقر ملتن في ديوان الحكومة كما أصبح بيته قبلة الزائرين من ذوي المكانة وأعلام الأدب من الإنجليز وغير الإنجليز من الأجانب الذين يهبطون إنجلترا، ولا ريب أن هذا قد أثلج فؤاده وأبهج نفســـه، فما أشـــد ولوعه بنباهة الشأن وبعد الصيت!!

ويزعم جونسـون أن ملتن قد نال جزاءً على صـنيعه ألف جنيه صـرفت له بإذن من البرلمان، ولكن بايتســـون ينكر هذا الزعم ويقول: إن جونســـون هو المســـؤول عن شـــيوعه في كل ما كتب عن ملتن من تراجم، فهو خالق هذا الزعم؛ والحق أني لم أجد فيما زعم جونســـون برهاناً لزعمه ولا فيما أنكر بايتسون دليلا لإنكاره، ولعل جونسون تأثر بما قاله سلامسيس إذ أنه اتهم ملتن فيما اتهمه به بأنه مأجور يكتب ما يكتب لاعن عقيدة ولكن عن رغبة في الكسب، ويعتمد بايتسون في نفيه هذا عن ملتن على مجرد استبعاد حدوثه، فما يتفق هذا وما طبع عليه ملتن من كبرياء واعتزاز

على أن ملتن في الواقع قد ثمن ما كتب، ودفع ذلك الثمن غالياً لا يقوم بمال ولا بشـيء من أعراض هذه الحياة، وأي شـيء أغلى عليه من ناظريه؟ لقد كان ذلك المجاهد الحر يشكو العلة في عينيه منذ بضع سنين، وكانت تنتابهما غشاوة

من حين إلى حين؛ وفي سنة ١٦٥٠ ذهب النور من عينه اليسرى، وحذره الطبيب ملحاً، وما برح يكرر عليه أنه إذا أجهد عينه اليمنى، فهي ذاهبة كأختها لا محالة، ولكنه جاد على وطنه بما بقي من بصره، قال في ذلك بعد أن وقعت الكارثة بسنتين أي سنة ١٦٥٤: (لقد كان علي أن أختار بين أن أنكص عن واجب سام أو أفقد بصري، وفي هذه الحالة ما كنت لأستطيع أن أصيخ إلى الطبيب... ولم يك في وسعي إلا أن أستجيب إلى ذلك المرشد القائم في داخلي، ذلك الذي لست أدري ما هو، والذي تحدث إليّ من السماء، واعتبرت في نفسي أن كثيرين قد اشتروا ما هو أقل خيراً من هذا بضر هو أعظم مما يتهددني من ضر، كهؤلاء الذين يبذلون نفوسهم مثلا ليشتروا المجد فحسب؛ وعلى ذلك فقد جمعت عزمي على أن أبذل ما بقي من بصري على قلته في أداء أعظم ما في طوقي أداؤه من خدمة للصالح العام)

ولقد أقبل المجاهد المصمم لم ينكص عن جهاده، وإنه ليعلم أن ذهاب بصره هو عقباه التي لامحيص عنها؛ وما دخلت سنة ١٦٥٢ حتى حلت به الكارثة وا أسفاه، فحيل بينه وبين النور، وغشيته الظلمة، وهو لا يزال من عمره في الثالثة والأربعين وباتت عيناه اللتان كانتا أجمل ما في محياه الأبلج الحلو أقوى دواعي الحزن والألم لكل من تطلع إلى ذلك المحيا الكريم؛ وكانت الأرض يومئذ تأخذ زخرفها وتتزين للربيع، ولكن الشاعر الذي عشقت روحه الجمال لن يرى بعد اليوم جمالا لربيع!

وما نحسب أن في تاريخه على ما يزخر به من الشواهد على شجاعته شاهداً هو أجل من هذا أو أصدق منه أو أبعد أثراً في النفوس، وإنا لنحس حياله مثل ما نحسه حيال فارس ترك في الميدان شلوا من أشلاءه: أو سقى أرض وطنه بفيض من دمه!

ولأن فقد البصر يحول بين عامة الناس وبين متع الحياة، فذهاب بصر الشاعر أو الكاتب معناه الحيلولة بينه وبين طلب الحكمة، وهذا أوجع في نفسه

وآلم لخاطره من حرمانه من اللهو ومن زينة الدنيا؛ ولنا أن نتصـــور وقع هذا في نفس كنفس ملتن، ذلك الذي ما انصـــرف يوماً عن القراءة والدرس على الرغم من كثرة شواغله وتعدد مشاكله!

البطل الضرير

أحاطت الظلمة بالشاعر العظيم، فهل ذهبت نفسه حسرات على ما أصابه؟ كلا، بل تماسك للخطب وقد أُنْذِرَ قبل وقوعه، وتذرع بالصبر، وإنه لذو كبرياء حتى على الدهر وأرزائه؛ وما كان لروح مثل روحه أن تهن مهما كرثته الأهوال ونزل به ما يعيا به الرجال!

وراح البطل يتلمس العزاء لنفسه، فكان عزاؤه الذي اطمأنت إليه روحه أنه أدى لوطنه صنيعاً جليل القدر بكتابه الذي رد به على سلامسيس، فليس ضاره بعد ذلك أن يذهب في سبيل صنيعه بصره...

وثمة عزاء آخر يدلنا على شـــدة اهتمام ملتن بنفســـه وفرط اتجاه فكره إلى ذاته، وعظم انطواء شعوره على ما عسى أن يكون شعور الناس نحو شخصه لا في جوهره فحســـب، ولكن في مظهره كذلك؛ وذلك ما أحس به من ارتياح، إذ علم أن ذهاب بصـــره لم يؤثر في مظهر عينيه؛ عبر عن ذلك الارتياح في قوله: (إن عيني لم يمســسـهما في مظهرهما ضـر، وإنهما لتلتمعان بضـوء لم تحجبه غشـاوة، ومثلهما في ذلك مثل عيني من يبصـر بصـراً تاماً، وهذه هي الناحية الوحيدة التي أجدني فيها على الرغم مني منافقاً)؛ وفي إشـــارته إلى ما عده نفاقاً منه سخرية عذبة وتهكم لا يخلو من مرارة...

ولندع ملتن نفسه يفصح عما جال في خاطره نتيجة لما أصابه، فقد عبر عن ذلك أبلغ تعبير وأصدقه في مقطوعة من مقطوعاته؛ وأشار إليه إشارة رائعة في مقطوعة أخرى، قال في الأولى: (إذا أنا تفكرت كيف انطفأ من حولي الضـوء قبل أن أقضـي نصـف أيامي في هذه الدنيا الواسـعة المظلمة، وكيف عطلت في تلك الملكة الوحيدة التي يعد تعطليها موتاً من الموت، بينما أجد

نفسي أكثر نزوعاً لأن أخدم بها خالقي وأن أقدم حسابي الحق بين يديه، خشية أن يحق عليَّ لومه؛ إذا أنا تفكرت في ذلك تساءلت في حماقة : هل جعل الله النهار للعمل، بينما أحرم هكذا من الضوء؟ ولكن الصبر كي يقضي على هذه الشكوى لا يلبث أن يجيبني: إن الله غني عن عمل الإنسان وعن مواهبه فإن الذين يذعنون لسلطانه الرحيم خير إذعان هم الذين يخدمونه خير خدمة، وإن مكانته لهي مكانة الملك المهيمن، يجرى بأمره الألوف في البر والبحر دائبين، وكذلك يخدمه من هم واقفون لأمره منتظرون)... وقال ملتن في المقطوعة الأخرى يخاطب صديقه سيريك سكنر: (أي سيريك، منذ ثلاث سنوات وهاتان العينان وهما من النور سليبتان، ولو أنهما سليمتان في مظهرهما الخارجي من العيب ومن الغشاوة قد نسيتا إبصارهما، ولا يقع في مقلتيهما المكفوفتين منظر لشمس ولا لقمر ولا لنجم خلال العام ولا لرجل ولا لامرأة، ومع ذلك فلست أشكو يد الله ولا مشيئته، لا ولا ينقضي شيء من حماسة القلب ومن الأمل، بل أحتمل وأمضي قدماً، ولعلك تسأل: ماذا يعينني؟ إلا إنه شعوري أيها الصديق بأني فقدتهما مرهقاً بالعمل في سبيل الدفاع عن الحرية، ذلك العمل النبيل، عملي الذي ترن به أوربا من جانب إلى جانب؛ وإن هذا الخاطر لخليق أن يقودني في متاهة هذه الدنيا، فأسير به رضيَّ النفس، ولو أنني أعمى ولم يتح لي غيره رائداً أسمى)

واختير له في أبريل سنة ١٦٥٢ مساعد يصرف شؤون وظيفته بأمره، ويقرأ له ما يقتضيه عمله من قراءة، ويكتب ما يمليه عليه مما يستدعي العمل أن يدون؛ وأقبل ملتن على عمله كأن لم يعقه عنه عائق، يشعر من يدانيه أنه رخي البال مطمئن الخاطر، لا يفتر اهتمامه بالسياسة، ولا يتخاذل عزمه أو تتطامن كبرياؤه...

وفي مايو استطاع ملتن ولم يمض شهر على مصيبته أن ينظم مقطوعة وجهها إلى كرمول عنوانها (إلى اللورد جنرال كرمول) ولم يك كرمول يومئذ

قد سـمي حامي الجمهورية بعد، وإنما كان بسـبيل أن يحمل هذا اللقب، إذ كان ينظر إليه كأعظم رجل في الدولة، وألزم شخصية لسلامتها إذ ذاك، وقد نجاها بعد هزيمة الملك مما كان يتحيفها من مهالك، فأعاد النظام إلى أيرلندة سـنة ١٦٤٩، وهزم الملكين في إسكتلندة سنة ١٦٥٠ والتي تليها وأجبر شارل الثاني على الفرار إلى فرنسـا؛ وبذلك قبض على أزمة الحكم في المملكة جميعاً، ولم يبق يسـتدعي حكمته وهمته إلا ما يتصـل بالناحية الدينية، فقد كثرت الفرق والطوائف التي يخشـى من اختلافها بعضـها مع بعض، فهناك قساوسـة شـارل الأول، وهناك البرسـبتيرينز ثم المسـتعلون؛ وتركت بعض الكنائس بغير رعاة من هؤلاء ولا من هؤلاء؛ ودعا فريق إلى أشـراف الدولة على الكنيسـة بحيث يتمشـى النظام السـياسـي الجديد مع نظام ديني يشـاكله، ورغب فريق آخر إلى القضـاء على الكنيسـة الإنجليكانية، أي كنيسـة الدولة الباقية من عهد شـارل، واقترح بعض المستقلين وضـع نظام جديد لكنيسـة لا يقبل فيها رجل من رجال الدين إلا إذا أقر خمسـة عشـر مبدءاً أسـاسـياً وضـعها هؤلاء، وإذ ذاك لم يرض ملتن عن هذه القيود، واهتاجه الحنين إلى الدفاع عن الحرية، وتخالجه السـخط على هؤلاء الذين يريدون شراً بالحرية الدينية في عهد الحرية السياسية، فنظم مقطوعة يناشـد ملتن أن يتجه من شـؤون الحرب إلى شـؤون السـلم ليدافع عن الحرية الدينية في مهارة وجدارة، كما دافع عن الحرية السياسية!

وكأنما كان بين ملتن وبين القدر ثأر، فلم يكد يفيق مما غشـيه ويذهب عنه روعه، حتى روع بموت وحيده الطفل فأرمض جوانحه الحزن، وكان لا يذكر ولده أو يقع في سمعه إشـارة إليه من قريب أو من بعيد إلا تبادر دمعه فامتلأت به عيناه الكفيفتان فما استطاع - وهو القوي الجلد - أن يحبسـه! وضـربه الدهر ضربة أخرى ولما يرقأ دمعه، إذ ماتت زوجته بعد ابنها بشهر وبعض شهر في يونيو سـنة ١٦٥٢، وقد وضـعت له أنثى فتركتها في سـرير الوضـع ووسـدت التراب وهي بعد في السـادسـة والعشـرين وقد مضـى على زواجها بملتن تسـع سنوات، وعاشت معه نحو سبع سنوات بعد أن صلحت ذات بينهما

وهكذا تتوالى عليه المحن وتتنوع صـــروف الدهر فتمحصـــه وتثبت فؤاده، ويجمع في حياته بين وجهي الشـــجاعة، فله إلى جانب إقدامه وحميته عظم صبره وصرامة عزيمته!

وحق له أن يستريح من السياسة ومتاعبها، وأن يطلب العزاء في قيثارة وله في هوميروس من قبله أســـوة، وما يكون له بعد ما حاق به عزاء إلا الشـــعر، لعله يقضـي منه مأرب صباه ومنزع هواه بعد أن شغلته عنه الحوادث سنوات طويلة

ولكن البطل الضـرير لم يكد ينزع إلى الراحة ويستثني نسائم الشعر، حتى انبعثت صـيحة جديدة من نفس المكان الذي انبعثت منه الصـيحة الأولى، فنشـر في هيج كتاب جديد باللاتينية سماه صـاحبه (استصـراخ دم الملك السماء على الخائنين من الإنجليز) وأخذ مؤلفه يســـخط على كرمول وجنوده في عبارات شـديدة تجد مثالا لها في قوله: (إن جريمة اليهود بصـلب المسـيح ليسـت شـيئاً مذكوراً إذا قيست بإعدام شـارل الأول)؛ ثم راح يمتدح سـلامسـيس ويطنب في مدحه ويغلو في ذلك غلواً كثيراً؛ وبقدر ما أسبغ على سلامسيس من مدح كانت ســـهامه التي قذفت بها ملتن، فهو عنده دودة تدب من كومة قمامة، وهو أحط من القرد وأكثر ضـآلة من البقعة، وهو أرنب فاتر وصـعلوك جائع هزيل، وإنه لجاهل طرد من كمبردج لاســـتهتاره وتبذله. وفر إلى إيطاليا لما لحقه من عار إلى غير ذلك من عبارات أقل ما توصـــف به أنها البذاءة في أشـــنع صـــورها وأرذلها.

البطل الضرير

وكان ملتن في جنوحه إلى الراحة يفكر فيما عسى أن يرد به سلامسيس على رده هو عليه، ويدير في خاطره ماذا يصنع وماذا يعد من رد؛ حتى جاء هذا الكتاب فاستأثر بفكره، وطلب إلى ملتن أن يرد فيدفع عن وطنه ما يتهم به كما فعل حيال صيحة سلامسيس، وما كان في حاجة إلى أن يطلب إليه ذلك، ففي هذا الكتاب تهجم وقح على قوم يجلهم وعلى حكومة يعتز بها فضلاً عما فيه من مطاعن شخصية كفيلة بأن تثيره وتسخطه على صاحبه أعظم السخط.

ومن عسى أن يكون صاحب هذا الكتاب؟ ذلك ما أخذ يتساءل ملتن عنه؛ فليس على غلافه إلا أنه طبع بإشراف ألكسندر مورس، وفطن ملتن آخر الأمر أن مورس هذا هو مؤلف الكتاب ولكنه يتواري. والواقع أن مؤلف الكتاب كان يعيش في إنجلترا ما بين أكسفورد ولندن، وهو بيير دي مولان، ولم يجرؤ بالضرورة أن يلقي بكتابه إلى مطبعة في إنجلترا فأرسله إلى في هييج، وهو من سلالة اسكتلندية ولكن أباه نزح إلى هولندا؛ ونشر مورس الكتاب وقدم له، وظن ملتن وشايعه في ظنه أكثر الناس أن الناشر هو المؤلف، وكتم مورس حقيقة الأمر كتماناً شديداً فيما يتعلق بمؤلف الكتاب، ولكنه أنكر أنه مؤلفه؛ إلا إن إنكاره لم يزد الناس إلا اعتقاداً بأنه هو فحلت عليه لعنة ملتن وأصحابه أجمعين، وبالغ مورس في كتمان سره وكان شديد الوعي؛ فلو بدرت منه كلمة أو إشارة تنم عن صاحب الكتاب لحاق به وهو على مقربة من كرمول، ومن ملتن سوء العذاب...

وتنزي ملتن تنزي الليث الجريح يريد أن يتعجل الرد، ولكن المرض يقعده والعمى يحوجه إلى من يكتب له؛ ولم يك أعون له يومئذ من ابن أخته جون فيليبس، ولكن فيليبس كان في شغل يرد كلفه به عمه على هجوم آخر صغير

وجه إليه؛ لذلك لم يكن بد من التمهل. فتمهل ملتن على رغمه وإن جوانحه لتتقد حقداً على مورس ومن دفعه من الكائدين.

وظل ملتن يرصد أنباء مورس ويتسقط معايبه، ويرسل من يتجسس عليه ويجمع ما يستطيع جمعه مما عسى أن يكون حوله من أمور تشينه في حياته العامة وفي حياته الخاصة.

وكان ملتن حرياً أن يترفع عن هذا فلا يكف نفسه مثل هذا العناء من أجل إمعة من النكرات يعد ازدراء ملتن إياه لما في ذلك من مجرد الاكتراث له شرفاً يلحق به، وحسبه أن يرد على ما ينسب إلى الحكومة من مثالب مقيماً الدليل إن أمكنه على بطلانها وحقيقة الدافع إليها.

وإنه لمما يؤسف حقاً أن يتنزل رجل مثل ملتن على جلالة قدره وسمو أفقه إلى ما لا يخرج في جوهره عن كونه مغالبة ومجادلة حزبية لقوم يعكفون عليها غدواً وعشياً لا يبتغون إلا الكيد ولو أنه أعرض عنهم واستصغر لكانوا هم المكيدين...

وجاء رده بعد سنتين أي سنة ١٦٥٤ إذ نشر باللاتينية (الدفاع الثاني)، وأن المرء ليتملكه الأسف كلما فكر في فيما كانت تجدي على الشعر مثل هذه الطاقة من جانب شاعر أقترن أسمه بالسمو في ذلك الفن، وجاوز بلسان قومه في شعر الغناء والملاحم أسمى درجة أمكن أن يبلغها شاعر من قبله وبعده بحيث صار له في الشعر الإنجليزي أفق يشرف أقوى الشعراء بعده تحليقا أن يدنو منه فيتشرف له، وفي شعر الدنيا قاطبة مكانة تسلكه في القلائل الأفذاذ.

على أن كتاباته النثرية منها والإنجليزية لم تخل من فائدة وأهمية فمنها وقفنا على كثير من آرائه في الدين والسياسة والاجتماع، ومنها لمحنا بعض خلاله ونزعات وجدانه وخلجات شعوره، هذا إلى أنه كان يبلغ أحياناً في نثره كما سبق القول درجة لا تتقاصر عن مستوى شعره، بلاغة عبارة، وإشراق ديباجة

وقوة أداة، وروعة فن. مما جعله يعد فيمن لهم على اللســـان الإنجليزي عظيم فضل...

ويسـتبين كثير من صـفاته ككاتب أحسـن ما تسـتبين في كتابه هذا (الدفاع الثاني) فالرأي مجتمع على أنه من خير ما كتب ملتن إن لم يكن خير ما كتب جميعاً، ويقول ذوو الخبرة باللاتينية ممن تحدثوا عنه إن ملتن أشـــرف على ذروة البلاغة فيه، وقد ضـمنه جانباً من حياته الشـخصـية، وتعرض فيه لأقوى شـخصـيات الحكومة الجمهورية وأورد طائفة من آرائه الأسـاسـية في السياسـة والحكم، وأنذر في ختامه بما يخاف، وأفصـــح عما يتوقع إن لم يأخذ بنصـــحه المعاصرون.

أسـرف ملتن في التفاخر بحكومة كرمول وما أدته إلى إنجلترا من صـنيع، وما كان لها في قضـية الحرية من مواقف مشـهودة، وما أتيح لها من نصـر فيها لم تشهد الدنيا مثيلا له، وما كان إلا مردداً بكلامه هذا ما سبق أن ذكره في الرد على سلامسيس، وكذلك شأنه في امتداح رجال ذلك العهد وما قدمت أيديهم من خير، وأمعن ملتن في الذهاب بنفسـه وكان شـعوره بأنه قاهر سـلامسـيس يدفعه إلى الغلو في ذلك حتى لقد أشـــبه أن يكون غلوه شـــططاً، وكان كلما تذكر ما رماه به خصمه من مطاعن يعظم غلاؤه فينسى أنه بذلك يبدي ما كمن في نفسه من غيظ.

يقول لمن ظن أنه خصمه: (تتساءل من أكون ومن أين جئت وتزعم أني في ذلك يحيط بي الشـــك، كذلك أحاط الشـــك بهوميروس من يكون وأحاط بديموسـتين...) ثم يسـرد ملتن تاريخ حياته ويعدد مآثره ومفاخره، ويدفع عن نفسـه ما نسـب إليه، حتى ما عير به من فقد بصـره فلم يدع هذا بغير رد فأشـار كما ســـلف القول إلى براءة عينيه في مظهرهما مما يعيبهما حتى ليخالهما من يراهما مبصـرتين كأحسـن ما يكون الأبصـار وأتمه، ونجد فيما يقول ملتن عن نفســه مثلاً من أحسـن الأمثلة لما يلحق الرجل القوي من ضــعف إذا عنى من

الأمور بما لا يتفق وسامي منزلته وعظيم خطره؛ والحق إن شدة إحساس ملتن بذاته هو الذي يجره إلى مثل هذه المواقف...

ويرضى ملتن لنفسه فضلا عن هذا أن يوجه المطاعن إلى مورس وكان خليقا أن يدرك وهو المسرف في كبريائه وغلائه أن الجملة من مثله على مورس وأشباهه إن هي إلا ضرب من المهانة وإلا جاز أن يتداخل المرء إعجاب بقوة النسر أو الصقر إذا انقض على عصفور وديع، أو ببطولة الفارس إذا جندل غلاماً لم يدر ما الدرع بعد ولا ما السيف!

ومن عجب الأمور حقاً أن يهتم ملتن اهتماماً كبيراً بالعيب على مورس كأنما كان له نداً يحرص أن يظهر عليه، وأن يأتي في مهاجمته بأمور حسبه فيها من إساءة إلى نفسه أن يكون هو قائلها؛ فهو يتجسس على علاقاته بالنساء ويستعرضها متهكماً ساخراً وينعت مورس أثناء ذلك بما يشاء خياله من نعوت ويعنف عليه ويغلظ غلظاً كبيراً حتى ليكون للمرء عذره إذا ظن أن ملتن إنما يباهي بمقدرته على الطعن والكيد...

ولكن (الدفاع الثاني) على الرغم من هذا كله يعرض أحسن ما كتب ملتن كما ذكرنا، ومرد ذلك إلى صفات فيه بيناها، ونزيد عليها صفة أخرى جديرة بالإعجاب حقاً وخليقة أن تجعل للكتاب ذلك الأثر الحسن في نفوس قرائه وتلك هي هواجسه وقلقه على الحرية؛ فقد أحيطت حماسته لكرمول بما ألقي عليها الفتور من التحذير والنصح والإبانة عما توسوس به نفسه من مخاوف.

وكان كرمول قد استغنى عن البرلمان وأصبح يلقب بحامي الجمهورية، وإنه في الحق لملك مستبد بالأمر لا ينقصه إلا التاج، وأحس ملتن أن الحكومة القائمة حكومة أقلية متحكمة تعتمد على الجيش، ولا سند لها من الشعب إلا أقلية تدين لها طوعاً أو كرهاً، وعلى ذلك فلا بد أن يكون لها من المبادئ ما تستغني به عن الكثرة المؤيدة فحياتها في استمساكها بما يميزها من غيرها قدراً فضلاً.

ولم يك ملتن راضـــياً عن مســـلك كرمول في المســـألة الدينية كما ذكرنا، وكذلك لم يعجبه تنكر كرمول لبعض الرجال ممن قام على كواهلهم عهده، وأزعجه تشدد كرمول والتجاؤه إلى العنف وعد ذلك نذيراً بخنق الحرية بأيدي أوليائها؛ وغمزت على قلبه المخاوف أن يمنى بخيبة جديدة كتلك التي مني بها من القساوسة أولاً ثم من البرسبتيرينز؛ فها هو ذا رأس الدولة يميل إلى القائلين بإشراف الدولة على الكنيسة أعني بإقامة كنيسة للدولة، وهكذا يجد ما كان يحلم به من حرية العبادة وحرية النشـــر وحرية الطلاق تتهادى جميعاً صـــرعى في عالم ما أبعد أهله عن الفطنة والمدنية في رأيه وما أبعده في جملته عما وصف به من السمو، وما علق عليه من آمال...

وتتجلى لباقة ملتن فيما اصـــطنعه لبيان معايب كرمول فهو يســـوق كلامه ساق النصح فينهاه عن أمور ويطلب إليه فعل غيرها فيتضمن نهيه وطلبه أن كرمول فعل ما لا يصلح فعله وقصر فيما يجب أن يفعل...

يقول ملتن إن الدولة مكين الدعائم إذ أنه يســـيطر عليها رجل عظيم ويعينه مجلس يتكون من عظماء أماثل، وهي بذلك خير مما تكون عليه لو وجد البرلمان وفساده وسخافاته؛ ولكن لابد من الحرية، ولابد أن تكون الحرية آمنة مطمئنة لا يأتيها خوف ولا يمسها عنف. فإنها إن مسها العنف من الرجل الذي تكفل بحمايتها كان ذلك بمثابة ذبح الفضيلة؛ ويتجه بالخطاب إلى كرمول طالباً إليه أن يمسك عليه ذوي الرأي والمشورة من رجاله ويذكر له بعض الأسماء؛ ثم يسأله ملحاً أن يدع الكنيسة للكنيسة ويعظه ألا يزيد القوانين وقد رأى عدداً كبيراً منها يشرع حديثاً وألا يحظر شيئاً لا يصح أن يحظر، وأن يعنى بالتعليم ونشر الثقافة وأن يكافئ المجتهدين في هذا السبيل، وينصح له أن يطلق حرية الفلسفة، وأن يدع كل ذي رأي ينشر رأيه بغير رقابة فلا يأتي العلم على أيدي الجهلاء؛ ثم يدعوه أن ينصـــت إلى كل شـــيء وألا يخاف من اســـتماع أي رأي خطأ كان أو صواباً إلا رأي من يدعو إلى الوقوف في وجه الحرية...

وفي ذلك الذي يقوله ملتن أبلغ رد على الذين اتهموه بممالأة كرمول بالحق وبالباطل؛ ونعجب أن يكون رجل مثل الدكتور جونسون ممن اتهموه بهذا. قال جونســون في كتابه عن ملتن: (وكان كرمول قد طرد البرلمان معتمداً على الســلطان الذي قضــى به على الملكية، وأخذ يتملك بنفســه تحت اســم حامي الجمهورية، ولكن كانت له قوة ملكية بل وأكثر من قوة ملكية؛ أما أن ســلطانه كان مشــروعاً فذلك ما لم يقل مدع به، ولقد أقام هو نفســه أســاس حقه على الضرورة، ولكن ملتن وقد ذاق حلاوة استخدامه هكذا في صورة عامة لم يكن يرضى أن يعود إلى الجوع والفلسفة فخان الحرية التي دافع عنها وأسلمها إلى قوته، بينما كان يؤدي وظيفته في عهد اغتصاب واضح، وليس في الآراء أحق وأعدل من الرأي القائل بأن الثورات لابد أن تنتهي إلى العبودية، وأن الذي برر قتل مليكه بســبب أفعال عدها غير قانونية يُرى الآن وهو يبيع خدماته وضروب ملق لطاغية، لا يمكن كما هو واضح أن يجد عنده عملاً قانونياً).

وما خان ملتن الحرية ولا أســلمها إلى قوته وســلطانه، وإنما خاف على الحرية منذ أن لاحت له إمارات تخيفه عليها من شــخص أفرط في حبه، وليس يدل ذلك إلا على أنه يجعل الحرية فوق كل شيء وأنه في سبيلها يضحي بكل شيء، والحق أننا لا نجد فيما سلف من مواقفه في جانب الحرية موقفاً أكثر من موقفه هذا دلالة على صدق حبه للحرية وصدق إخلاصه في كل ما ينهض له من دفاع عنها، وما نجد كلام جونســون إلا مثلاً لما تكون عليه الكتابة عن غرض أو عن جهل.

ويختم ملتن كتابه فيعود إلى الإنذار والتحذير قائلاً إنه فعل ما يجب عليه فعله وعلى مواطنيه أن يتدبروا في أمرهم، وإلا ساءت العاقبة، ومهما يكن من شيء بعد ذلك فمرده إليهم فعليهم تبعة كل خير أو شر. يقول في ذلك (لقد أديت شــهادتي، وأكاد أقول إني قد بنيت تمثالاً لا يســهل هدمه يقوم شــاهداً على تلك الأعمال الفريدة التي تسمو على كل مدح؛ وكان مثلي مثل شاعر الملاحم الذي

يحرص على قواعد هذا الضـــرب من النظم، فلا يعنى بأن يصـــف حياة بطله الذي يمجد كلها، وإنما يقتصـــر على بعض أفعال خاصـــة من حياته كآخيل إذ كظم ما في نفســـه تلقاء طروادة وكعودة أوليس وكمجيء إينياس إلى إيطاليا؛ وكذلك فعلت فحسبي مبرراً لموقفي أو عذراً عنه أني مجدت كما تمجد البطولة على الأقل فتحاً من فتوح بني قومي ومررت بغيره مراً، إذ من ذا يســتطيع أن يسـرد أعمال أمة بأسـرها؟ فإذا تنكبتم طريق الفضـيلة بعد هذا الذي أظهرتموه من البســـاطة والحمية وفعلتم ما لا يخلق بكم وما هو دون قدركم. فإن أعقابكم سـوف يحكمون على أخلاقكم؛ ولسـوف يرون أن الأسـس أحكم وضـعها وأن البداية كانت مجيدة، ولكن يحزنهم أن لم يوجد من يرفع القواعد ويتم البناء).

هذا هو ملخص (الدفاع الثاني) أو رد ملتن على مورس، ولقد بذل هذا المسكين أقصى ما في وسعه قبل أن ينشر ملتن كتابه ليقنعه بأنه ليس صاحب الكتاب الذي يريد أن يرد عليه فلم يعد من ذلك بطائل إذ أصـــر ملتن على أنه هو، وتلك خلة من خلال الشاعر العظيم فما تتجه نفسه إلى أمر أو تتعلق بفكرة إلا اشتد تمسكه بها فصعب زحزحته عنها أو استحال ذلك، ومن السهل أن نرد هذه الخلة إلى شـدة اعتداده بنفسـه أولاً ثم إلى ثقته ويقينه من أنه لا يفعل شـيئاً عن هوى ولا يريد إلا الحق...

ولما نشـر كتابه هالت مورس تلك العاصـفة التي أرسـلها عليه، وعاد ينفي عن نفسـه أنه كتب شـيئاً، ولقد كان يسـتطيع أن يفشـي السـر فيدل على الخصـم الحقيقي لملتن ولكنه آثر أن يتحمل الأذى وهذه محمدا ومكرمة منه ولا ريب...

وتعاظم مورس الأمر فما يدري ماذا هو فاعل حيال، وأول ما خطر له هو شـراء ما ورد هيج من نسـخ الكتاب وإعدامها جميعاً ولكن ما حيلته فيما نشـر من النســخ في القارة وفي إنجلترا؟ وأعد رداً على ملتن لم يعد كونه دفاعاً عن نفسه ونفياً لما رمى به من تهم وبخاصة ما يتصل بعلاقاته بالنساء، تلك التهمة

التي جعلت الأمهات في كل بيت يجفلن من دخوله عليهن وعلى بناتهن الأمر الذي أحزنه وأزعجه حتى كاد يذهب بصوابه.

ولم يشأ ملتن أن يسكت حتى على هذا الكتيب الذي رد به مورس، فبادره بكتيب سماه (الدفاع عن نفسه) وعاد يسخر فيه من مورس، ويضيف إلى ما رماه به من مطاعن شخصية مطاعن جديدة ليست دون سآلفها إفحاشاً وإقذاعاً، وعقب مورس على هذا محاولاً أن يبرئ نفسه من كل ما رمى به، ولكن ملتن يأبى إلا أن تكون له الكلمة الأخيرة ولذلك لقيه برد ثالث آثر بعده مورس الصمت فلا طاقة له بهذا الذي يرسل الصواعق عليه لا يني ولا يفتر ولا يريد أن يسمع دفاعاً ولا استغفاراً.

هذه هي قصة النزاع بين ملتن وبين سلاميس ومورس وهي قصة كما رأينا حوت الكثير مما يكشف لنا عن جوانب شخصيته ويرينا جانباً من آرائه وموقفه من كرمول وحكومته ورجال عصره.

وآن أنْ يتجه ملتن إلى الأدب بعد طول انقطاعه عنه، وكان يميل به إلى الأدب ما تنطوي عليه نفسه من حنين إليه شديد، ما برح يملأ خاطره كلما خلا إلى نفسه لحظة من السياسة ومشكلاتها وخصومتها، وتزايد هذا الحنين في نفسه إلى الشعر حين اطمأن قلبه من جهة إلى أنه أحسن البلاء فلم يعد يقوى على مجادلته خصيم، وحين توجس قلبه من جهة أخرى خوفاً من المستقبل، إذ كان يكربه إعراض الناس عن الجمهورية، وتزايد رغبة الكثرة في إعادة الملكية وإن كان لا يجرؤ أحد على الجهر بذلك؛ وكذلك دب إلى قلبه السأم من كرمول نفسه فيما يتصل بسياسته الدينية إذ كان كرمول لا يريد أن يتحول عن إقامة كنيسة تشرف عليها الدولة، ويكون لرجالها حقوق وامتيازات مالية؛ وكان ملتن شديد التمسك بفصل الكنيسة عن الدولة لأنه يعتقد أن قيام طائفة دينية تعتمد في حياتها على الدولة هو سبب ما يلحق بهذه الطائفة من فساد، ثم تكون هذه الطائفة بدورها السبب الأكبر في فساد الدولة...

لهذا رغب ملتن وقد أزعجه شبح اليأس أن يعكف على الشعر فلا تكون له إلى السياسة عودة، وقد جعل مرتبه معاشاً له مدى حياته فزالت مخاوف الرزق، والحق أنه بعد رده على مورس بات فيما يشبه العزلة، أما عمله الرسمي فكان نائبه فيه يؤديه عنه إلا إذا استدعى الأمر إشرافه، ولم يك ذلك في الأكثر إلا عند كتابة الرسائل الهامة باللاتينية أو ترجمة ما يرد منها إلى الإنجليزية وكان يستعان بغيره أحياناً فيما يتطلب الدقة والمراجعة.

ولم يستدع إشرافه واهتمامه بعد تلك المعارك العنيفة بينه وبين خصوم الجمهورية إلا حادث وقع سنة ١٦٥٥ فاهتز له البروتستانت في أوربا كلها، واهتم به كرمول اهتماما عظيماً، وشايعه في ذلك ملتن وامتلأت يده بسببه بالمكاتبات وذلك هو مذبحة بيدمنت؛ وخلاصتها أن شارل عما نويل الثاني دوق سافوي وأمير بيدمنت، قد أنذر البروتستنت في بيدميت منه بريح عاتية فعليهم أن يعتنقوا الكاثوليكية وإلا فليخرجوا من ملكه في مدى عشرين يوماً،

وكأنما رأى هذا الأمير أن المذاهب حتى الدينية منها كالثياب لا يكلف الناس فيها إلا استبدال ثوب بثوب! ورفض البروتستنت في بيدمنت أن يذعنوا لهذا الطغيان وآثروا أن يذوقوا العذاب ألوانا، فأرسل عليهم الملك طائفة من جنده أكثرهم من المرتزقة، وما فيهم إلا كل فظ غليظ القلب كأنما قدمت كبده من صخر فأخذوا يذبحون من يلقون أو يقذفون بهم رجالا ونساء وأطفالا من فوق الجبال إلى الأودية ولقد وجد الناس أما ورضيعها في قرار سحيق في أحد الأودية، قد ألقي بهما من فوق الجبل، أما الأم فكانت جسداً هامدا ولكنها كانت تحتضن بيديها الميتتين الباردتين رضيعها ولما يزل على قيد الحياة...

وضج البروتستنت في أوربا بالسخط، وقال كرمول إن الحادث قد مس قلبه كما لو كان يتصل بأقرب الناس إليه وأعزهم عنده، وأمر فجمع الشعب الإنجليزي أربعين ألف جنيه معونة للمنكوبين، وأحتج كرمول، وأخذ يتأهب ليعقب احتجاجه بتدخل مسلح لولا أن تداركت فرنسا الأمر، وحملت شارل عما نويل الثاني على سحب قراره. فعاد إلى البروتستنت في بيدمنت الأمن والهدوء.

ولم يقتصر ملتن على إملاء رسائل الحكومة؛ بل أعلن سخطه في مقطوعة من أقوى مقطوعاته الشعرية ومن أكثرها ذيوعا قال: (انتقم أيها المولى العلي لقديسين. المذبوحين الذين تتناثر أعظمهم على جبال الألب الباردة، فقد حل العذاب حتى بهؤلاء الذين حافظوا على دينك الحق خالصاً كما كان في عهده الأول في حين كان يعبد آباؤنا الأوثان والأحجار؛ لا تنسهم أيها المولى، وسجل في كتابك أنين هؤلاء الذين كانوا قطيعك والذين ذبحهم في قرارهم القديم أولئك السفاحون من أهل بيدمنت، وألقوا بالأم وطفلها من حالق فوق الصخور ترميهم صخرة إلى صخرة؛ لقد كان لأناتهم في الأودية صدى رفعته إلى التلال، ونقلته التلال إلى السماء؛ انثر أيها المولى دمائهم الشهيدة وأشلاءهم على حقول إيطاليا كما تنثر البذور حيث لا يزال يتسلط الطاغية الثلاثي عسى أن ينمو من

هذه مائة نمو فيكون منها جيل يعجل وقد علم سبيلك بالقضاء على هذا الكرب البابلوني).

وجنح ملتن إلى العزلة بعد هذا الحادث، وكان يقضي أكثر الوقت في بيته، يقرأ له ابن أخته أو غيره من تلاميذه القدامي أو من محبيه من المتأدبين حاشيتي النهار وطرفاً من الليل، وكان يدير في رأسه في تلك الأيام ما عسى أن ينهض له من الشعر. ففكر في أن يجعل موضوعه بطولة الملك آرثر، ذلك الموضوع الذي فكر فيه من قبل فينظم الآرثريادا كملحمة يسجل فيها فترة من تاريخ قومه؛ ولكن أكثر اتجاهه كان إلى موضوع آخر كما يذكر ابن أخته وذلك هو (قصيدة من قصائد البطولة عنوانها الفردوس المفقود)، واقتصر جهده على التدبير في هذا الموضوع والصورة التي يصوغه فيها وقراءة ما يتصل به، وكان أول الأمر يريد أن يتخذ نوعاً من المسرحيات لباساً له؛ على أنه كما يذكر ابن أخته فيلبس لم يبدأ نظم قصيدته فعلاً إلا سنتين قبل عودة الملكية أي سنة ١٦٨٥...

وكانت الحكومة قد أسكنت ملتن هويت هول في أول عهده بالوظيفة، ولكنه لم يلبث هناك طويلاً فاستأجر بيتاً على مقربة من حدائق سان جيمس وعاش فيه منذ سنة ١٦٥٢، وفي هذا المنزل أقام ملتن حتى سنة ١٦٦٠ حيث أجبرته عودة الملكية إلى الاختفاء حينا لينجو بنفسه من الهلاك.

وكان يزوره في منزله أصدقاؤه، وهم بين تلميذ له جاوز مرحلة التعلم أو معجب به من المثقفين، وقل في زائريه من كان من المبرزين من رجال العصر في الأدب أو في السياسة أو في الدين، وذلك أن اعتداد ملتن برأيه وتعاليه بثقافته جعلا بينه وبين أكثر الناس ممن يرون أنفسهم أندادا له حجابا كثيفاً، فكان هؤلاء يرمونه بالكبرياء والصلف ويكرهون منه أن ينظر إليهم من على نظرة ترفع وتحفظ وإعراض، هذا إلى أن آراءه الدينية قد باعدت بينه وبين النابهين من البرسبتيرنز، وميوله السياسية قد جعلت من الملكيين أعداء

له، وعنفه في الخصـومة قد ألقي في روع الناس أن من يتصـل به لا يأمن أن يصبح من عدوه لأقل خلاف في الرأي أو العقيدة.

ويجب أن نضـيف إلى تلك الأسـباب محبته للعزلة منذ أيامه في هورتون وعكوفه على المطالعة والدرس؛ فقد كان ميله إلى العزلة من الظواهر الواضحة في حياته؛ وقد كرهت إليه محبة العزلة لقاء الناس وغشيان مجالسهم أو سوامرهم، وعنده من الكتب عن ذلك عوض. ففيها لنفسه ولعقله متعة حق متعة.

ونستطيع أن نتبين مقدار ما كان بينه وبين نابه عصره من جفاء مما ذكرته أرملته عن رأيه في هوبز الفيلسوف الكبير قالت (لم تكن له معرفة به، وكان لا يحبه زوجي أبداً وإن كان يصرح أنه رجل ذو نواح عظيمة).

وكان من احب أصدقائه إليه وأكثرهم اختلافاً إلى منزله وأقربهم مجلساً منه لورنس وسـيرياك سِـكَزْ ونيدهام وهارتلب وأولدنبرج وأندرومافل، وكان الأولان تلميذين له أما البقية فكانوا من ذوي المكانة الأدبية وعلى الأخص أخرهم ذلك الذي اختير مساعداً لملتن في وظيفته الرسمية سنة ١٦٧٥، وكان مارفل متين الخلق كصاحبه لا تضعضعه النوائب ولا تحني رأسه الفاقة، وكان أصغر من ملتن باثنتي عشرة سنة وكان مثله متخرجاً في كامبردج، وقد احب ملتن حبا شـديداً وأعجب به إعجابا عظيما فتوثقت بينهما عرى المودة وظل مارفل على ولائه له حتى فرق بينهما الموت.

ويذكر فيلبس أنه كان يزور خاله أبان السـنوات الثمانية التي قضـاها فيما يشـبه العزلة قبل عودة الملكية عدد كبير من ذوي المكانة ثم لا يشـير إلا إلى اثنين: ليدي وانالا ودكتور باجت، وكانت ليدي رانالا على حظ من الذكاء غير قليل كما كانت ذات ثقافة وذات ميول حرة؛ وكانت قد وكلت إلى ملتن تعليم ابن أخ لها ثم ابنها من بعده، وقد أعجبت بالشـاعر العظيم ولما كان لا يسـتطيع زيارتها كانت تزوره هي وتستمع في إكبار وإجلال إلى حديثه...

وحدثت عنه دبورا إحدى بناته فقالت: (إنه كان جليسا مؤنسا، وكان حياة حلقة من الصحاب تدور به، وذلك لأنه كان يتدفق بشتى الأحاديث والموضوعات وكان عذب الروح مرحاً ذا مودة في غير تكلف لشيء من هذا).

والحق أن ملتن كان لين الجانب طلق المحيه محبب العشرة صادق المودة لمن يجلس منه مجلس التلميذ من أستاذه وهؤلاء هم خاصته الذين ذكرنا، وكانت لهجته في مخاطبتهم لهجة المعلم، وكان يتلو عليهم ما يظن أنهم في حاجة إلى معرفته ولا يجب أن يجادلهم أو يبادلهم حجة بحجة فليس هذا شأن الأستاذ مع تلاميذه، وما منهم إلا من يكبره ويخفض له جناحه ويغض عنده من صوته، وإن كثيراً منهم ليتنافسون من يكتب له إذا أملى ومن يقرأ له إذا طلب بحثاً من البحوث، ومن يقوده ويأخذ بيده ليمشي ساعة في الحدائق القريبة، وكلهم بذلك مغتبط أيما اغتباط.

وكان يزوره في منزله كثير من كبراء الأجانب ممن يهبطون إنجلترا، وكانوا يسمعونه عبارات التجلية والإعجاب، ويذكر اوبري أحد مؤرخي حياته في ذلك قوله (إن الحافز الوحيد الذي كان يحفز فريقاً من الأجانب لزيارة إنجلترا كان في الأكثر رؤية أليفر كرمول حامي الجمهورية ومنستر جون ملتن، وكانوا يرغبون أن يروا بيت الشاعر والحجرة التي ولد فيها فقد كان الإعجاب به خارج إنجلترا أشد منه في موطنه كثيراً).

وكان يعينه في كثير من شؤونه إلى جانب أصدقائه أبنا أخته. أما بناته الثلاثة فكن صغيرات فقد تركتهن أمهن حين ماتت منذ ثلاث سنوات أي سنة ١٦٥٢ وكبراهن في السادسة من عمرها ووسطاهن في الرابعة وصغراهن بنت شهر واحد.

وفي سنة ١٦٥٦ تزوج ملتن بزوجة ثانية، وقد جاءت كما أحب رجاحة عقل وصدق عاطفة، وأستثنى الشاعر نسيم المودة والرحمة بين يديها، وأحس

كأنما يحيي حياة جديدة على الرغم مما يحيط به من ظلمة، وكان كمن ألقت به الصـــحراء المجدبة إلى واحة ظليلة؛ ولكنه لم يلبث في واحته هذه أو جنته إلا خمســة عشــر شــهراً ثم نكبته النكبة في زوجته فكأنما كان يكيد له الدهر حين أذاقه النعيم فما كان ذلك منه إلا ليعظم في نفســه الهول الجحيم وماتت الزوجة كســابقتها في ســرير الوضــع وتركت له كذلك أنثى، لم تعش بعد أمها إلا نحو شــهر؛ وفزع الشــاعر إلى قيثارته يخفف عن نفســه ما يعالج فيها من حزن، وكأنه من فرط ما في جوفه من حريق يحس كأن الجحيم نفســها تتنفس على كبده. قال الشــاعر المحزون: (رأيت فيما أرى النائم أن قديســتي التي تزوجت بها أخير قد أحضــرت إلى من القبر كما أحضــرت أليســتس التي أرجعها الابن الأكبر لجوف إلى زوجها الذي امتلأ فرحاً وقد نجاها ابن جوف من الموت بقوة ولو أنها ظلت شاحبة هزيلة، ولكن امرأتي جاءت كما لو أنها اغتسلت مما يتركه الوضع فتخلصت بذلك من التطهر وفق الوضع القديم؛ ونظرت فإذا بي كأني املأ منها عيني في الجنة بغير عائق ما، وقد خطرت في ثياب بيضـــاء نقية نقاء عقلها، ولكن وجهها كان مقنعا، بيد أني أبصـــرتها بعيني خيالي فإذا الحب والجمال وطيبة القلب تضــيء في هيكلها بصــورة لن يكون أحســن منها وأبهج في وجه من الوجوه... ولكنها يا ويلتا ما كادت تميل إلي لتعانقني حتى صحوت فلم أجدها ووجدت النهار يحيطني ثانية بليلي المظلم).

هذا هو الشـــاعر يصـــف في هذه المقطوعة الجميلة مبلغ حزنه ولكن به كبرياء أن يصــرعه الخطب؛ وإن صــدق إخلاصــه للشــعر واعتقاده أنه خلق لعظيمة فيه ليرتفع به عن الحزن؛ وكان يجد عزاءه فيما يقرأ له أصدقاؤه وفيما تنطوي عليه نفسه وتختزنه ذاكرته؛ وإنه في هذا ليتداوى بالتي كانت هي الداء، فهذه الكتب هي التي أفقدته ناظريه؛ على أنه اليوم يقرؤها بعيني غيره.

وكان يقول لمن حوله إن خياله يضــيء ويلمع في الظلمة أكثر مما يضــيء في النور، وأن النور لم يذهب عنه ولكنه تســرب إلى داخله ليرهف مخيلته

وعقله، وتلك تعلات كان لابد له منها لكي يقوى على ما كان يحيط به، وإنه لينهض على ما هو فيه لقصـيدة تضـعه في مسـتوى هوميروس ودانتي، وما نعرف شاعراً كانت حاله أكثر سوءاً من حال هذا الشاعر حين يضطلع بعبء كهذا العبء وفي هذا أبلغ شاهد على سمو روحه وقوة نفسه.

وكان ينتاب الشـــاعر الحزن على فقد بصـــره الحين بعد الحين وذلك كلما أحس الوحدة قاسية موحشة بعد فقد زوجته الثانية والظلمة محيطة به وبنياته لا يملكن لأبيهن ولا لأنفســـهن عونـاً ولا نفعـاً، ولقـد كـان يتمهن وهن زغـب الحواصـل وأبوهن ضـرير، لا يرى في وجوههن رضـاءهن إذا رضـين ولا ألمهن إذا ألمن، من أكبر بواعث حزنه وغمه..

ولكنه كان يعتصم بالحكمة أن يهن أو يتخاذل عزمه أو يتزايل وقاره، وكان يلوذ بالشـــعر فيجد فيه ما ينشـــد من عزاء لروحه، بل لقد كان والظلام والغم يعتورانه يجد فيه الأنس ما يكاد يحس معه مثلما يحس الناس في الحياة لنفوسهم من بهجة؛ وبحسـب المرء أن يذكر هذا، وأن يذكر كيف بلغ مع ذلك بقصـيدته الكبرى مبلغاً تتقطع دونه الآمال، وقد توالت عليه ألوان غير هذه من الشـدائد، ليرى مقدار أصـالته في الشـعر ومبلغ تعلقه بفنه ومدى إخلاصـه له؛ والحق أنه إن كان ثمة رجل له مما حاق به أكبر المعذرة عن القعود عما نهض له فلن يكون هذا الرجل إلا ملتن، ومن لقي من الحياة مثلما لقي؛ ولكنه لم يقعد بل لم تزده المحن إلا صـــبراً وإقداماً. فدل بذلك على أنه من الأفذاذ القلائل الذين تتضـــاءل الدنيا في نظرهم وتتحاقر تلقاء ما يســـعون إلى بلوغه من نبيل الغايات..

وضـايقه يومئذ من ابني أخته أن سـارا على نهج غير نهجه في الأدب والفن وسلكا سبيلاً غير سبيله، بل لقد كان ذلك يكربه أحياناً إذ يحس الفشل حتى في هذا، فلقد قام على تربيتهما بنفسه وتوجيههما الوجهة التي يريد، فلما كبرا كرها التزمت والمزيد من الجد والاحتشـام، وبرما بالبيوريتانية الجافة التي تبدو لهما كالشـجرة جردت من كل ثمرة وكل زينة وإن بقيت قوية الجذع والأغصـان فما ترى العين من معاني الشجرة فيها إلا القوة والصرامة

وأقبل الفتيان يسـتمتعان بالحياة كما يسـتمتع الفتية في المدينة وكان الناس قد ســـئموا البيوريتانية في نزعتها الاجتماعية وضـــاقوا بالحياة خالية من المرح

والزينة. فتهافت الشباب على الموسيقى والشعر، ورأت الحكومة ألا مناص من مماشـاة هذه النزعة مخافة أن يؤدي التشـدد في صـدها إلى ازدياد الدعوة إلى إعادة الملكية؛ فسـمحت بنشـر بعض الكتب الخفيفة التي تطلب للتسـلية واللهو أكثر مما تطلب للمنفعة؛ وكانت المسـارح جميعاً مغلقة تحول الشـرطة دون فتحها؛ ولكن واحداً استجد فسمحت الحكومة بأن يستمتع فيه الناس بالموسيقى، وبعض المسـرحيات من النوع الغنائي، وأحس أهل لندن بشـيء من المرح والأنس يدب في الحياة التي ألقت عليها قيود البيوريتانية كثيراً من الوحشـة والجهامة.

وتطرف الفتيان في مسايرة النزعة الجديدة، وعلى الأخص أصغرهما جون فيلبس فقام على نشـر كتاب احتوى على غير قليل من الاسـتهانة والمجون. ثم نشـر كتاباً آخر جعل عنوانه: (سـخرية من المنافقين) وهاجم فيه البيوريتانية هجوماً عنيفاً، وأما أكبر الأخوين فكان لا يزال يغلب عليه التحفظ والتحرج وإن شايع الاتجاه الجديد كما تجلى في كتابه: (أسرار الحب والفصاحة).

وفي أوائل شـهر سـبتمبر سـنة ١٦٥٨ قضـى كرمول نحبه، وذهب بذهابه الرجل الذي طالما عقد ملتن عليه الرجاء؛ وحزن الشاعر للنبأ العظيم وازدادت من المسـتقبل مخاوفه، وإن كانت حماسـته لكرمول قد مسـها الفتور قبل مماته بسبب سياسته الدينية

ولسـنا نعرف على وجه اليقين هل كانت ثمة صـلة شـخصـية بين الرجلين؟ ولقد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن مثل هذه الصلة كانت قائمة بينهما، ولكن لا يسوقون حادثة واحدة تؤيد زعمهم هذا وقصاراهم الاستنتاج والظن، فقد كان كرمول يحب النابهين ويحسـن جزاءهم ويقربهم إليه فما يفوته أن يصـطفي رجلاً مثل ملتن وضـعته الحكومة في مثل ذلك المنصـب الخطير، وما ينسـى له نضـاله عن الجمهورية وبلاءه في رد كيد الكائدين، ويحاول هؤلاء أن يجدوا في مقطوعته التي امتدح بها كرمول دليلاً على صلة شخصية بينهما..

ولكن فريقاً آخر من رجال الأدب ينكر هذه الصـــلة، ويقولون إن رضـــاء كرمول عن ملتن لا يستلزم أن تكون له به معرفة شخصية، وما دامت تعوزنا الحوادث المعينة التي تثبت ذلك فلا قيمة للظن والاســـتنتاج والاعتماد على قرائن واهية، فما كل من ينظم مقطوعة أو قصيدة لملك أو حاكم يكون ذا صلة بذلك الملك أو ذلك الحاكم، وأنا أميل إلى هذا الرأي وأزيد عليه أن ملتن رجل ذو كبرياء، وقد عرف عنه أنه كان قليل الصلة برجال الحكومة أنفة منه وتعففاً أن يقال به حاجة إلى أحد، كما أنه كان شـــديد الاعتداد بنفســـه والحرص على كرامته، فلم يك لذلك حديث مجالس ولا كان ممن يحســـنون فن التقرب والتودد الذي هو في حقيقة الأمر ضـــرب من الملق وإن تعارف أهله على تســـميته بالكياســـة أو اللباقة، ولذلك لم يتقرب ملتن ولم يتودد وأن كان في دفاعه عن الحكومة بكتبه شـديد التحمس فياض الثناء؛ ولم يك تحمســه وثناؤه إلا شـعوراً وطنياً من ناحية وأمراً يقتضـــيه الدفاع والمغالبة من ناحية أخرى. وكان ملتن شـاعراً ولم يك للشـعراء عند رجال الحكومة من البيورتانز ما ينبغي أن يكون لهم من رفيع المنزلة إن لم يضعهم الشعر في موضع الكراهية لهم والاستخفاف بأمرهم، هذا إلى أنه كانت للرجل آراء في الطلاق وفي الدين عده الناس فيها مسرفاً أو به جنُّة، وكان يحس ملتن كثيراً من الفتور والبرود عند من تضطره الظروف إلى لقائهم من كبار رجال الدولة، وهو رجل في أنفه ورم وفي نفســه أشـــد من الكبر على كل ذي كبر، ولذلك تجافى هؤلاء الكبراء، ومن كان هذا شـانه معهم كانوا خليقين أن يصـرفوا بحيلهم نظر كرمول عنه إن أتجه إليه أن لم يعملوا على الكيد له والوقيعة له، أما هو فلم يســـع من جانبه إلى التقرب أو تودد؛ قال ملتن يرد على رجل التمس وساطة في أمر (يؤسفني أنني غير قادر على أن أفعل ذلك، فإن معرفتي ضئيلة بأولئك الذين في أيديهم القوة تناسب في ضآلتها حرصي على أن ألزم بيتي في الأكثر، وأني لأوثر أن ألزمه).

وظل ملتن بعد موت كرمول في منصـــبه يعينه فيه مســـاعد، ولكنه كما قلنا كان فيما يشبه العزلة فقلما شغله من ناحية منصبه عمل وإنه ليطيب بذلك نفساً

لأنه يستطيع أن ينصرف اليوم إلى بغية شبابه ويعكف على تحقيق ذلك الحلم الذي أنشغل عنه دهراً طويلاً...

ومن عجيب أمره أن همه يومئذ لم يك منصرفاً إلى الشعر وحده على شدة ولوعه به وتحرقه إليه؛ بل لقد كتب باللاتينية رسالة طويلة في العقائد المسيحية ضمنها آراءه في الله وفي غرضه من خلق الناس وفي أصل الوجود وفي الحياة والموت وفي خطيئة آدم وخروجه من الجنة، وفي علاقة المرأة بالرجل ومنزلتها في المجتمع وفي السياسة والدولة والحرية. وفي مسائل القضاء والقدر وما يتصل بها..

ولكن كتابه هذا لم يعثر عليه إلا سنة ١٨٢٣ أي بعد قرابة قرن ونصف من وفاته، وقد عثر عليه مصادفة ضمن إضبارة من الورق كانت تحتوي كذلك على صور مراسلاته اللاتينية الرسمية التي كتبها وهو في منصبه؛ وليس يعرف على وجه اليقين متى بدأ كتابة هذه الرسالة، وأكبر ظن المؤرخين أنه كتبها ما بين سنتي ١٦٥٥ - ١٦٦٠، وكذلك لم يعرف غرضه من كتابتها؛ ويرى النقاد من تقسيمها وتبويبها أنه يقصد بها أن تكون رسالة يدرسها الناشئون. ويقرؤها غيرهم من المثقفين ويرى آخرون أنه ضمنها خلاصة فلسفته لتكون مرشداً وهادياً لمن يقرأ قصيدته الكبرى فأكثر آرائه في القصيدة يتمشى مع ما ذكر في رسالته اللاتينية، وكلا العملين الفني منهما وغير الفني يلقي من الضوء على الآخر وما يكشف عن دقائقه ويوضح كثيراً من أسراره، ولعل هذا هو غرضه الحقيقي من كتابة هذه الرسالة، ولذلك نميل إلى أن نرجئ الكلام عنها حتى يأتي ذلك عند دراسة فلسفته في قصيدته الكبرى، ونكتفي الآن بأن نذكر أن ملتن اعتمد على الكتاب المقدس فيما أورد من آراء كما ذكر ذلك، ولكنه لم يتقيد بأقوال المؤولين والمفسرين قبله، بل اعتمد على تأويله هو تفسيره. فأتى بكثير من الآراء التي لا يتفق معه أحد فيها؛ ويعنينا ذكر هذا لأنه يدل على ناحية من نواحي شخصيته وهي حرية فكره ورغبته في التخلص من

كل قيد، ولقد تجلت هذه النزعة فيه من قبل أيام كان يجادل القساوسة وأيام كان يدافع عن الطلاق..

وما كان يظن أحد ممن حوله أنه سوف ينصرف عما أقبل عليه من شعر ومن دراسة؛ ولكنه ما لبث أن أنصرف عنهما سنة ١٦٥٩ وعاد إلى كتيباته! ففي أوائل تلك السنة قدم للبرلمان رسالة عنوانها: (حول السلطة المدنية في الأمور الدينية لبيان أنه ليس من المشروع لأية قوة على الأرض أن تتبع الإكراه في مسائل الدين)؛ وأخذ يدافع عن الحرية الدينية ويعلن أشد سخطه على الاضطهاد الديني وإكراه الناس على غير ما يعتقدون، ولم يقتصر سخطه على غير البروتستنت، بل شمل البروتستنت كذلك، لأنه يمقت الاضطهاد والقهر أياً كان مصدره؛ ومعنى ذلك أنه يجب أن يقبل أن تتاح الحرية للكاثوليك، وإلا فكيف يحل لنفسه ما يحرم على غيره ويدعي مع ذلك أنه طالب حرية؟ ولكنه يناقض نفسه في هذا الأمر فيحاول أن يفلت من التناقض فيأتي برأي عجيب عن الكاثوليكية، فهي ليست ديناً، ولكنها بقية باقية من حكومة روما، وعلى ذلك فلا تسامح معها في انجلترة خوفاً على سلامة الدولة، فما يضطهد الكاثوليك لمذهبهم، وما عوقبوا من قبل لإلحاد أو زبغ ولكن لخيانة؛ ومهما يقل ملتن فلن يستطيع أن ينفي عن نفسه ما يكرهه من غيره من اضطهاد وإكراه؛ وألح ملتن في هذه الرسالة في مطالبة البرلمان بما طالب به كرمول من قبل، وهو ألا تكون هناك كنيسة للدولة.

ونشر في أغسطس من السنة نفسها كتيباً عنوانه (نظرات في أمثل الطرق لطرد المأجورين من الكنيسة). وعنده أن أمثل هذه الطرق أن تتخلص الدولة من هؤلاء القساوسة جملة؛ فإطعام هؤلاء يمكن أن يوكل إلى من يقومون على رعايتهم وهديهم؛ وفي استطاعة القساوسة أن يجدوا لأنفسهم عملاً آخر وذلك خير لهم؛ وفي رأيه أنه ليس ثمة ضرورة لهؤلاء القساوسة، وأن المال الذي يعطي للكنيسة يمكن إنفاقه في أوجه كثيرة هي خير مما ينفق فيه، كأن تبني

مدارس وتنشأ مكتبات تلحق بهاتيك المدارس، حيث يتعلم الناس اللغات والفنون بغير أجر تعليماً شـــعبياً لا يعوقهم عن مزاولة أي عمل يكســـبون منه أقواتهم فتستنير بصائرهم ويرتفع مستواهم الثقافي فتنتشر المدينة في أنحاء الدولة.

وينبغي ألا يذهب رجال الدين إلى الجامعات، فما يتركون فيها إلا أســـوأ الآثار، فهم كطلاب يكونون في الأكثر ضيقي الأفق أغبياء وليسوا أحسن حالاً وهم رجال، وخلاصـــة القول أنه يجب أن تتخلص المســـيحية من هؤلاء المأجورين لتتحقق لها السعادة، فإن إفساد الدين على يد السلطة الزمنية يكون بإحدى وسيلتين القوة أو المال، وإفساده بالمال أشد من إفساده بالقوة، لأن القوة ممثلة في الاضـــطهاد قد تؤدي إلى ازدياد الاســـتمســـاك بالدين، ومن ثم تمتد جذوره وتسمق فروعه؛ أما المال فبه تشتري الضمائر وبه تستأجر الضعاف والجهلاء من المرشـــدين والقائمين على أمر الدين، ومن هنا يكون التدهور والفساد الحق

ولم يعد ملتن بطائل من وراء هاتين الصيحتين، فقد كان البرلمان في شغل بما هو أخطر من المســـائل الدينية، فقد أخذت تصـــطرع الأهواء في عهد ريتشـــارد حامي الجمهورية الثاني، وتزايدت الدعوة إلى إعادة الملكية، وقل أنصـــار الجمهورية في البرلمان، وعاد إلى البرســـبتيرينز شـــيء من قوتهم فرغبوا في الثأر من المستقلين وتفرق الناس على هذه الصورة شيعاً وأحزاباً، فلا غلبة إلا لمن يثبت أنه أقوى جنداً أو أكثر نفراً وكان يدرك ملتن أنه كمن يصرخ في واد قفر من أهله فلا سميع ولا مجيب ولا صدى لصوته؛ ولكنه على الرغم من ذلك - كما يقول - مطمئن إلى أنه يفعل ما يجب عليه فعله وأن يفعله في وقته لا يبتغي إلا الخير لدينه ولوطنه

إن المرء ليمتلكه العجب من إصـــراره على هذا النحو ودأبه على محاربة رجال الدين، لا يدع فرصة ولا يدركه سأم؛ فها هو ذا يرسل عليهم سهامه في عهد ريتشارد مؤملاً أن يجد عنده من القبول ما لم يجده عند أبيه، ويميل بعض

من كتبوا حياة ملتن إلى رد هذه الصـــرامة إلى حنقه عليهم وعلى الأخص البرســـبتيرنز لما نال من أذى على أيديهم ولأنهم أعلنوا طرده من الكنيســـة، ويرى غير هؤلاء أن مرد قســـوته عليهم إلى عقيدة في نفســـه لا يتحول عنها وهي أن تسلط رجال الدين مهما يكن مذهبهم على شؤون الدولة هو سبب كل طغيان وكل خنق للحرية، ولما كان يكره الاســـتبداد من أعماق قلبه بقدر ما يحب الحرية فقد انصـــبت كراهيته على هؤلاء الذين يرى فيهم رمز العناد الغبي، والتسلط الأحمق، وزاده إيذاؤهم إياه يقيناً بأنهم أصل كل شر، وسبب كل رجعية لأنهم خاصـــموه من أجل مبادئه في الزواج والطلاق، وهو لم يرد بهذه المبادئ إلا الخير للإنسانية جميعاً، وما ساوره شك في أن ما دعا إليه إنما هو الحق.

أيقن ريتشارد ولم يكن له شيء مما كان لأبيه من قوة العزم وصدق العبقرية أن الجيش قد غلبه على امره، بعد أن اثر الانحياز إليه وطرد من اجل ذلك البرلمان الذي اجتمع في عهده لكثرة أنصار الملكية فيه، فلم يعد له وهو حامي الجمهورية بعد أبيه من السلطان شيء، ففضل أن يركن إلى الدعة وان يفلت من الحكم إذ لا طاقة له بالنضال والاقتتال في وقت اضطربت فيه شؤون الدولة وتصارعت أهواء الرجال، فترك (هويت هول) إلى داره قبل أن تكرهه الحوادث إكراهاً على ذلك...

وأصبح الحكم لرجال الجيش، وكان على رأسهم في إنجلترا لامبرت، ولكن لامبري فوجئ بهجوم منك قائد كرمول في اسكتلندة فنهض لملاقاته، وتهددت البلاد حرب جديدة، ولكن فيرفاكس ذلك الذي مجده ملتن بمقطوعة من مقطوعاته - كما رأينا - انذر لامبرت بأنه منضم إلى منك، فاستخذى لامبرت وتفرق أصحابه وتم الأمر لمنك، فدعا مؤتمراً لينظر ما إذ ينبغي فعله، فجاءت الكثرة فيه من الملكيين والبرسبتيرينز الذين أذعنوا على رغمهم سنين للجيش: واجتمعت كلمة المؤتمر على إعادة الملكية، وذلك في مايو سنة ١٦٦٠.

وكان ملتن في ذلك الجو المليء بالعواطف لا يزال يشغل نفسه بالدفاع عن الجمهورية، فنشر في مارس سنة ١٦٦٠ آخر كتيباته السياسية، وجعل له عنواناً طويلًا هو: (الطريقة العاجلة السهلة لإقامة جمهورية حرة وما يترتب على ذلك من حسنات إذا قورن بالأخطاء وعدم التلاؤم المترتبين على السماح بإعادة الملكية في هذه الأمة).

وحسب القارئ عنوان الكتاب وحده للدولة على مبلغ ملتن من الشجاعة؛ وليس مصدر شجاعته التهور ولا الجهل بما يحيط به كما قد يخيل إلى بعض حسدته وكارهيه، وإنما كان مثله مثل الجندي في مدينة محاصرة، إذ تأبى عليه نفسه إلا أن يطلق آخر ما في كنانته وان يبذل أقصى ما في طوقه أنفة منه وحفاظاً وان علم انه هالك لا محالة!

ولم يقف ملتن وحدة للدفاع عن الجمهورية الذاهبة وتخويف الناس وتحذيرهم من الملكية العائدة، وإنما حذا حذوه طائفة من أنصار الحكم الجمهوري، فكان هو بكتيبة هذا ترجمانهم القوي الأمين، ولكن هؤلاء الجمهوريين كانوا في الحق أشبه بعلماء بيزانطة الذين اشتد بينهم وبين خصومهم الجدل، بينما كان محمد الفاتح يقرع عليهم أبواب مدينتهم، وقد سوى جنده واعد للأمر عدته!

وان المرء ليتملكه العجب حقاً إذا قرأ ما جاء في كتيب ملتن، وقد نشر قبل مجيء شارل الثاني بنحو شهرين. أقرا مثل عبارته هذه وانظر أي مبلغ بلغت شجاعته. قال: (حقا أن الناس قد أصابهم الجنون، أو أطبقت عليهم الغفلة، فهم يعلقون أكبر آمالهم في الطما نينة أو الأمن على رجل واحد، لا يصنع أكثر مما يصنعه أي رجل غيره إن جاءت به المصادفة طيباً، ولكن له القوة ما يصنع به من الشر أكثر مما يصنع ملايين الناس إن كان خبيثاً، وليس يصده عن وجهه أحد؛ إن سعادة الناس لا تتحقق إلا في مجلس حر يختارونه كله بأنفسهم حيث لا يتحكم فرد واحد ولكن يسود العقل وحده؛ وأي جنون هذا الذي يبلغ بقوم يقدرون على أن يديروا شؤونهم في نبل حتى يلقوا تدبير هذه الشؤون على كاهل رجل واحد، ويفعلون ذلك في ضعف واستخذاء، فيكونون أشبه بصبية لم يبلغوا سن الرشد إذ يتركون كل شيء لرعايته ومطلق تصرفه في حين انه لا يستطيع أن ينهض بما تعهد به، وهو في الوقت نفسه إذ يؤجر على تعهده لا ينظر إلى نفس نظرة خادمهم، بل يعد نفسه سيدهم المطاع!)

ويقترح ملتن أن يكون للمجلس الذي يشير إليه حق الاجتماع مدى الحياة، فلا يتغير رجاله كل مدة معينة إلا من مات أو تركه لأمر ما؛ ويقول ملتن أن هذا المقترح يبدو عجيباً لأول وهلة عند قوم ألفوا البرلمانات، ولكنة ضائق بهذه البرلمان المتغيرة، وعنده أن مثل هذا المجلس الدائم يكون أجدى على الدولة، لأنه يكتسب الخبرة بطول الامد، ويقف على حقيقة ميول الناس، وما

يتطلبه إصـــلاح أمورهم وتتوثق صـــلاته بهم، كما تعظم خبرته بالأمور الخارجية، ولكي تضمن الدولة صلاحية من يختارون وصلاحية من اختيروا، ينبغي أن تصـلح نظام التعليم وتغرس في نفوس الناس حب الفضـيلة والإيثار والتواضـــع والاعتدال، فلا يغترون بالمظاهر، ولا يخضـــعون لذوي المال والجاه، ويجب أن يعلموا مبادئ الحرية، ويعلموا كيف يســـمون بأرواحهم وعقولهم ولن يحقق هذا للناس إلا جمهورية رائدها الخير للجميع.

ولكن ملتن يائس من بني قومه، انهم لن يستمعوا له فيقول: (أني على يقين انه كان على أن أتحدث إلى الشجر والحجارة فحسب، فليس ثمة من اصبح به، ولكني اهتف مع النبي: أيتها الأرض... أيتها الأرض... أيتها الأرض... لأني التربة نفسها ما يصم أبناؤها المخالفين آذانهم عنه)!

ويتحسـر ملتن على الأمل الضـائع فيقول (أين ذلك البرج الشـاهق الطيب؟ أين الجمهورية التي افتخر الإنجليز بأنهم يقيمونها لتغشـــي الملوك بالظلمة وتكون روما أخرى في الغرب؟ إذا عدنا إلى الملكية ووجدنا المســـاوئ القديمة تعود شـــيئا فشـــيئا.. تلك المســـاوئ التي لا بد أن تنجم عن الملك والقســـيس مجتمعين، فربما اضـــطررنا إلى أن نحارب مرة ثانية كل ما حاربناه من قبل، وكلما اعتبرت في هذه الأشياء الواضحة السهلة المعقولة!)

ولكن هذه الصيحة على قوتها وبلاغتها وما تنطوي عليه من حرارة الأيمان وجراءة القلب، ما لبثت أن ضـاعت في ضـجيج الناس وأفراحهم بالملك العائد وذهبت في المواكب الهاتفة وفي رعود المدافع القاصـــفة، كما تذهب حفنة من الماء يلقى بها في عباب دافق، فها هو شـــارل الثاني يهبط إنجلترا في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٦٦٠، وهو يوم عيد ميلاده، فاصبح كذلك عيد عودته، وكان له من العمر يومئذ ثلاثون عاماً.

وكانت عودة الملكية وبالا على ملتن والجمهوريين جميعاً؛ فقد فَقد منصـــبه بالضـــرورة، ولكن فَقد المنصـــب خطب هين إذا قيس إلى ما بات يتهدده

وأصـــحابه، ولم يك ملتن يتوقع اقل من الشـــنق نكالا به وبمن ذهب مذهبة من الجمهوريين، وكان اسمه ابغض الأسماء إلى الملكيين بعد اسم كرمول وحده، ولم يعف كرمول الموت من التنكيل برفاقه. فقد بلغ الحنق بالعائدين أن نســـوا إنسـانيتهم فاخرجوا رفاته من القبر وشـنقوا ما تركه البلى من عظام كما يشـنق الأحياء في حفل شـهده الناس؛ ولن يصـل الحقد والحنق فيما نرى إلى ابعد من هذا، ولن يكون في السخف ما هو اسخف من هذه الفعلة التي نحار كيف نصف شـــناعتها، وأي نعت ننعتها به، وإذا كان هذا موقف الحانقين من الموتى فكيف بموقفهم من الأحياء ومن ملتن على الأخص ذلك الذي دافع عن إعدام شـــارل والذي ناصر حكومة كرمول بكل ما في طاقته من جهد، والذي لم يأل جهداً في السـخرية من أسـرة سـتيوارت وأطلاق قلمه فيهم بكل عيب، والذي ظل عدواً للملكية يرى فيها شـراً محققاً ويدعو الناس إلى كراهيتها بكل ما في وسـعه من أوجه القول ووسائل الإقناع إلى ما قبل عودتها بنحو شهرين...

ولم يك يشـك أحد من أعدائه انه يتحدى الموت، وإلا فما باله يريد أن يسـمع الشـــجر والحجارة ما لا يريد الناس أن يســـمعوا، وما باله يظل على عناده لا يتزلزل ولا يتحول، وأيقن أصـــدقاؤه أن الموت لا محالة جزاؤه، فحملوه إلى سمنفيلد حيث أخفوه أربعة اشهر من مايو إلى أغسطس ١٦٦٠.

وفي أواخر أغسطس اصدر الملك عفواً عاماً عن أعدائه السياسيين إلا من جاءت أســـماؤهم في قرار العفو، فهؤلاء حق عليهم العقاب، وهم الذين كانت لهم صـــلة وثيقة بمحاكمة شـــارل الأول وإعدامه، وقد اعدم من هؤلاء عشـــرة وألقى في الســـجن عدد غيرهم، ولم يك ملتن من هؤلاء ولا من هؤلاء، إذ لم يدرج اسمه فيمن استثني من العفو...

وكيف تأتي ذلك؟ كيف نجا ملتن من حبل المشـــنقة وهو الذي برر إعدام شارل في كتاب أذاعه في أوربا لا في إنجلترا وحدها؟ هل أنجاه الاختفاء؟ كلا؛ فلم يك يمنع اختفاؤه أن يجئ اسمه فيمن يقتلون أو يسجنون حتى يعثر عليه.

لقد ذكرت آراء حول نجاته، ولكن مردها جميعاً إلى الظن، إذ لم يقف المؤرخون على حقيقة مقررة في هذا الأمر؛ فمن قائل أن أصدقاءه في البرلمان الجديد بذلوا قصارى جهدهم لينجوه، كان له في البرلمان بضعة نفر من المعجبين به منهم صديقه الحميم مارفل؛ وثمة رواية رواها ريتشارد سون في مذكراته وهو أحد من كتبوا عن ملتن في أوائل القرن الثامن عشر، وقد استمد من الشاعر بوب الذي يعزوها إلى بترتون أحد مشاهير الممثلين في الفترة التي أعقبت عودة الملكية، والذي يرجح انه أخذها بدوره من الشاعر الملكي دفنانت، ومؤداها أن دفنانت هذا قد ألقي به في السجن أثناء النزاع بين شارل الأول والبرلمان، ولكن ملتن عمل على نجاته وما زال يسعى حتى أطلق سراحه، فلما دارت الأيام دورتها ووقع ملتن في مثل ما كان فيه دفنانت، رد هذا الشاعر له الجميل فعمل على خلاصه؛ وهناك رأى غير هذين يميل إليه كثرة النقاد ومنهم دكتور جونسون وخلاصته أن مرد نجاته إلى شيء من القدر وشيء من العطف، فإن رجلا مثل ملتن كان خليقاً أن يحمل بعقوبته كثيراً من أولى الرأي والبصيرة على أن يقدروه حق قدره فيطلقوه لما هو عسى أن يأتي به في الشعر والفن مما يكون من مفاخر بلاده؛ كذلك كان ملتن خليقاً أن يحمل الظافرين على الرحمة به لما أصابه، فهو اليوم ضرير فقير وحسبه ما أنزله به الدهر من حزن وما ناله به مكن عقوبة؛ ولقد كانت كلمة واحدة من شارل كفيلة أن تفقده حياته، ولكنها كانت تفقد أدب إنجلترا وأدب الدنيا كلها (الفردوس المفقود) و(الفردوس المستعار) و(سمسن اجنستس)، تلك الآثار الخوالد التي ما كانت تجود بمثلها أو بما يقرب منها عبقرية غير عبقرية ملتن.

وشمل العفو ملتن، لكن كان الناس عجباً بعد ذلك أن يأمر البرلمان به فيلقى في السجن، حيث أحرقت كتبه أمامه، وان لم يرى شيئاً حوله، فإن ما يحيط به من ظلمة لن يمحوها ألف نار كالنار التي أوقدتها كتبه؛ ولا يزال أمر حبسه على هذه الصورة غامضاً، ولكن (ماش)، وهو من اشهر من كتبوا عنه يفسر ذلك بأن البرلمان كان قد اصدر هذا الأمر بمسعى أصحابه ليجنبوه الكارثة

الصحيحة، وهي إدراج اسمه في المستثنين من العفو! ومهما يكن من الأمر، فانه لم يلبث إلا قليلا حتى أمر بإطلاقه، ولإطلاقه قصة نوردها كشاهد جديد على عناده واستكباره، حتى في مثل هذا الظرف، فقد طلب إليه القائم على أمر السجن أن يدفع أجرة أقامته حسب المتبع، ولكن ملتن رأى أنه غالى فيما طلب، وأحس في ذلك جوراً ظن انه مقصود به فرفض أن يدفع - وفي يده المال المطلوب - فما يطيق أن يتحكم فيه رجل مهما لقي من عنت الأيام، وتقدم أصحابه فأدوا عنه المال المطلوب على غير علمه، وجاء بعضهم فأخرجه من السجن، وكان ذلك في نهاية سنة ١٦٦٠، وله من العمر اثنتان وخمسون سنة.

ولولا ما كان يحيط بالشاعر العظيم من أسباب الشقاء والأسى لجاز أن يتطرق شيء من الفرح إلى فؤاده، وقد نجا من الموت واسترد حريته، ولكن أين هو من الفرح، وإنه ليذوق مرارة الفشل ويجرر أذيال الخيبة؛ ففي اشهر ذهبت جهوده التي بذلها في عشرين سنة من عمره هباء، وخر صرح آماله من قواعده ورأى أصحابه يساقون إلى الموت، كما سمع بالقبور تفتح فيحمل إلى المشنقة من طوتهم يد المنون! وبلغ من نفسه كل مبلغ أن يجد الكنيسة وقد عادلها سلطانهم في ظل الدولة، وان البرلمان يقيد حرية النشر بقيود غليظة، وان الحياة يشيع فيها الفجور والفسوق، ويتسلط على سياسة الدولة النساء والمتعصبون والأذلاء من المتملقين والماجنين.

وترك ملتن الحي القريب من هويت هول، واتخذ له مسكناً بعيداً في المدينة أو فيما جاورها. ويقول ريتشارد سون إنه لبث أياماً ينتابه الرعب أن يؤخذ غيلة بيد متعصب من أنصار الملكية، وذلك كان قليلا من الليل ما يهجع، وكان خوفه على بناته اشد من خوفه غلى نفسه!

وقل حظه من الثراء قلة كبيرة، فقد فقدَ مرتبه كما فقدَ ألفين من الجنيهات تعادل سبعة آلاف من جنيهاتنا اليوم كان قد أودعها في مأمن حكومي أثناء

الجمهورية، فصودرت كما صودر بعض ما اشتراه من أملاك؛ على انه على الرغم من ذلك ظل يعيش عيشة مرضية لا هي إلى الرغد ولا هي إلى العوز.

وأصابه النقرس، فكان يلقى من الآمة ما يتضاءل عنده ما يعاني من عمى، وظل هذا المرض ينتابه من حين إلى حين، فيضيف آلامه إلى ما ترشقه به الأيام من سهام!

وكان اوجع هاتيك السهام ما كان يلقاه على أيدي بناته، وكانت كبراهن سنة ١٦٦١ في الخامسة عشرة من عمرها، ووسطاهن في الثالثة عشرة، وصغراهن في الثامنة؛ وهن بناته من زوجته الأولى التي ماتت سنة ١٦٥٢؛ وكان يتمل أبوهن أن يكن انسه وسلوت نفسه في وحدته وشقائه، ويكن له عوناً على الأيام، وهو الضرير الذي زال عنه جاهه وألح المرض على بدنه، وهجره إلا قليلا ابنا أخته، إما انشغالا بما ملأ قلبيهما من لهو أو تهرباً مما يكلفهما به من قراءة ومراجعة، ولم يذكرا يده عليهما وقد رباهما في بيته صغيرين ولبثا في رعايته من عمريهما سنين.

ولكن عقوقهما لم يك شيئاً مذكوراً تلقاء عقوق بناته، فقد كان أسوا ما لقي من دهره هذا العقوق الذي ذاق معه اعمق الحزن، وهو الشاعر الذي تتأثر نفسه بالمعاني أضعاف ما يتأثر بها غيره من الناس، ولعقوق بناته إياه قصة يحسن أن نأتي بها على سردها....

أدت نظرة ملتن إلى المرأة أنها دون الرجل منزلة وعقلا إلى إهمال منه معيب في تعليم بناته فكبرن وحظهن من الثقافة قليل، وكن لا يعرفن إلا لغتهن إذ رفض أبوهن أن يعلمهن لغة غيرها. وكان يقول في ذلك ساخراً (حسب المرأة لسان واحد)؛ وكان أبوهن في شغل عنهن أكثر الأوقات بكتيباته وخصوماته وأعباء منصبه فكان يترك أمورهن للخدم. والحق أن ملتن كان متخلفاً عن عصره في النظر إلى تعليم البنت ولذلك لم يشايع كومنس حين كتب هو عن التعليم رسالته التي سلفت الإشارة إليها إذ كان كومنس يذهب مذهب أفلاطون في المساواة بين البنين والبنات، وكان لا يعني ملتن إلا بالبنين، وعنده أن من العبث تعليم البنت كما تعليم الكائنات العاقلة على حد تعبيره.

وأملت عليه بيوريتانيته أن يحيط بناته بشيء من الخشونة فلم يمتعهن كما تتمتع البنات إلا قليلاً، فأحسن استبداده بهن وأن لم يشعرن منه بغليظ أو فظاظة، وزاد إحساسهن شدة حرمانهن من أمهن، فقرر في نفوسهن شيء يشبه أن يكون جفاء منهن لأبيهن.

ولما عاد ملتن إلى الشعر وأراد أن يرجع إلى الكتب التي تتصل بموضوعه، كان يقرأ له ويكتب رجل أستأجره لذلك، ولكنه كان لا يعرف غير الإنجليزية حتى لقد شكا ملتن في كتاب إلى صديقه أنه كثيراً ما يتضجر ويضيق بهذا الكاتب الذي يضطر إلى أن يذكر له هجاء كل عبارة لاتينية يمليها عليه كلمة، وكان يقرأ له أحيانا بعض الشباب ممن تنافسوا في الخطوة بهذا الشرف وممن طلبوا الفائدة من القراءة له، كما كان يرسل بعض أصدقائه أبنائهم ليحظوا عنده بالقراءة أو الكتابة له وليقوموا بذلك ألسنتهم وليفيدوا عرفانا وبيانا.

ولكنه كان لا يضمن مجيء هؤلاء إليه كل حين، وعلى ذلك فقد عول على تعليم بناته النطق باللغات المختلفة وهن لا يفهمن شيئاً مما تتحرك به ألسنتهن وبذل في ذلك جهداً كبيراً وهو على حاله من المرض والعمى؛ وأنه لعجب أن يحرص هذا الحرص كله على المعرفة فلا يقعد عن وسيلة مهما بلغ من

عسرها وأنها لحالة تملأ النفس أسى على ما مسه من ضر بقد ما تملؤها إعجاباً بعزيمته التي لا تعرف كلالا ولا سأماً. ولا ريب أنه كان يستشعر كثيراً من المرارة والحزن في تلك اللحظات التي لا يجد فيها من يقرأ له أو يكتب ما نظم من الشعر، ولم يك له عزاء في هذا البلاء إلا استغراقه في قصيدته الكبرى وإقباله عليها بكل جوارحه وارتياح نفسه إلى أن يحقق أملا طالما طاف بخيالة وأثلج فؤاده وأبهج نفسه.

وكان يدعو بناته ليقرأن له ما يطلب من الكتب اللاتينية والعبرية والإغريقية والفرنسية والطليانية والأسبانية، فينطقن نطقاً آلياً بعبارات لا يفهمن منها بالضرورة شيئاً؛ وكنت يضقن بهذا ويتبرمن به ويتضجرن منه، وحق لهن أن يكرهن هذا العمل كرهاً شديداً، فإذا دعاهن أبوهن إليه اقبلن متثاقلات متكرهات، ثم اعتذرت كبراهن بما في لسانها من حصر لا تحسن معه النطق فأعفاها أبوها من القراءة وجعلها للكتابة فوقع عبئ القراءة على الوسطى فازدادت بذلك ضيقاً وضجراً.

وما زال يشيد ضجر ماري وهي الوسطى حتى أصبح تمرداً وعصيانا فصارت تهمل ما يطلب إليها أبوها متغافلة أو متناسية. وكانت تعرض عنه أحيانا ساخطة ناقمة؛ وصبرت دبرا وهي الصغرى بعض الصبر، ولكنها ما لبثت أن تكرهت لأبيها وخشنت عليه وما برحت تشكو لأختيها أنه يدعوها في أي ساعة من ساعات الليل فيوقظها وهي مستغرقة في نومها لتكتب بضعة أسطر نظمها.

وتفاقم الأمر فكره البنات أباهن حتى ما يطقنه؛ قالت الوسطى مرة وقد سمعت أنه يزمع أن يتزوج (ليس في الحديث عن زواجه ما يعد جديداً من الأنباء أما أن أسمع بموته ففي ذلك ما يؤبه له).

وتآمر البنات مع إحدى الخدم على غشه فيما يشتري ويبيع مما يحتاج المنزل إليه، وفعلن أقبح من ذلك فأعن الخدم على بيع كتبه بغير علمه فإذا علم

بشـيء من هذا مس الحزن قلبه مسـاً شـديداً ولكنه يكظم غيظه ويكتم أمره عن الصـــحب والجيرة مخافة العار، وكم كان وقع ذلك أليماً على نفس كبيرة مثل نفسه، وكم كان يشعره ذلك بما آل إليه حاله من استكانة بعد عزة، ويذكره بهذا الضر الذي أحاطه بالظلمة فجعل من بناته عدوات له.

ولكن روحه قوية على الرغم من هذا كله، وإقباله على قصيدته واستشرافه لآفاقها الفســيحة العليا يدفع عن نفســه القنوط إذ يرفعها من عالم حقير إلى ملكوت لا يدرك جلاله وعظمته إلا عقل مثل عقله وروح مثل روحه. ولقد كان له في الشـــعر أعظم العزاء وأطيبه وأن كان يعمد أحيانا إلى قيثارته فتختلج أوتارها بين يديه بلحن يسرى به عن نفسه أو يهيئ به جواً ملائماً لما تجيش به نفسه من شعر.

عود إلى الشعر:

انقطع ملتن عن الشعر منذ سنة ١٦٤١ كما سلف القول، ولم يكد يعود إليه سنة ١٦٥٨ حتى أنشغل عنه بما كتب في عهد ريتشارد وقبيل عودة الملكية. ثم أقبل عليه إقبالاً غير منقطع منذ أن نجا في أواخرســنة ١٦٦٠؛ ومن ذلك نرى أنه أنصرف عن الشعر قرابة عشرين سنة وهي مدة طويلة لم يقضها في تأمل وهدوء وتهيؤ على نحو ما كان يفعل في هورتون، وأنما كانت حياته فيها كما رأينا مليئة بالأحداث حافلة بالخصـومات، ولكنه أفاد خبرة عظيمة وتم نضـجه فأصبح كالشجرة المحملة بالثمرات تجود بأطيبها لأقل هزة...

ولم تخل هذه السنوات العشرين من الشعر خلواً تاماً فقد نظم الشاعر أثناءها بعض المقطوعات في مناســبات مختلفة، وليســت هذه المقطوعات من نفاية الشـعر كما قد يخيل إلى المرء فأن لها لشـأناً جليلا في ذاتها ومنزلة سـامية في تاريخ هذا النوع الذي نســميه المقطوعات، ولذلك نرى أنه يجدر بنا أن نتكلم

عنها ونبين مبلغ ما لها من خطر في الشـــعر الإنجليزي قبل أن نتكلم عن الفردوس المفقود وما جاء بعدها.

جاء ملتن من هذه المقطوعات بما لم ينته فيه كثير من أفذاذ هذا الضـــرب من النظم منهاه، ولقد قل فيه أكفاؤه وذهب له صيت منه بالقياس إلى شكسبير أن لم يك يبرعة في أكثر من ناحية من نواحيه. ولقد اصـــبح فيه مثالا لمن جاء بعده فاحتذى حذوه واعجب به ورد ثورث وكيتس وغيرهما من شـعراء القرن التاسع عشر.

ولا بد لنا من كلمة في أصـــل هذه المقطوعات ونشـــأتها لا في شـــعر ملتن وحده ولا في الشـــعر الإنكليزي وحده ولكن في الشـــعر الأوربي بوجه عام ثم نعطف الكلام بعد على مبلغ ما توافى لملتن فيها من براعة وتبريز.

لم يقطع نقدة الأدب الأوربي برأي في نشـــأت المقطوعات وتســـميتها بهذا الاسم الذي سموها به، ويرى بعضهم أن الإيطاليين هم مبتدعوها، وأن اسمها يرجع إلى لفظ إيطالي معناه اللحن الصغير أو الصوت الصغير وهو لحن كان يغني على عود أو قيثارة. ويرى فريق آخر أن منبتها كان في فرنســـا في مقاطعة بروفانس وأن اســـمها نجم من تلك الكلمة الفرنســـية التي تطلق على الجرس الصغير أو جرس الغنمات. ويذهب البعض إلى أن اصلها إغريقي وأن الإغريق اختاروا لها لحنها ووضـــعها الفني بعد أن مرت على عدة أطوار من الخلق والابتكار. ولأحد النقدة وهو وليم شارب رأى غير هذه جميعاً فهو يردها إلى أغاني الرعاة في صـــقلية وجنوبي إيطاليا ويرى أنها انتهت إلى وضـــعها المعروف بعد أطوار مختلفة، ويرد اســـمها إلى الاســـم الذي يطلق في هاتيك الجهات على أغنيات الفلاحين والرعاة على وجه العموم.

وكان أول ما ظهرت تلك المقطوعات في صورتها ولحنها الخاصين بها في الأدب الإيطالي في القرن الثالث عشـــر في شـــعر شـــاعرين هما: بييردل فني وجيو تودارزو؛ وكذلك كان أول من طرق هذا الضـــرب من النظم من كبار

الشـــعراء من الإيطاليين فقد تغنى دانتي في أواخر القرن الثالث عشـــر بحبيبة قلبه بياتريس فاتخذ لغنائه عدداً من هاتيك الألحان، وكذلك أفصـــح بترارك في أوائل القرن الرابع عشـر عما ينبض به قلبه من حب لمعشـوقته لورا بعدد من تلك الأصوات الصغيرة التي سميناها المقطوعات.

أما عن الصـــورة والوضـــع الذي انتهت إليه المقطوعة في الأدب الإيطالي فأنها لم تك تزيد على أربعة عشـــر ســـطراً. ثمانية منها تكون من حيث النغم والموضـــوع فاتحة المقطوعة أو صـــدرها، وتكون الســـتة الباقية خاتمتها أو (قفلتها). ولا بد من الفاتحة أن تجري قوافيها على وضـــع معين، فالقافية في الســـطر الأول مشـــاكله لها في الرابع وبينهما الثاني والثالث متحدة قافيتهما ولكنها مغايرة لما بدأت به المقطوعة، ثم يكرر هذا الوضـــع حتى تتم الأســـطر الثمانية بعد ذلك وتغير القافية في الأسطر الستة التي تكون الخاتمة على أساس أن تكون ثلاثتها الأولى مشاكله لثلاثتها الثانية.

وأما عن موضـــوع المقطوعة فهي كما يفهم من حجمها يقصـــد بها التعبير عن معنى من المعاني تجيش به النفس في مناســـبة من المناســـبات، أو هي تســجيل لخاطر يخطر للقلب في غير اســتطراد يخرج به عن أن يكون خاطراً هو ابن لحظته أو ابن مناسبته؛ ويقول في ذلك وليم شـارب إن المقطوعة (هي خير وســـيلـة للتعبير عن خـاطر شـــعري منعزل عن غيره تعبيراً موجزاً محدوداً)؛ وتقتضـي طبيعتها أو يقتضـي النجاح فيها أن يكون التعبير قوياً رائعاً يجمع إلى عمق الفكرة وجمالها بلاغة اللفظ وإشـــراقه، كل أولئك في أيجاز لا يخل بـالمعنى المراد. ومـا اجمل مـا وصـــف بـه روزتي المقطوعـة وهو من الشعراء الذين أحبوها وبرعوا فيها في القرن التاسع عشر، قال (إن المقطوعة هي تمثال لحظة) وهذا التعبير القوى الجميل هو من قبيل ما يجب أن تبنى منه المقطوعات القوية أو التي تتسم بالنجاح؛ ومن هذا ندرك أنها عمل فني يتطلب قدراً كبيراً من البراعة الفنية والطاقة الشعرية، وحسب الشـاعر أنه يقيم تمثالاً

في لحظة ولن يكون التمثال جديراً باســـمه وبالغرض منه إلا إذا حملك على الإعجاب به والشـــعور تلقاءه بما تشـــعر به تلقاه كل عمل فني من روعة الفن وجلاله.

والمقطوعة ضـرب من الشـعر الغنائي، ولكنها تختلف عن القصـيدة الغنائية الصـغيرة بما ينبغي أن يلقيه الشـاعر على غنائه من الوقار والاحتشـام فلا يتبذل ولا يسف ولا يتلاعب بالألفاظ والأسجاع وألوان التورية وأشباهها مما يستساغ في القصـــيدة العادية ولا يجوز هنا، حيث ينبغي التأمل والتســـامي كي يأتي التمثـال معبراً عمـا يراد بـه التعبير عنـه، ومـا تقـام التمـاثيـل إلا للجليـل من الأشخاص والأفكار.

وقد شـبه أحد النقدة لحن المقطوعة بالموجة إذ يتدفق ويتجمع ماؤها فتعج به وترتفع ثم تهبط فتنسـاح ويرتد الماء ليعود ثانية إلى البحر، والمقصـود من هذا التشـــبيه أن المقطوعة وحدة غنائية ملتزمة الصـــورة واللحن فلا حرية فيها للشـاعر أن يجري ألحانه كيفما يشـاء وأن يتظرف ويتخلع وينطلق حسبما يتجه خياله ومزاجه وهواه.

وظهرت المقطوعة أول ما ظهرت في الإنجليزية في ثنايا كتاب نشـره أحد رجـال الأدب واســـمـه تُتِل ســـنـة ١٥٥٧ تحت عنوان (خليط من الأغـاني والمقطوعات) ولما كانت مقطوعات كثيرة منها غفلا من أسماء أصحابها فليس يدري من الرائد في هذا الضـرب من النظم في الإنجليزية، على أن الإنجليز لم يتبعوا ما وضـعه الإيطاليون، فقد تصـرفوا فيه وأتوا بصـورة جديدة للمقطوعة وأن بقي عدد أســـطرها كما هو في المقطوعة الإيطالية وجاءت الصـــورة الإنجليزية ايســـر بناء من الصـــورة الإيطالية كما تبين من طريقة التقفية فيها، وليس يشـترط فيها أن يكون هناك تغير بين صـدرها وخاتمتها وأن كان الغالب أن يحدث هذا التغير كما هو واضـــح من المثال الذي أثبتناه في ذيل الصـــفحة؛ وكانت تنتهي في سطرين في قافية واحدة يكونان نغمتها الأخيرة.

وذاع هذا الوضـــع الجديد، وســـميت مقطوعاته المقطوعات الإنجليزية أو المقطوعات الشكسبيرية، فقد نسبت إلى شكسبير ولو لم يك مبتكرها لأنه خير من أجاد في بناء هذه المقطوعات ولأنه من أكثر الشـعراء إنتاجاً فيه؛ ولقد كثر نظم المقطوعات كثرة ملحوظة في العصـر الاليزابيثي وبرع فيه غير سـبنسـر وشكسبير نحو أثني عشر شاعراً، هذا فضلا عن عدد كبير لم يكن لهم مثل ما لهؤلاء من الإجادة وحسن السبك.

وانطوى ربيع الأليزابيثين فكان في ألحانه التي احتبست بانطوائه تلك المقطوعات، وظل الحال كذلك حتى جاء ملتن في صيف البيوريتانز، فغنى في طلائع ذلك الصيف الحان الربيع الراحل؛ وجدد الطائر المختلف لحن هاتيك المقطوعات. وكان ملتن يحب إيطاليا فازداد حبا لتلك المقطوعات في أول عهده بالشعر وهو جنة الشباب وريعانه؛ وكيف لا يتغنى شاعر مثل ملتن بهذا الضرب من الأغاني وفي فسه من الخواطر وفي خصائص شعره من الموسيقى وسحر اللفظ ما يجعه كأنما خلق لهذا الغناء وحده. على أنه كان مقلا فله تبعث على كثير من الأسف، وذلك لانشغاله بأمور الدين والسياسة وان كانت أكثر مقطوعاته وليدة هذا الانشغال

ولكنه على إقلاله قد أضاف إلى تاريخ تلك المقطوعات فصلا ممتعا رائعا في أدب قومه. ولقد كانت مقطوعاته من بعده كالوحي لشعراء القرن التاسع عشرة من قادة المذهب الابتداعي وفي مقدمتهم وردثوث الذي اعجب إعجابا شديدا بمقطوعات ملتن ودأب على محاكاته، ويتضح هذا الإعجاب في مقطوعته التي بدأها بقوله:

(أي ملتن، إنه لينبغي أن تكون موجودا في هذه الساعة، فإن انجلترة في حاجة إليك)؛ والتي وصفه فيها بان نفسه كالكوكب في سموه ومنعزله، وان له صوتا ينبعث كما ينبعث صوت البحر، طاهرا كالسماوات الصافية العارية عليه سماء الجلالة والحرية، وإنه خالد ينتقل مسافرا في طريق الأبدية. وقد تبع وردثورث في إعجابه بملتن بيرون وكيتس وبروننج وأرنولد وروزتي وتينسون، ولهذا الأخير مقطوعة رائعة تغنى فيها بمجد ملتن بدأها بقوله: (يا ذا المقول القدير، يا مبدع النغمات والألحان، إيه يا من وهب المهارة ليغني للزمن أو الخلود، يا من هو لإنجلترا صوت أرغنها جاءها هبة من الله... ملتن هذا الاسم الذي سوف يرن في مسامع الأجيال)

وليس بين ما تغنى به مللتن من مقطوعات وبين ما أوحت به مقطوعاته إلى هؤلاء الأفذاذ الذين افتتنوا به شيء يذكر من هذا الضرب من الغناء، وهذه هي القيمة التاريخية لمقطوعاته وخطرها في أدب قومه

لم يترك ملتن إلا أربعا وعشرين مقطوعة، منها خمس من نظمها بالإيطالية، ويرجح نقده الأدب إنه نظم هذه الخمس أثناء مقامه بإيطاليا، وهي من أغاني الحب، وجهها الشاعر الشاب إلى غادة إيطالية من بولونا سحرته بسمرة محياها وبمقلتيها الدعجاوين اللتين افتتن بهما لأنه كان بهذا الدعج مولع كما قال، وبصوتها الحلو وغنائها المطرب الذي هو كفيل أن يسحر القمر السابح؛ وقد تغنى الشاعر بجمال فاتنته وشكا من قسوة قلبها عليه كما يشكو الشباب في أول عهدهم بالحب!

أما عن الطريقة التي حري عليها في نظم هذه المقطوعات الخمس، فإن اثنتين منها جاءتا وفي الطريقة الإيطالية، وجاءت الثلاثة الباقية مزيجا من الإيطالية والإنجليزية على صورة اتبعها ملتن ذلك الذي كان كثيرا ما يحب أن يتخلص من الأوضاع المتعبة والقيود

والذي يعنينا في الواقع هو مقطوعاته الإنجليزية، ونحب قبل أن نتحدث عن مادتها وعن قيمتها أفنية أن نشير إلى ما اتبعه الشاعر في نظمها، لأنه لم يجر فيها جميعا على طريقة واحدة، إذ إنه لم يتقيد بالطريقة الإيطالية فيها جميعا ولا بالطريقة الإنجليزية أو الشكسبيرية، وإن كان فيها محافظا أكثر منه مجددا

ويمكن القول بوجه الإجمال إنها جميعا أقرب إلى الطريقة الإيطالية إلا الحادية عشرة منها، وهي جميعا إيطالية الصدر أو الفاتحة، وهي كذلك جميعا إيطالية الخاتمة ما عدا الحادية عشرة، فهي في خاتمتها مزيج من الإيطالية والشكسبيرية؛ بيد أن ملتن لم يتقيد في بعضها بإحداث تغير في القوافي بين الفاتحة والخاتمة بل تركها تنساب كما هي بعد السطر الثامن. ونستطيع أن نقسم مقطوعات التسع عشرة على النحو الآتي: تسع إيطالية من جميع الوجوه،

وثمان إيطالية ولكن بغير فاصـــل بين الفاتحة والخاتمة، وواحدة هي الحادية عشـــرة بين الإيطالية والإنجليزية، وهي التي وجهها إلى كرمول، وواحدة هي التاســعة عشــرة أو الأخيرة ذات ذيل بعد خاتمتها. ولم نشــر من قبل إلى هذا النوع الأخير، فنقول الآن: إن هذا النوع المذيل ليس من ابتكار ملتن، ولكن وقع مثله في مقطوعات الإيطاليين، وإن كان مما ندر، فإن بعض الشـــعراء كانوا يضيفون سطرين أو خمسة إلى الأربعة عشر سطراً التي تتكون منها المقطوعة إذا لم يســتطيعوا أن يعبروا عن المعنى كله في هذا العدد من الأسطر، وكان يعد هذا الضرب معيباً ضعيفاً ولذلك قلما لجأ أليه الشعراء. ولم يخيل من هذا الضــعف كلتن نفســه في ذلك الذيل الذي أضــافه إلى مقطوعته الأخيرة : (إلى مستكرهي الضمائر الجدد في عهد البرلمان الطويل)، ففي هذا الذيل ما ينبو عن الذوق من خشونة وعامية وتلاعب باللفاظ.

أما عن مادة هذه المقطوعات، فيجدر بنا أن نذكر ما سلف به القول من أنها قيلت في مناسبات، ولذلك جمعت بين الخواطر السياسية والدينة والوطنية وما يتصل بالرثاء والحب والمسائل الشخصية. وكانت المقطوعات قبل ملتن تدور على الحب، وندر فيها ما خرج عن هذا المجال ســواء عند الإيطاليين وعند الأليزابيثيين ولذلك مال بعض نقدة الأدب إلى استصغار شأن المقطوعات على العموم ونظرهم إليها نظرتهم إلى التافه من الأشــياء، فهي عندهم من مظاهر العبث واللعب وملء الفراغ بما لا يجدي، وليس فيها صــدق ولا علم ولا فائدة من أي نوع. ولعل لهؤلاء بعض العذر فيما ذهبوا إليه، فإن شــعراء الشــباب كثيراً ما كانوا ينظمون خواطرهم في مقطوعات وليسوا جميعاً مجيدين فشاع فيها الضعف والفسولة، ولكن قدراً منها كان محكم السبك رائع المعنى صادق العاطفة جليل الشاعرية كما يتبين في أكثر مقطوعات سبنسر وفي مقطوعات شكسبير جميعاً على كثرتها. إذ قد بلغت مائة وخمسين مقطوعة، وما جعل بعض النقاد يحتقر شأن المقطوعة كضرب من ضروب الشعر إلا سامهم من نغمات الحب الشاكية الباكية في معظمها، وظنهم أنها ما نظمت إلا على سبيل

اللهو وإبراز المقدرة على النظم، فإن كان في بعضها شيء من الصدق، ففيها كذلك كثير من المبالغة والكذب!

وجاء ملتن فخرج بالمقطوعة عن مجال الحب وجعلها لكل ما يخطر على قلبه، فاكتسبت المقطوعة على يده قوة وخطراً وطبعت بطابع الصدق والإخلاص وجرت فيها إشارات إلى أمور تتصل بالعلم أو بالفلسفة فألبسها ذلك كثيراً من الجد والفائدة وليس هذا الاتجاه بالأمر الهين في تاريخ المقطوعة إذا ذكرنا أنه أوحى إلى شعراء القرن التاسع عشر أن يحذوا حذوه، فكان لمقطوعاتهم في الحرية والسياسة وانتقاد عيوب المجتمع وأشباه ذلك من المسائل قيمة عظيمة وأثر بعيد في القلوب والأذهان ما كان يتفق لها لو أنها اقتصرت على التغني بمعاني الحب والجمال. ويتجلى أثر ملتن في هذا التوجيه في مقطوعة وردثورث التي أشرنا إليها والتي يقول فيها شاعر القرن التاسع عشر: إن انجلترة في حاجة إلى ملتن؛ والتي يذكر فيها شكواه قائلا: (نحن قوم طغت علينا الأنانية، وارفعنا وأمددنا بالمثل في الآداب والفضيلة والحرية والقوة)

ويحس من يقرأ مقطوعات ملتن أنها نفثات نفس عظيمة وهمسات روح قوية، وهي على قلتها زاخرة بفيض من الخواطر، ويرجع ذلك إلى طبيعة المقطوعة في بنائها كما يرجع إلى مقدرة ملتن العظيمة على الإنجاز البليغ الذي جعله يعبر بالكلمات القلائل عن المعنى الواسع الكثير الوشائج، وهي مقدرة جعلها وكولى من أبرز خصائص شعره، بل جعلها خاصته التي يمتاز بها من أكثر الشعراء، وهي من الزم الصفات كما ذكرنا لبناء المقطوعة

وحسبك أن تقرأ في هذه المقطوعات العاطفة الرقيقة التي تعبر عنها النغمة الهادئة الرخية كأنها نسمات الفجر، إلى جانب الصرخة الصاخبة المدوية كأنها هياج العاصفة أو اصتخاب الموج، لتعرف كيف استطاع ملتن أن يجعل من المقطوعة شيئاً آخر قوياً مهيباً له خطره وأثره، وتجد مثالا للأولى في إشارته

إلى ما أصـــابه من عمي وفي توجده على فقد زوجته الثانية، وتجدمثالا للثانية في غضـبته لمذابح بيدمنت وجملته على مسـتكرهي الضـمائر من البيوريتانز، وفي سخريته ممن انتقدوا كتيباته من خصومه. وبين هذا وذاك تقع على نغمات تتصف بالقوة والجلال وهي التي مجد بها أبطال قومه مثل فيرفاكس وكرمول، والتي دافع بها عن الحرية الدينية والسياسية

بهذه الصـــفات وأمثالها رفع ملتن المقطوعة مكاناً عالياً، فلم تعد كما كانت أغنيات غرامية رائعة أو مائعة، وإنما أصـبحت هتاف شـاعر يهيب بقومه إلى جانب كونها خلجات نفس تتألم وتتفجع كسـائر النفوس، وما من أصـدق وأجمل كلمة وردثورث التي وصـف بها المقطوعة على يد ملتن إذ قال: (لقد أصـبحت هذه بوقاً في يديه)

ولئن خرج ملتن بـالمقطوعـة عن نطـاق الإليزابثيين ومن قبلهم من الإيطاليين، وأتخذ منها أداة لخواطره السياسية والاجتماعية إلى جانب خطراته المنحصـــرة في حياته الشـــخصـــية، فإن تمكنه وصـــدقه قد جعلا لمقطوعاته السياسية والاجتماع من الجمال والسحر ما تسمو به إلى مستوى الآثار الأدبية الرفيعة، وأعانته ضلاعته على أن يلبس الآراء السياسية لباس الأدب الصحيح، ويضفي عليها رونق الفن وروعته وهو عمل يستعصي على من لم يكن له مثل عبقريته. ولما كانت المقطوعة عند الإيطاليين والإليزابثيين شكاة في الأكثر من حبيب قاس أو من ضـنى الحب وسـهده ووجده فقد الفتها النفوس في هذا المجال وإنْ كان قد تطرق إليها بسبب هذا الفتور والصنعة حتى استصغر شأنها بعض النقدة كما أشرنا.

ويعد خروج ملتن بها عن نطاقها جرأة في الفن تنهض دليلا على فحولته وصـدق شـاعريته يضـاف إلى ما توافى له من أدلة وذلك فضـلا عن كونه فتحاً في تاريخ المقطوعة صار له ما بعده.

ولقد أشـرنا إلى أكثر هذه المقطوعات كلا في موضـعها من سـيرته أو في المناسـبة التي نظمها الشـاعر فيها، وكانت مقطوعته التي ناجى فيها البلبل أول شـبابه هي باكورة مقطوعاته الإنجليزية وتليها المقطوعة التي نظمها بعد ذلك بقليل بمناسبة بلوغه الثالثة والعشرين من عمره، وكلتاهما من المقطوعات التي تدور حول شـخصـه، ومن أشـهر تلك المقطوعات الشـخصـية ما ظمه حين أصيب بفقد بصره ثم تلك المقطوعة التي رثى بها زوجته الثانية. أما مقطوعاته العامة فأولها مقطوعة جميلة لم نشـر إليها من قبل وهي التي اتخذ عنوانها (حينما أزمع مهاجمة المدينة) وكان ذلك سـنة ١٦٤٣ إذ تهددت جنود شـارل مدينة لندن، وهو يخاطب فيها الفرسـان ألا يزعجوه في مأمنه وألا يزعجوا الشعر في منعزلة وجزاؤهم على ذلك أن يخلد أسماءهم بثنائه ويشير فيها إلى ما فعله الاسـكندر الأكبر حين حطم مدينة مقدونيا فأنه اسـتثنى البيت الذي كان يعيش فيه من قبل الشاعر بندار، وكذلك فعل ليساندر القائد الإسبرطي فأنه أنقذ أثينا من الدمار لأنها أنجبت يوروبيدس وكان القائد قد سـمع بطريقة المصـادفة شيئا عن شعره. ومن اشهر هذه المقطوعات العامة مقطوعة عن مذابح بيدمنت وتلك التي مجد فيها فيرفاكس ثم تلك التي رفعها إلى كرمول.

ولسنا بحاجة إلى كثير من القول لبيان قيمة تلك المقطوعات جميعا من حيث بلاغة الشعر فيها وروعته، فإن خصائص شعر ملتن كما أسلفنا كانت مما يوائم بناء مثل هذه المقطوعات؛ ولقد كانت جزالة اللفظ مع إشراقه وجماله ووجازته وأداء المعنى المراد لا أكثر منه ولا اقل من أبرز خصائص شعر ملتن، وكذلك كان من خصـائصـه قوة تأثيره في النفوس بما تحويه ألفاظه من رؤى وأطياف وما يتداعى إلى الخاطر عند سـماعها من معان وأخيلة كأنما كان للفظة قوة خفية سحرية لا تنكر وان كانت لا تدرك؛ أضف إلى هذا موسيقى عذبة ناتجة من ائتلاف الألفاظ وصـوغها وإضـافة بعضـها إلى بعض على صـورة تكسـب كلا منها جمالاً لا يكون له غير هذا الوضـع وتجعل منها في مجموعها لحنا عجيبا تسـتشـعره النفس كما تسـتشـعره الأذنان، ويرى أكثر النقاد أن هذه

الخصـائص واضـحة في هاتيك المقطوعات لم تشـذ إلا في أسـطر قليلة أو في كلمات معدودات كانت اقرب إلى لغة العوام في مقطوعة من المقطوعات التي هاجم فيها الشاعر منتقدي فلسفته في الطلاق من خصومه.

الفردوس المفقود: موضوع القصيدة الكبرى

في سنة ١٦٥٨ اخذ ملتن كما أسلفنا يتوفر على نظم قصيدته الكبرى، ومن ثم تعد هذه السنة بدء هذا العمل العظيم وإن كانت أجزاء قليلة من القصيدة قد نظمت قبل ذلك كما يقول أبن أخته إدوارد فيلبس، ولم تنته سنة ١٨٦٣ حتى فرغ الشاعر الضرير كما يقول إدوارد كذلك من هذه القصيدة العظيمة التي تبلغ زهاء خمسة آلاف وخمسمائة سطر، والتي تستغرق نيفا وثلاثمائة صفحة متوسطة الحجم، والتي تعد من اعظم الآثار الأدبية في أدب الدنيا قديمه وحديثه، والتي يتبوأ بها ملتن مكانة بين أفذاذ شعراء الملاحم الثلاثة : هوميروس ودانتي وفرجيل إن لم يبرعهم جميعا في أكثر من ناحية من القول كما يذكر كثير من النقدة الملحوظي المكانة في نقد أرادب والشعر.

ويمكن تلخيص موضوع القصيدة في كلمات قليلة؛ فهي قصة إبليس بعد أن فسق عن أمر ربه، فقد تمرد هذا الشيطان الأكبر ومن اتبعه من الغاوين واجترأ على محاربة خالقه فأخذهم الله أخذاً قوياً فإذا بهم جميعا في جهنم جثيا؛ ثم خلقت جنات عدن وخلق آدم وحواء ودلهما الله على الشجرة المحرمة ونهاهما ربهما أن يقربا هذه الشجرة، فوسوس لهما الشيطان فأكلا منها وعصيا ربهما فأخرجهما من الجنة.

وحق للمرء أن يعجب كيف يخلق الشاعر من هذه القصة على بساطتها قصيدة بلغت هذا الذي بلغته من الطول، وما فيها منظر أو فكرة مما يصح حذفه، ثم ما فيها موضع تطرق إليه شيء من الضعف أو شيء مما يبعث السأم في نفس القارئ، بل إنها جميعا تبلغ من السمو والقوة مدى يتخاذل دونه جهد المبدعين ويتقاصر عنه افتتان المفتنين فما يقع المرء فيها إلا على ما يعجب ويطرب وما يشيع في النفس نشوة روحية قوية تشعرها بسر العبقرية وسلطانها وتذرها مسحورة مأخوذة حتى ينقضي هذا الحلم الجميل.

ولكن دواعي العجب لا تلبث أن تزول إذا ذكر المرء مبلغ ما أوتي الشاعر من خصوبة الخيال وقوته، وما رزق من دقة الوصف وروعته، وما وهب من قدرة على الابتكار والتفنن في خلق الصور الذهنية الأخاذة والتصرف في مذاهب البيان، هذا إلى ما يشيعه في قصته من فلسفة وعلم، وما يدخله بين الفنية والفنية من أساطير الإغريق وآلهتهم وسائر مخلوقاتهم مما يملأ قصيدته بألوان من السحر وأفانين من كل ما يفيد ويمتع.

والقصيدة ليست بنت هاتيك السنوات الخمس التي نظمها فيها، وإنما هي متجه خاليه وأرب نفسه منذ أول عهده بالشباب، فقد كان أمله الذي ملأ خياله منذ حداثته أن ينظم قصيدة تجعل له ولأمته مكانا عليا في أدب هذه الدنيا؛ والى ذلك أشار في قصيدته التي ناجى فيها لغة قومه وهو في سن التاسعة عشرة كما سلف أن ذكرنا ذلك في موضعه، وإن لم يك عين موضوع تلك القصيدة بعد.

ولم يتعجل ملتن النظم، بل اخذ يتهيأ لما يطمح إليه فينهل من المعرفة ما يسعه أن ينهل، وفي نفسه أمل يلازمه ولا يبرح يذكره أنه سوف ينظم في يوم ما ملحمة كبرى تسلكه في الخالدين النابهين من شعراء الدنيا، أما ماذا تدور عليه الملحمة فذلك أمر لم يتبينه وحسبه أن يطلب لنفسه ما وسعه من زاد في الفلسفة والعلم.

وكان يفكر كما ذكرنا قبل في الملك آرثر وعصره وبطولته وسيرته عله يستخرج من ذلك ملحمة قومية كان يريد أن يسميها الآثريادا، وتقع إشارتان منه إلى ذلك إحداهما في قصيدة أخرى نظمها عقب عودته إلى وطنه؛ ولكنه ما لبث أن طرح موضوع الملك آرثر جانبا ولم يعد إليه بعد ذلك.

وظل ملتن متعلقا بأمله في نظم قصيدة كبرى، وكان هذا التعلق المتصل بالأمل المنشود هو الفكرة المتسلطة في حياته كلها من جميع أقطارها ولذلك لم يأل جهدا في الإفادة مما حوله فكان انقطاعه للدراسة في هورتون، وكانت

رحلته إلى إيطاليا وكان منصبه في الدولة وكانت كتاباته الدينية والسياسية، كل أولئك كان جوانب لدراسته وموارد لثقافته قصد إلى ذلك أم لم يقصد إليه.

وانقطعت صلته بالشعر زهاء عشرين عاما إلا ما كان من مقطوعاته، ولكن خيال القصيدة الكبرى لم يبارحه قط، وليس أدل من ذلك على شدة إيمانه بأنه خلق لرسالة في الشعر وعلى عظم إخلاصه لفنه، ولقد رأينا ما أحاط به من المحن والكوارث فلم يصرفه ذلك عما خص له حياته، وإن واحدة منها لكفيلة بأن تقعد المرء عما يخف كثيرا عن ذلك الذي اضطلع به من عبء.

وربما كان خيرا له وللأدب أنه لم ينظم ملحمته الكبرى إلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره فلعلنا كنا لو نظمها في صدر شبابه لا نظفر منه بما ظفرنا به من آثار خبرته بالحياة والناس وطول باعه في البيان وضلاعته في المعرفة وانصقال فنه وما اكتسب شعره من فحولة وقوة. ولقد حال بينه وبين تحقيق أمله في شبابه ورغبته كما رأينا في الاستزادة من الثقافة استزادة تكافئ ما يطمع أن ينهض به من عمل ضخم في دنيا الفن، ثم حيرته في اختيار الموضوع الذي تدور حوله قصيدته، وجاءت بعد ذلك حربه على القساوسة ثم اشتغاله بالسياسة فأخرته على رغمه تلك السنوات الطويلة.

ولقد هم قبل تلك الشواغل سنة ١٦٤١ بالنهوض بما منته نفسه به، إذ أنه يتبين من قائمة كتبها الشاعر بين سنتي ١٦٤٠، ١٦٤٢ أنه فكر فيما يقرب من مائة موضوع، وكان ثلثا هاتيك الموضوعات مقتبسا من الإنجيل، وكان همه متجها إلى واحد من بينها سماه تارة (الفردوس المفقود) وتارة (آدم يخرج من الجنة) فقد وجد في هذه القائمة بيان أسماء شخصيات لدرامة يرسمها وبيان لما تكون عليه تلك الدراسة وقد وضع لذلك عدة صور لعله كان يفاضل بينها، ولا زالت تلك القائمة محفوظة كأثر من آثار الشاعر العظيم في مكتبة كلية ترينتي بجامعة كمبردج.

ويتبين من ذلك أم ملتن كان يومئذ يريد أن يلبس موضوعه لباس الدرامة لا الملحمة، ويؤيد هذا الرأي ما ذكره في هذا الصـــدد إدوارد فيلبس، وذلك أن الأسطر التي يخاطب بها الشيطان الشمس في أوائل الكتاب الرابع من الملحمة قد نظمت قبل بدء الشـاعر في نظم الملحمة بنحو خمسـة عشـر أو سـتة عشـر عاما وأنها نظمت لتكون في مستهل عرض لمأساة.

ثم انصرف ملتن كما رأينا عن الشعر وانشغل عن أمنيته الكبرى حتى كانت سـنة ١٦٥٨ فتوفر على موضـوعه، فلما أتمه كان ملحمة تضـاف إلى الملاحم الكبرى في دب العالم وسميت الفردوس المفقود.

ونظمت الملحمة في سـتة أقسـام أو سـتة كتب، ولقد أوجزنا موضـوعها في أول هذا الفصل فلنبسط هنا بعض البسط، ولا نجد خيرا من أن نقص خلاصـة هاتيك الكتب الستة التي تتألف منها القصة.

افتتح الشاعر الكتاب الأول بمناشدة إله الشعر أو ألهته العون فيما هو بسبيله على عادة شعراء الملاحم عند بدء ملاحمهم، ثم يعرض الشاعر الموضوع كله فيذكر أول عصـيان للإنسـان وما يترتب عليه من إخراجه من الجنة حيث كان موطنه، ويشـــير إلى غواية الشـــيطان، ويذكر عصـــيانه وتمرده على خالقه واسـتطاعة ضـم أكثر من قبيل من الملائكة إليه، حتى طرده الله من الجنة ومن اتبعه وألقى بهم في قرار من جهنم ســحيق؛ ثم يصــف الشــاعر كيف كان هذا الهبوط من الجنة حتى يرينا الشـــيطان ومن معه في قرار الجحيم، في ظلمات بعضـــها فوق بعض؛ ويظل هؤلاء على وجوههم وعلى جنوبهم في هذا العماء زمنا يتقلبون في بحيرة هائلة تتلظى بالحمم واللهب وفي نفوسـهم رهبة ودهشـة مما أخذهم من صـــاعقة، ثم يفيق الشـــطان بعد لحظة من هذه الغاشـــية فينادي اقرب اتباعه من منزلة وأولهم بعده مكانة وهو يصـلى النار الحامية إلى جواره ويتحاورون فيما أصـــابهم من هذا الهبوط؛ ويتكلم الشـــيطان الأكبر في الأباء والعناد والإصـــرار قائلا إنه لخير أن يحكم في النار من أن يخدم ويطيع في

الجنـة؛ ثم يدعو الشـــيطـان اتبـاعـه ولم يزالوا مكبين في النـار على وجوههم فينهضون فيسوى صفوفهم ويعدهم للقتال ويختار من بينهم قادتهم وكبراءهم ثم يناديهم فيعدهم ويمنيهم باســـترجاع مكانهم في الجنة وينبئهم بدنيا جديدة تخلق ونوع جديد من المخلوقات يدب فيها وكل أولئك يجيء وفق نبوءة أو نبأ ترامى إليه وهو في الجنة ولكي يعلم مبلغ ما تحقق من هذه النبوءة وماذا يكون موقفهم من هذه الدنيا يشـــير إلى مجلس ينتظمهم جميعا حيث ينظرون ماذا يفعلون! ثم يشير الشـاعر إلى مأوى الشياطين أو قصـر الشيطان الأكبر وقد استوى قائما منبعثا من أعماق العماء وهناك يجلس كبار شـــياطين الجحيم ليوافيهم اتباعهم ليتشـاوروا فيما بينهم كما أراد كبير الشياطين أجمعين؛ وتتزاحم الشياطين على قصـر رئيسـهم وقد مدوا في اللهب اجتحتهم وملاؤا الجحيم حفيفا بهذه الأجنحة الممتدة، ثم يتساقطون جماعات جماعات حتى يضيق بهم القصر على سعته.

وفي الكتاب الثاني تبدأ المشـاورة فيجلس الشـيطان الأكبر على عرش هائل ويتحدث إلى اتباعه متسائلا هل هو خير لهم أن يشنوا معركة أخرى لاسترجاع الجنة التي اخرجوا منها ويدعو كل من يحسن الرأي أن يتكلم بما يرى.

ويتتابع عدد الشـياطين كل يدلي برأيه ويبسـط حجته، فكانوا فريقين، فريق رأيه الحرب وآخر يخشـى عاقبتها ولا ينصح بها، والشيطان الأكبر يوازن بين حجج كل فريق ولكنه لا يقطع أمراً، حتى ينبعث صوت بمقترح مؤداه أن يدعو الحرب إلى أمر أخر هو النظر في مبلغ صـــحة تلك النبوءة أو الرواية التي علمت في الجنـة على خلق دنيا جديدة، ونوع أخر من المخلوقات يســـاوي الملائكة منزلة أو هو لا ينزل كثيرا عن مستواهم وهذا هو وقت خلقهم، وتتجه أفئدة الجميع إلى هذا المقترح وسـرعان ما يجتمعون عليه، ولكنهم يحارون منذ يذهب في تلك الرحلة العظيمة العســـيرة فيســـتطلع لهم ما يريدون؛ ولا تطول حيرتهم فهذا كبيرهم يعلن أنه يذهب وحده فيأتيهم بنبأ يقين، ويمجده الشـــياطين

شـــاكرين له هاتفين به؛ وينتفض عن شـــياطينه المجلس فيذهب كل إلى حيث يقضي الوقت ريثما يعود كبيرهم من رحلته

ويطير الشـــيطان الأكبر فيقطع في رحلته أرجاء الجحيم حتى يأتي أبوابها فاذا هي مغلقة وعلى كل باب ثلاث طبقات من الحديد وثلاث من النحاس وثلاث من الحجر الصـــلد، وتحرس هذه الأبواب أنماط من الحرس هي في أشكالها أليق ما تكون بحراسة أبواب الجحيم، لا هي من الجن ولا من الوحوش ولا من الأفاعي وإنما هي مزيج من هذا كله ركب بعضـــه في بعض، وهي أشباح للخوف والوباء والموت، ويزجر الخوف الشيطان ويأمره أن يعود إلى مكانه في النار، ولكنه لن يزال يطلب أن يفتح له باب حتى يفتح له الموت بابا فيلج منه إلى خارج الجحيم في عســر شــديد، ويرى مدى ما بين الجنة وجهنم من أمد، وما يزال الشــيطان يســبح بأجنحته في العماء في عناء وعســر حتى يصبح بمرأى من الدنيا الجديدة فتقع عليها عيناه.

ويفتتح الكتاب الثالث بمناجاة النور مناجاة تعد من أروع ما في القصيدة من مواضـــع الجمال، وقد أراد الشـــاعر بهذه الفاتحة أن يمهد للانتقال من الجحيم والعماء إلى الجنة وما فيها من زينة وبهجة.

ثم يتحدث الشـــاعر عن الله وقد اســـتوى على العرش وعلى يمنه ابنه، وقد رأى الشـــيطان طائراً صـــوب الدنيا وقد تم خلقها قريباً، ويُرى الله ابنه هذا الشيطان في رحلته وينبئه بما سيكون من نجاحه في إضلال بني آدم وغوايتهم. ويبرئ الله عدالته وحكمته من كل مظنة أو لبس فقد خلق الله الإنسان حراً قادراً تمام القدرة على أن يقاوم مضـله الموسـوس له؛ ومع ذلك فأن الله يكشـف عما يشـاء لعباده من هدى وسـعادة وذلك لأن الإنسـان لم يعص كالشـيطان بدافع من الشر، وإنما عصى بدافع من الغواية التي لاحقه بها الشيطان حتى أذله وأخرجه مما كان فيه.

ويرفع ابن الله شـــكرانه على ما أظهره عليه من نية ومشـــيئة في إســـعاد الإنسان؛ ولكن الله يعود فيعلن أن رحمته سوف لا تنال الإنسان إلا على أساس ما ينبغي للعدالة الإلهية من كمال؛ فقد أســـاء الإنســـان إلى جلال ربه بطموحه إلى الألوهية واقتطافه الثمرة المحرمة، ولذلك قدر عليه أن يموت ولا بد أن يدركه وذريته الموت، وما له من خلود إلا أن يوجد من هو كفء لأن يســـأل عن خطيئته ويكفر عنها بما يحتمل من ألم وعقاب؛ ويتقدم ابن الله طائعاً مختاراً لكي يكون هو الفداء للإنســـان، ويتقبل الأب منه هذا الذي يعرضـــه، ويأمر به فيتجسد ويتمثل بشراً سوياً ويرفعه الله مكاناً علياً؛ فهو فوق كافة الأسماء في الجنة وفي الأرض ويدعو الله الملائكة فيأمرهم أن يســـجدوا له ويتعبدوا، فيفعلون طائعين ويســـبحون بحمد الأب والابن وتمجديهما مرتلين نشـيد الحمد جميعاً في نغمة واحدة ترددها أوتار قيثارتهم.

وفي تلك الأثناء يسقط الشيطان حتى يقترب من كوكب خارجي قصي عن هذه الكرة التي هي الدنيا، كوكب يفصـــل بين الأرض وبين العماء والظلمة

الممتدة من الجحيم من تحته؛ وهناك يجد بعد تجواله مكاناً سوف يكون فيما بعد جنة للمغفلين ويصف الشاعر هنا من سوف يسكنون هذه الجنة فثمة من مات من الأطفال قبل تعميدهم وثمة البلهاء والبسطاء والذين ماتوا قبل أن ينزل الدين.

ويتابع الشيطان طيرانه صاعداً حتى بري على باب الجنة، وينظر الشيطان فإذا هو بالغ الروعة والبهاء والزينة، ليس كمثله بناء فيما سيخلق الإنسان في الأرض، فهو معقود من الذهب والماس ويرتفع الداخل فيه صعدا على سلم من الذهب الوهاج، وحوله أنهار من اللؤلؤ المذاب؛ ويستمر الشيطان محلقاً حتى يأتي كوكب الشمس وجد عمده حارسه أَرْيِلْ، فيتنكر ويظهر بصورة ملك من الملائكة الذين هم دون أريل في المرتبة إذ إن أريل من الملائكة المقربين، ويتوسل إلى أريل أن يدله على ذلك الإنسان الذي خلقه الله حديثاً والذي سوف يهبه دنيا جديدة واسعة يعيش فيها وينعم بها. ويقول الشيطان في ضراعة إنه ما قطع هذه الرحلة الطويلة منفرداً إلا ليطلع على بديع ما خلق الله مما سمع عنه هو ورهطه من الملائكة، وذلك لكي يزداد تمجيداً لله وتسبيحاً بحمده؛ ويستطيع الإنسان أن يخدع أريل نفسه فيشير أريل إلى مكان ما ويقول للشيطان أنظر فهذه هي الجنة حيث يقيم آدم وهذه البقعة الداكنة التي ترى هي عشه، وينطلق الشيطان بكل ما في وسعه من سرعة فما زال طائراً حتى يبلغ حيث أراه أريل.

ويبدأ الكتاب الرابع والجنة على مرأى من الشيطان، وقد أصبح على مقربة من المكان الذي يسكن فيه آدم وزوجه، والذي سوف يحاول فيه محاولته الجريئة التي عقد العزم على أن يضطلع بها وحده ضد الله وضد الإنسان؛ ولكنه قبل أن يقدم على عمله أخذت تساوره وهو على مقربة من الجنة هواجس من الشك واليأس، كما أخذت تهجس في نفسه عواطف الخوف والحسد

والبغض؛ وبعد لأي ينطلق من عقال هذه الهواجس جميعاً ويصـمم على الشـر الذي جاء من أجله، ويسرع صوب الجنة حتى يبلغها.

وبعد أن يصف الشاعر وصفاً ممتعاً رائعاً وصف الجنة الخضراء ويتحدث عن أشجارها وثمارها ويبين أين تنبت شجرة الحياة وأين تنبت شجرة المعرفة، يرينا كيف يتسلل الشيطان فيدخل الجنة واثباً فوق أسوارها.

وفي الجنة يحيل الشيطان نفسه إلى ثعبان ويزحف حتى يستقر فوق شجرة الحياة وهي أعلى الأشـــجار، ويدور بعينه من فوق الشـــجرة ينظر ماذا يرى حوله. وهنا يتحدث الشاعر عما يرى الشيطان فيأتي بوصف آخر للجنة ويبلغ في ذلك من الروعة والقوة ما لا يتعلق بمثله وهم شاعر غيره.

وتقع عينا الشـيطان على آدم وحواء فيرى أول ذكر وأول أنثى من البشـر، ويتفكر الشـــيطان فيما هو بســـبيله من إغواء، ويقارن بين ما هما فيه من نعيم وبين ما سوف يدفعهما إليه من شقاء؛ ويهبط من فوق الشجرة فيتشكل بأشكال ما تقع عليه عيناه من حيوانات حتى يقترب من آدم وحواء فيسترق السمع وهما يتحاوران ويتحدثان؛ ويعلم منهما أن الله نهاهما عن شـــجرة المعرفة، فأن أكلا منهـا أخرجهمـا ربهمـا من الجنـة وكتـب عليهمـا وعلى ذريتهمـا الموت. ويقع الشـيطان هنا على بغيته فقد وجد سـبيله إلى إضـلالهما فما عليه إلا أن يغويهما بالثمرة المحرمة حتى يأكلا منها فإذا هما من الهالكين؛ ثم يدعهما الشـــيطان ريثما يعلم من أكثر مما علم بما سوف يعده لذلك من وسائل.

وفي ذلك الوقت ينزل أريل على شـعاع من أشـعة الشـمس، فيحذر جبريل وهو حارس باب الجنة وينبئه أن روحا خبيثا صـاعدا من العماء السـفلي قد مر وقت الظهيرة بكوكبه متنكرا شكل ملك كريم، وأنه أتجه بعد ذلك صوب الجنة، وقد فطن إلى ذلك بعد ن تدبر في الأمر؛ ويجيبه جبريل بأنه سـوف يبحث عنه فيأخذه قبل أن ينبلج الصبح.

وينزل الليل فيميل آدم وحواء إلى الراحة ويتحاوران في ذلك؛ ويأويان إلى عشهما في الجنة ويصليان لله صلاتهما؛ ويصف الشاعر هذا العش وهذه الصلاة وصفا رقيقا جميلا.

ويعس جبريل في الجنة على رأس فريق من الملائكة هم من عسسها، ويضع على عش آدم ملكين قويين غليظين مخافة أن ينالهما بالأذى ذلك الروح الخبيث أثناء نومهما؛ وينظر الملكان فإذا بذلك الروح يوسوس لحواء في إذنها وهي نائمة فتحلم بالذي يقول، ويأخذه الملكان فيجرانه جرا إلى جبريل، ويسأله جبريل عن فعلته، فيجيب مستكبراً مستهزئاً، ويتأهب للعنف والمقاومة، ولكنه لا يلبث أن يجد نفسه، وقد منع ذلك منعاً من السماء فيطير ويهرب من الجنة.

ويتنفس الصبح فتقص حواء على آدم ما كان في حلمها الذي شغل نفسها؛ وبهذا يفتتح الشاعر الكتاب الخامس؛ ويكره آدم هذا الحلم ويفر منه ولكنه يعمل على تهدئتها ويجتهد أن يصرف عنها ما يشغلها من وساوس.

ويقبل آدم وحواء على عملهما اليومي ويقرآن صلاتهما عند باب عشهما وينشدان نشيدهما يسبحان بحمد ربهما؛ ولكيلا يكون للإنسان على الله حجة يرسل الله روفائيل ليذكرهما بطاعته وامتثال ما نهاهما عنه، ولينذرهما أن الشيطان لهما عدو وأنه على مقربة منهما، ويبين لهما لم كان الشيطان لهما عدواً مبيناً إلى غير ذلك مما يجب أن يعلمه آدم من علم ينفعه.

ويهبط روفائيل فيدخل الجنة، ويصف الشاعر ظهوره في ربوعه؛ وتأخذه عينا آدم من بعد وهو جالس بباب عشه، فينهض للقائه ويسلم عليه ويدعوه إلى مقره، ويقدم له أطيب ما اختارته حواء من فاكهة الجنة؛ ويتحاور آدم وروفائيل حول الخوان؛ وينبئه روفائيل بما جاء من أجله ويحذره من الشيطان ويذكر له ما يضمره له ولزوجه من العداوة والبغضاء؛ ويقص عليه استجابة لطلبه من هو هذا العدو وكيف أصبح لهما عدواً، ولماذا ينطوي على العداوة قلبه مبتدئاً

بما كان من تمرده في السماء على خالقه وما أعقب ذلك من غضب الله عليه وإلقائه إلى الجحيم.

وهنا يصف الشاعر على لسان روفائيل تلك المعركة التي أدارها الشيطان الأكبر على رأس قبيلة، والتي أجمل الشاعر الإشارة غليها في مفتتح القصيدة

ويستطرد روفائيل في أول الكتاب السادس ليتم كيف دارت المعركة فيصف كيف أرسل ميكال وجبريل ليحاربا الشيطان وهو ثائر متمرد على رأس جنده، وكيف وقف القتال في اليوم الأول عند نزول الليل، وكيف جمع الشيطان مجلساً من أعوانه الثائرين فابتكروا أسلحة أوقعت ميكال وجنده في شيء من الحيرة والاضطراب، وكيف استحر القتال فافتعل ميكال وجمعه الجبال وقذفوا بها الشيطان وأعوانه وزلزلوا زلزالاً شديداً وأدخلوا على قلوبهم الرعب والدهشة في اليوم الثاني؛ وكيف أصر الشيطان على الرغم من ذلك، فصاول وطاول ولج في شره وعناده حتى أرسل الله في اليوم الثالث ابنه المسيح الذي احتفظ له بالنصر وفخاره؛ وكيف سوى المسيح الملائكة صفاً وفي روحه قوة أبيه، وقذف في صفوف أعدائه بالرعد القاصف، ووثب في مركبته فدفعهم دفعاً إلى أسوار السماء؛ وكيف فتحت أبوابها. فألقى العصاة منها جماعات قد امتلأت رعباً وهوت إلى قرار سحيق أعد لها في الظلام والحمم نكالاً من الله؛ وكيف عاد المسيح بعد ذلك ظافراً إلى أبيه.

فهرس الموضوعات

بين عهدين منشأ البيوريتانية ٩

البيوريتانية كمذهب..... ١٦

طفولة ملتن ونشأته ١٩

ملتن في الجامعة ٢٥

في هورتون..... ٤٣

إشارة في هورتون..... ٥١

أشعاره في هورتون ٥٩

ليسيداس ٧٦

رحلة إلى إيطاليا..... ٨٢

بين الطغيان والحرية ٩٠

بعد أوبته من إيطاليا.....١٠٨

حربه على القساوسة.....١١٤

الزواج والصدمة الأولى ١٢٨

البرسبيزينز والصدمة الثانية.....١٤٩

أربع سنوات بغير حرب ١٦٤

في ميدان السياسة.....١٧٢

البطل الضرير.....١٩٥
عود إلى الشعر ٢٢٦
الفردوس المفقود موضوع القصيدة الكبرى.....٢٣٨